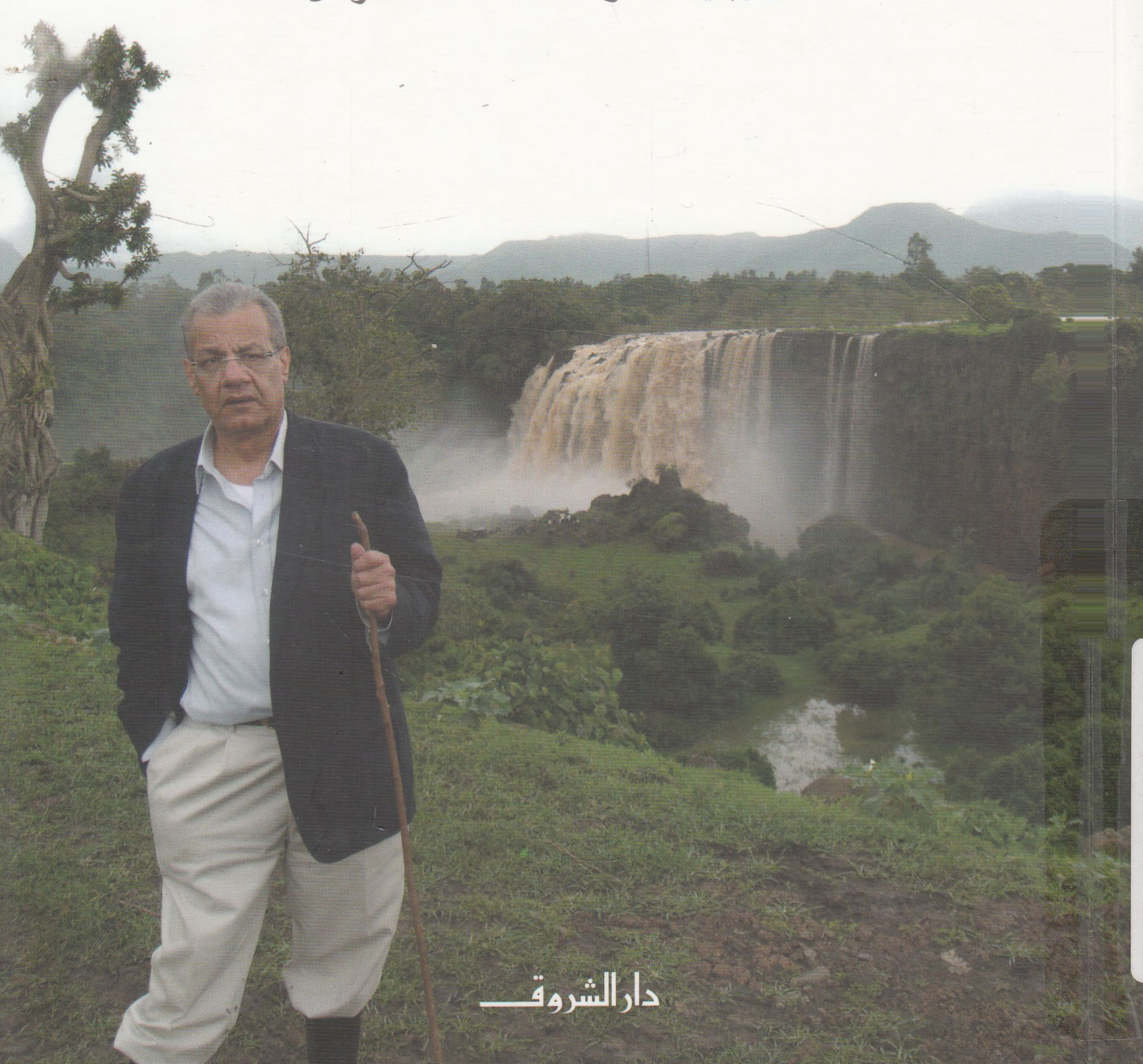
عادل حمودة

ثرثرة أخرى فوق النيل

رحلاتي إلى منابع النهر

أثيوبيا • أوغندا • السودان



دار الشروق

ثرثرة أخرى
فوق النيل

الطبعة الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ١٤٠٦٣/٢٠١٠
ISBN 978-977-09-2888-4

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢)+
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

عادل حمودة

ثرثرة أخرى فوق النيل

دار الشروق

المحتويات

الفصل الأول

ذكر أو أنثى لا بد أن نلقي له بفتاة عذراء حتى يهدأ!

في مصر يسمونها «ليلة الدمعة».. دمعة العين التي خرجت من أزوريس حزنا على زوجها أوزريس الذي قتله ومزق جثته شر ممزق شقيقه ست.. قطرة المياه الأولى التي تبشر بفيضان النيل في عز الصيف.. اللؤلؤة الصافية الساخنة التي تسقط بين ساقي حابي.. إله النهر.. فتجدد شبابه.. وحيويته.. وخصوبته.

قبل نحو ٦٨٢٥ كيلومترًا.. في منطقة أثيوبية.. يطلق عليها «بحر دار» يسمونها «الليلة الحمراء».. فالأمطار الاستوائية الشرسة التي تسقط هناك تأكل حمرة التربة الجبلية.. وتحتضنها في رحمها.. وهي تلقي بنفسها من مرتفعات تصل إلى ٦١٣٣ قدمًا إلى مجرى النهر فيما يسمى بالنيل الأزرق.

وتستقبل الفتيات هناك مياه السماء وهن عرايا.. فيشتد العود.. ويتمرد الصدر.. ويستعد الجسد للتعبير عن رغباته.. ويتحين الرجال الصغار الفرصة للقنص.. والخطف.. والعشق.

إن عروس النيل الأسطورة الخرافية التي شاعت في مصر حيث دولة المصب والمصير حقيقة مجسمة في أثيوبيا حيث دولة المنبع والمنبت.

وقد شهدت بنفسي في تلك المنطقة البعيدة حلقات جماعية للرقص الناعم على أنغام الناي الساحر.. تقترب أجساد الجنسين ولا تلتقي.. تشتعل نيران

الشهوة فيها.. لكن الأمطار تطفئها.. ونسمع صوتا شجيا.. يغني للآلهة التي تركت عروشها العلوية وتنكرت في حبات مياه عفية.. وبرية.. وقادرة.. تخلق الخضرة والشجرة والثمرة والعلقة.. وما إن ينتهوا حتى يلقوا في النهر أغلى ما يملكون.. الدجاج والخرز.. وهو ما يحدث من القبائل التي تسكن في أوغندا على ضفاف بحيرة فكتوريا.. منبع النيل الأبيض.

كنا مثلهم منذ نحو خمسة آلاف سنة.. نلقي بأنفسنا في النهر عرايا كي نتطهر من الجفاف.. وننبذ الصفار.. ونلعن السنوات العجاف.. ونجدد الوفاء.. وفاء النيل.. وهو عيد زيادة منسوب المياه.. يخرج فيه الكهنة حاملين زورق آمون المقدس.. تتقدمهم تماثيل الملوك.. ووراءهم الفرعون.. أول الشاكرين وآخر المبتهلين.. ولا بد من تمثال لعذراء ليتزوجها النهر الذكر الحي.. فيهدأ.. ويرضى.

وكان الكهنة يبتهلون إلى النيل بأناشيد بالغة الرقة والرومانسية والروحانية.. «السلام عليك أيها النيل الذي يخرج من الأرض لينعش مصر.. يولد في الظلمات ليرينا النور.. خلقك رع لتطعمنا.. وتروي حتى الصحراء البعيدة.. ولو لم توجد لانعدمت القرابين وماتت الملايين.. ولو ارتفعت مياهك كانت الأرض في سرور.. وابتسمت الزهور.. وضحكت الثغور».

وحفظ المصري القديم في الدنيا نصا استعد به لملاقاة أوزريس وقضاة الموت في الآخرة: «إنني لم ألوث ماء النيل ولم أحبسه عن الجريان في موسمه ولم أسد قناة».. ترى لو كنا نحاسب على ما نفعل في النيل الآن هل كان بيننا من يمكن أن يرد على جنة؟

ولو تأخر الفيضان توجه الفرعون بنفسه إلى أقصى الجنوب.. حيث جبل السلسلة القريب من كوم أمبو.. ليستعطف النهر بالهدايا.. يقدم له ثورا رماديا.. وبردية تتضمن تعويذة سحرية لحمله على الخروج من مرقده.. والقيام من سباته..

ويعزف الشباب على العود.. وترقص الفتيات بقطع صغيرة من الملابس.. في حالة إغراء لا مثيل لها لمجرى مائي.

وعلى جدران المعابد حفرت صورة رمسيس الثالث وهو يقدم للنيل تمثال امرأة جميلة كي تكون زوجة له.. ومن يومها اعتبر النهر مسئولية حاكم مصر.. فرعون أو ملك أو رئيس.. مسئولية أضيفت إلى مسئوليته في الوحدة الوطنية التي بدأت مع مينا موحد القطرين.

وفي المقابل كان الكهنة يروجون في المعابد: «إن فرعون يأمر النيل بالارتفاع فيطيعه النيل في أحرج ساعة.. حين يوشك أن يتوارى في الهاوية».

وكان الكهنة.. تجار الآلهة.. أكثر الطبقات الاجتماعية استفادة بعد العائلة الحاكمة.. فقد تمتعوا بما حرموه على الناس.. وتدل سجلات القبور على أن الكهنة امتلكوا في طيبة وحدها ٨٠ ألف عبد و٤٢ ألف رأس غنم و٢٤٠٠ كيلومتر من الأراضي الصالحة للزراعة و٨٣ سفينة و٤٦ مرسى و٥٦ قرية و٥٠ كيلوجراما من الذهب وألف كيلوجرام من الفضة.. دفعها الفلاحون الغلابة ثمنا لحب الآلهة.. وكانت الإيصالات التي يأخذونها مقابل هداياهم بمثابة صكوك غفران اعتقدوا أنها تسترهم في الآخرة.

أما الكتبة فكانوا يجمعون الضرائب العينية لصالح الحكومة المركزية.. ما إن ينزل الواحد منهم قرية ما فإن لا بد أن يعود منها بـ«١٥ ألف رغيف مخمر من خمسة أنواع و١٤ ألف رغيف أقل جودة وألفي كعكة وسبعين جرة عسل ومثلها من جرار السمن وألف سلة لحم مجفف و٦٠ قلة لبن وكثير من الحطب وكثير من سلال التين والعنب وكثير من الزهور لتزيين الموائد».. إذ كيف يأكل بلطجية السلطة في مصر دون زهور على موائدهم.

ولم يكن وضع مسئولية النيل في عهدة السلطة العليا لتدليله وتقديسه فقط وإنما لتهذيبه وتنظيفه وتنميته واستغلاله والتحكم فيه أيضا.. إن اختراع الفراعنة

للشادوف والمراكب الشراعية ومقاييس المياه والتوصل لتقاويم الفصول والبراعة في كشف حركة النجوم والتفرقة بين السنة البسيطة والسنة الكبيسة كانت بتكليف من الفرعون الإله.. من سيتي الأول إلى تحتمس الثالث.. وكان شق الترع وتنظيف المصارف وبناء القناطر وتهذيب الأرض بأمر من «الباشا» الكبير.. من مولانا محمد علي إلى جلالة الملك فاروق الأول.

أما جمال عبد الناصر.. الرئيس.. فكان أول من ضبط تمرد النيل.. وتحكم فيه.. وأزال رهبته.. ونزع قدسيته.. وكسر أسنانه.. فبعد السد العالي لم نعد نخشى غضب النهر.. أو بخله الصارم.. أو فيضه الجارف.. وتحول في حياتنا من نهر إلى مصرف.. ومن مصدر للحياة إلى مرسى سفن تنطلق تحت ستار الليل حاملة ممنوعات.. مخدرات وعاهرات ومتفجرات.

وشاءت الأقدار أن أشهد معركة السيطرة على النهر التي جرت في أسوان.. حيث أجبرتنا ظروف حرب السويس على الرحيل إلى هناك لنكون بالقرب من رب العائلة الذي كان واحدا من أول مجموعة ـ برئاسة المهندس صدقي سليمان ـ جاءت تخطط وتدبر تنفيذ ذلك المشروع القومي العظيم تحت درجة حرارة تقترب من الجحيم دون أجهزة تكييف أو كوب ماء مثلج يبل الريق.

جئنا من الإسكندرية.. أقصى الشمال.. إلى أسوان.. أقصى الجنوب.. تركنا المدينة العامرة الساحرة إلى قرية نوبية سمراء لا تعرف من متع الدنيا سوى الكركاديه والبلح الجاف.. وتصلها الصحف بعد يومين.. وتستورد البرتقال من سوهاج.. وآخر فيلم عرفته سينما «أبو شوك» سبق عرضه في القاهرة قبل عشر سنوات.. واللعبة الوحيدة التي تعلمناها من أقراننا الصغار في منطقة تسمى «الحكروب» هي صيد العقارب بأسياخ نغرسها في ظهرها دون خوف أو شعور بالخطر.. ثم نبيعها مقابل حفنة دوم جاف ننهشه مثل الفئران بأسناننا الصغيرة.

إن أسوان التي يعرفها المصريون اليوم ليست هي أسوان التي عرفتها في نهاية الخمسينيات.. مشروع واحد نقلها من زمن إلى زمن آخر.

لكن.. المشهد الوحيد الذي لم يتغير.. مشهد النيل الساحر عند فندق «أولد كتراكت».. حيث الجنادل تبرز وسط المياه.. تاركة الطيور تمارس الحب علنا على قممها السوداء بفعل القرون التي مرت عليها وتحتفظ بها في ذاكرتها.. وهو مشهد لم أنسه منذ صغري.. ولوْ حانت لي الفرصة فإنني أحرص على رؤيته صباح اليوم الأول من عام جديد.. وكان هناك زبائن دائمون لذلك المشهد في نفس التوقيت.. عزيز صدقي.. علي السمان.. عبد العزيز حجازي.. أحمد حمروش.. إبراهيم نافع.. وغالبا ما نستكمل تلك العادة بدعوة غداء عند طه العربي.. رئيس غرفة السياحة في أسوان.

الغريب أنني وجدت نفسي أمام المشهد ذاته بعد أن اخترقت بزورق سريع بحيرة تانا.. ثاني أكبر بحيرة طبيعية في إفريقيا.. خلال رحلتي إلى منابع النيل الأزرق.. نفس الطيور والصخور والأعشاب والجنادل ولون المياه.. شيء مثير للدهشة أن أشعر وأنا هناك أنني هنا.

والأكثر غرابة أنني وجدت نفسي أمام ذات المشهد في رحلتي إلى بحيرة فكتوريا.. حيث ينبع النيل الأبيض عند مسقط ريبون.. شمال خط الاستواء.. في المنطقة التي تسمى «الحجارة».. وهي منطقة عرضها ٣٠٠ متر.. بها صخور بكر سوداء.. تنبت عليها شجيرات وأزهار برية على هضبة جرداء.

وهناك نظرية جغرافية تصر على أن إفريقيا كانت مجرد قارة منخفضة وجافة بلا مياه.. ثم انشقت أرضها.. وظهرت فجوة تمتد من روديسيا إلى البحر الأحمر بسبب انفجار البراكين من جوف الأرض.. وإلقاء كتل ثقيلة خارجه.. شكلت جبالا.. فتحت عند سفوحها واديًا تكونت فيه البحيرات العظمى التي خرجت منها الأنهار.. وعدد البحيرات في تلك المنطقة من منطقة القارة الوسطى سبع.

إن النيل الذي ينبع من عيون الأثيوبيين والأوغنديين يصب في قلوب المصريين.. وليست صدفة أن أخلاق الشعوب هنا وهناك متشابهة.. وربما

متطابقة.. طيبة إلى حد التفريط.. وخبث خفي إلى حد التضليل.. سلوك يتجنب العنف.. ويخشى السلطة.. وينافقها.. ويمشي في ركابها.. ويصلي وراءها.. دون أن يثق فيها.. أو يؤمن بها.. صفات مشتركة بين أمتين تختلفان في كل شيء ولا يجمعهما سوى النهر.

لم تكن أسوان في ذلك الوقت تعرف الغرباء.. فاختارت الحكومة سكنا لعائلتنا في ثكنات الجيش.. فليس فيها بيوت للإيجار.. ولا فنادق للإقامة.. وأتاحت الفيلا الصغيرة المبنية على طريقة البواكي الإنجليزية عند أطراف المعسكر القريب من شريط القطار أن نكون شهودا على أحداث تاريخية لم أستوعبها بحكم صغر سني.. إلا فيما بعد.

ذات يوم وجدت طابور طويل من عربات قطارات نقل البضائع تصل أسوان وعليها مدافع ومدرعات وسيارات عسكرية.. وراحت كتائب الجنود التي جاءت معها تثير انتباه المدنيين من عائلات المهندسين والفنيين العاملين في السد العالي.. ولم يكن من الصعب معرفة أن جمال عبد الناصر رفع درجة الاستعداد القصوى للحرب على السودان التي هدد رئيس وزرائها إبراهيم عبود بأنه سيقف بكل قوة ضد بناء السد العالي.

فيما بعد قال لي أبي قليل الكلام كثير التأمل: إن جمال عبد الناصر كان جادا في الحرب ضد السودان رغم إيمانه بأنها العمق الإستراتيجي لمصر ورغم روابط الدم وعلاقات المصاهرة بين الشعبين.. ونقل عنه صدقي سليمان: «إن الماء بالنسبة للمصريين مثل الدم يمكن الموت في سبيله».. كلاهما سر الحياة.. لا يجوز التفريط فيهما.

لكن.. سرعان ما خفت الأزمة.. وانتهت الشدة.. وعادت القوات إلى الشمال.. وجلس الطرفان على مائدة مفاوضات انتهت بتوقيع «اتفاقية الانتفاع الكامل بمياه نهر النيل» التي أبرمت بينهما في ٨ نوفمبر ١٩٥٩.. لتحقيق مصلحة مشتركة لهما

دون انتقاص أو إجحاف بحقوقهما التاريخية المكتسبة.. ودون الإضرار بباقي دول حوض النيل السبع.. زائير.. رواندا.. بوروندي.. أوغندا.. كينيا.. تنزانيا.. ومساحة تلك الدول تقترب من ثلاثة ملايين كيلومتر مربع.. واحد على عشرة من مساحة القارة الإفريقية.

وحددت الاتفاقية حق مصر القائم في مياه النيل مقدرا عند أسوان بما يوازي ٤٨ مليار متر مكعب قبل الحصول على الحصة الزائدة التي يحققها السد العالي.. وحددت نصيب السودان بما مقداره ٤ مليارات متر مكعب عند أسوان قبل الحصول على حصتها من السد العالي.

ويحقق السد العالي ٢٢ مليار متر مكعب للسودان منها ١٤ ونصف مليار ليرتفع حقها في مياه النيل إلى ١٨ ونصف مليار.. ونصيب مصر من مخزون السد العالي سبعة ونصف مليار ليرتفع حقها من مياه النيل إلى ٥٥ ونصف مليار.. وما زاد عن ذلك يوزع مناصفة بينهما.

والسد العالي لمن فقد الذاكرة أضخم سدود العالم.. وبحيرة ناصر خلفة أكبر بحيرة صناعية من نوعها.. تخزن أكثر من ١٨٢ مليار متر مكعب عند منسوب ١٨٥ مترا.

طوله ٣٦٠٠ متر.. منها ٥٦٠ مترا بين ضفتي النيل.. ويمتد الباقي على جانبي النهر.. وارتفاعه ١١١ مترا فوق قاع النهر.. وعرضه عند القاع ٩٨٠ مترا.. ويتكون جسمه من ركام الجرانيت والرمال.. ويتوسطه نواة مانعة لتسرب المياه.. وعلى جانبه الأيسر مفيض يسمح بالصرف عند منسوب ١٨٢ مترا.. وسعة تخزينه عند أقصى منسوب (١٨٢ مترا) ١٦٢ مليارا.. في البحيرة التي يبلغ طولها ٥٠٠ كيلومتر ومتوسط عرضها ١٢ مترا.. ومسطحها ٢٥٠٠ كيلومتر.. أكثر من ١٥ مليون فدان.. وعند مخارج أنفاقه محطة توليد للكهرباء.. تضم ١٢ توربينة مائية.. قوة كل منها ٧٥ ألف كيلو وات.. تنتج نحو عشرة مليارات كيلووات ساعة

سنويا.. ومن سخرية القدر أن الولايات المتحدة التي وقفت ضد تمويل البنك للمشروع هي نفسها التي أصرت على أن تجدد بنفسها تلك التوربينات.. النجاح له ألف أب.. والفشل يتيم.

ودفعت مصر تعويضات قدرت بنحو ١٥ مليون جنيه للسودان عن الأضرار التي لحقت بممتلكاتها نتيجة تخزين المياه في السد العالي عند منسوبه الأعلى أمامه وهو ١٨٢ مترا.

وهذه الاتفاقية توصف بالاحترام.. لكن.. السودان ما كان ليوقعها لو لم يشعر بقوة مصر العسكرية.. فلا أحد في العلاقات الدولية يبتسم لخصمه الضعيف.. وإلا كانت ابتسامة صفراء.. يعقبها عين حمراء.. تنتهي بجثث سوداء.

لكن.. العلاقات الدولية تعترف بمبدأ «الحقوق التاريخية المكتسبة».. وتسمى أحيانا «الحقوق الثابتة».. وتسمى أحيانا أخرى «الحقوق القديمة».. واحترام هذه الحقوق في توزيع مياه الأنهار الدولية ـ التي يصل عددها إلى ٢١٥ نهرا من ألفي نهر في القارات الخمسة ـ يمثل التزاما دوليا جرى العمل عليه في حالات اقتسام المياه بين الدول المشتركة في النهر الواحد.

جاء في تقرير مقدم إلى لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي بشأن استخدام مياه الأنهار: «إن الاستعمالات القائمة تتمتع بحماية فوق أي استعمالات محتملة».. والاقتباس هنا من بحث للدكتور عبد الواحد الفار الذي يضيف أن غالبية الاتفاقيات الدولية التي أبرمت لتنظيم مياه الأنهار المشتركة تضمنت صراحة التأكيد على احترام الحقوق التاريخية المكتسبة ومنها الاتفاقيات التي تنظم توزيع حصص نهر النيل على الدول المشتركة في حوضه.

يمتد النيل في مصر كالشريان التاجي من قلب إفريقيا إلى ساحل البحر المتوسط.. وعلى عكس أنهار الدنيا.. ينبع من الجنوب ويصب في الشمال.. يأتي من مناطق كثيفة الخضرة إلى مناطق شديدة الجفاف.. ويبدأ شرسا عفيا

غاضبا لا يقدر عليه أحد وينتهي طيبا وديعا لا حول له ولا قوة.. تاركا العشاق يتجاوزون في العلاقة المباشرة بين أصابعهم وشفاههم من ناحية وأجسامهم من ناحية أخرى.

ويبدو أن هؤلاء العشاق يحتفظون في جيناتهم الوراثية بتراث أجدادهم الفراعنة في الغزل الجنسي في أحراش النيل وعلى أطراف بحيراته وبركه.. بما في ذلك القصور الملكية.. إن الشعر المسجل على لسان الأميرات دعوة صريحة لا يقدر على رفضها عاشق متماسك الأعصاب:

«تعال معي إلى الحمام.. قميصي الملكي الكتاني سيستفز رغباتك ومشاعرك ويلبيها.. أدعوك إلى طرف البركة لترى الزهور تغطي صدري.. هنالك أصطاد السمك حين أسبح عارية.. فتمسك أنت بيدي بغتة.. كن رفيقي في الماء.. غادر الأرض».

ومن جانبه يود الفتى أن يقوم مقام العبد الذي يعري سيدته ويداعبها فيرد عليها شعرا:

«لم تسكنين بعيدة في الناحية الأخرى من النيل؟.. فبيني وبينك تمساح كبير لا يراعي أحدا.. لكني.. لا أخافه.. لا أخشاه.. وألقي بنفسي في الماء بادئا برأسي.. ويكافح جسمي الأمواج حتى تصير الأرض تحت رجلي.. حتى يتصل بدني ببدنك العذب.. فإذا ما اقتربت من شفتيك سكرت بلا جعة».

ويستمد النهر مياهه من ثلاثة مصادر أو منابع في أماكن متفرقة متباعدة تلتقي وتتوحد بعد مسافة طويلة تقاس بمئات الكيلومترات.

(١) الهضبة الأثيوبية بأنهارها الرئيسية الثلاث.. السوباط.. وعطبرة.. والنيل الأزرق الذي يستمد مياهه من بحيرة تانا.. ويطلق عليها أيضا طانا.. أو طسا.. ويأخذ مياه النهرين الآخرين باسمه متحركا في بلاده والسودان حتى الخرطوم.. حيث يلتقي بالنيل الأبيض ويتحد معه ليواصلا مشوارهما معا إلى أسوان تحت اسم نهر النيل.

(٢) ولو كان النيل الأزرق يأتي بخمسة وثمانين في المائة من المياه إلى مصر فإن النيل الأبيض يأتي بالباقي.. يأتي من منطقة البحيرات الاستوائية السبع.. وأهمها بالنسبة لنا فكتوريا وألبرت.. ويعتقد أن مصدر أمطارهما جنوب المحيط الأطلنطي.. وتلك الأمطار هي ثلث الأمطار التي تسقط على الأرض.

(٣) يضاف إليهما حوض بحر الغزال وتقدر مساحته بنحو ٢٦٥ ألف كيلومتر وتنتشر منه مجموعة أنهار صغيرة تعبر المناطق الجبلية في السودان وجنوب إفريقيا الوسطى.. تأتي بـ١٥ مليار متر مكعب من المياه.. لا يصب منها في النيل إلا نصف مليار متر مكعب.. وتفقد باقي الكمية في منطقة مستنقعات.

وقد رتبت الطبيعة الأمور حسب مزاجها.. وقسمت الجغرافيا العمل حسب واقعها.. الأمطار تهبط غزيرة على دول المنبع التي تعتمد عليها في الزراعة.. بينما تصاب بالندرة في دولة المصب التي تعتمد على مياه النهر في الزراعة.. ولخص الدكتور جمال حمدان ذلك كله في جملة بليغة: «المطر للمنابع والري للمصب».. «الكهرباء لأوغندا وأثيوبيا والمياه لمصر».

وهناك حجم هائل من المعاهدات والاتفاقيات والبروتوكولات التي تؤكد أن ما تحصل عليه مصر من مياه النيل هو أمر مفروغ منه طبقا لأصول وقواعد القانون الدولي.. وقد لخصها الدكتور عبد الواحد الفار في:

(١) البروتوكول الموقع في روما عام ١٨٩١ بين بريطانيا وإيطاليا والذي كان يستهدف تعيين مناطق نفوذهما في شرق إفريقيا.. وتنص المادة الثالثة منه على تعهد إيطاليا بعدم إقامة منشآت لأغراض الري على نهر عطبرة يكون من شأنها تعديل أو إعاقة تدفق مياه النيل على نحو محسوس.

(٢) مجموعة المعاهدات التي وقعت يوم ١٥ مايو ١٩٠٢ في أديس أبابا بين بريطانيا وأثيوبيا وبين بريطانيا وإيطاليا بخصوص رسم الحدود بين السودان ـ الإنجليزي المصري ـ وأثيوبيا وإريتريا.. ونصت المادة الثالثة من الاتفاق الأول

بشأن الحدود بين أثيوبيا والسودان بأن يتعهد الإمبراطور ميلينك الثاني ملك الحبشة بألا يسمح بإصدار أية تعليمات للقيام بأي أعمال على النيل الأزرق أو بحيرة تانا أو نهر السوباط يمكن أن يتسبب في إعاقة تدفق مياه أي منها إلى النيل ما لم توافق على ذلك مسبقا الحكومة البريطانية وحكومة السودان المسئولة عنها مصر.. وتكرر النص ذاته في المادة الثالثة من الاتفاق الثاني الخاص بالحدود بين السودان الإنجليزي المصري وأثيوبيا وإريتريا.

(٣) المذكرات التي جرى تبادلها سنة ١٩٣٥ بين بريطانيا وإيطاليا بصفتها نائبة عن أثيوبيا وقتها والتي تعترف فيها الحكومة الإيطالية بالحقوق المائية المكتسبة لمصر والسودان في مياة النيل الأبيض والنيل الأزرق.. وتتعهد إيطاليا نيابة عن أثيوبيا أيضا بعدم إقامة أية منشآت في أعالي النيل على هذين الفرعين أو روافدهما يكون من شأنها التعديل أو المساس بكمية المياه التي تتدفق في المجرى الرئيسي بصورة محسوسة.

وفي تلك المذكرات تتعهد الحكومة الإيطالية أيضا بالعمل قدر المستطاع بما يتفق والمصالح العليا لمصر والسودان وأن تكون المشروعات التي تقام محققة بدرجة مناسبة للاحتياجات الاقتصادية لشعبيهما.

(٤) مجموعة الاتفاقيات التي تلتزم بها دول منابع النيل الاستوائية وتتمثل في الوثائق التالية:

(٥) الاتفاق الموقع بين بريطانيا والكونغو في ١٩ مايو ١٩٠٦ في لندن والمعدل باتفاقية بروكسل المبرمة في ١٢ مايو ١٨٩٤.. وتنص المادة الثالثة منه على التزام حكومة الكونغو بألا تنشئ أو تسمح بإقامة أية منشآت على نهر السمليكي أو نهر الأسانجو يكون من شأنهما التخفيض أو المساس بكمبة المياه التي تصب في بحيرة ألبرت إلا بموافقة حكومة السودان المصري البريطاني.

(٦) الاتفاق بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا في ١٣ ديسمبر ١٩٠٦ في لندن

والذي تنص مادته الرابعة على الحفاظ على مصالح مصر وبريطانيا في حوض النيل وبصفة خاصة التحكم في مياه النيل وروافده مع الأخذ في الاعتبار المصالح المحلية للدول التي يمر فيها النهر.

(٧) الاتفاقية المبرمة بين مصر وبريطانيا في ٧ مايو ١٩٢٩ والتي نابت فيها بريطانيا عن السودان وكينيا وتنجانيقا (تنزانيا) وأوغندا وتقضي بحظر إقامة أي مشروع من أي نوع على نهر النيل وروافده أو على البحيرات التي تغذيه.. إلا بموافقة مصر.. وعلى وجه الخصوص حالة ما إذا كانت هذه المشروعات ذات صلة بالري أو بتوليد الكهرباء.. أو إذا كانت تؤثر على كمية المياه التي كانت تحصل عليها مصر.. أو على تواريخ وصول المياه إليها.. أو إذا كانت تضر بمصالح مصر من أية ناحية.. وتمنح هذه الاتفاقية لمصر حق الرقابة على طول مجرى النهر من منبعه إلى مصبه.

كان سر هذه الاتفاقية رغبة السودان في زراعة أرض الجزيرة بعد انتهاء العمل في سد سنار عام ١٩٢٥.. لكن.. ذلك لم يمنع أن الاتفاقية اهتمت في المقام الأول بتثبيت حقوق مصر المكتسبة في مياه النيل.

(٨) الاتفاق الموقع في ٢٣ نوفمبر ١٩٣٤ بين بريطانيا (نيابة عن تنجانيقا أو تنزانيا الآن) وبين بلجيكا (نيابة عن رواندي وبورندي) وهو اتفاق خاص بنهر كاجيرا باعتباره أحد روافد بحيرة فيكتوريا.. ونصت المادة الأولى منه على تعهد من الطرفين بأن يعيدا إلى نهر كاجيرا قبل وصوله إلى الحدود المشتركة بين تلك الدول أية كميات من المياه يكون قد سحبت منه قبل ذلك لغرض توليد الكهرباء.. مما يعني أن الاتفاقية سمحت بتوليد الكهرباء على أن تعاد ما يفقد من مياه إلى بقية دول الحوض بما فيها مصر.

أعرف أن الكلام أصبح ثقيل الظل.. اتفاقيات ومعاهدات وملفات قديمة تسبب الصداع.. لكن.. لا مفر من التحمل هذه المرة.. فقضية المياه قضية حياة

أو موت.. لا يجوز أن ننصرف عنها وإلا متنا من العطش والجوع وأكل بعضنا لحم بعض.

لقد استمرت الحقوق التاريخية لمصر في مياه النيل مدعمة بأطنان من المستندات الرسمية الدولية.. لكن.. في السنوات الأخيرة بدأ تمرد بعض دول المنبع مطالبين بتوقيع اتفاقية جديدة يجري بمقتضاها إعادة توزيع حصص دول الحوض من المياه.. وفي الصدارة كانت أثيوبيا وأوغندا.. وهما الدولتان الأهم بالنسبة لمصر.. وكانت حجتهما أن الاتفاقيات القديمة وقعتها الدول المتمردة وهي تحت الاحتلال الأجنبي.. وهي حجة لا يؤخذ بها في القوانين والأعراف الدولية.. وإلا تغيرت المعاهدات بتغير النظم.. كما أن تلك الدول تحررت منذ عشرات السنين فلماذا لم تبرز هذه الحجة إلا مؤخرا؟

وليست الأمور بتلك السهولة التي تتصورها دول الحوض التي تريد أن تبدأ معنا من الصفر.. «على ميه بيضا».. إن هناك قانونًا دوليًا للأنهار.. أحد فروع القانون الدولي العام.. تطور بتطور البشر ومجاريهم المائية متعددة الجنسيات.. فالأنهار نفسها تتغير.. والمجتمعات التي تسكن على ضفافها أيضا.. وهو ما أدى إلى تميز هذا القانون «بسمات خاصة تتمثل في نسبية وتنوع أحكامه» بصفة عامة.. على حد قول الدكتور سعيد سالم جويلي.. أستاذ القانون الدولي في جامعة الزقازيق.

مهمة هذا القانون تحديد مدى سيادة كل دولة على النهر الذي يمر بها.. وحقوق وواجبات باقي الدول المشتركة معها.. وكيفية التوزيع العادل لمياهه واستخداماته التي تجاوزت الشرب والري والصيد والزراعة إلى النقل والسياحة واستخراج المعادن.

وكل نهر وشأن الدول التي تقع في حوضه.. هي التي تتفاوض وتتصارع وتوقع وتستقر.. مستلهمة في ذلك مخزونًا من القواعد المقتبسة من مصادر

مختلفة مثل المعاهدات الدولية والثنائية والعرف السائد والمبادئ العامة والفقه والعدالة.

وهناك أيضا اتفاقية للأمم المتحدة عن الاستخدامات غير الملاحية للمجاري المائية الدولية لتقنين القانون الدولي للأنهار.. ومنحه غطاء سياسيًا دوليًا.. اقترحت الجمعية العامة الاتفاقية في ٨ ديسمبر ١٩٧٠.. وأدرجت على جداول المناقشة بعدها بعام.. وعرض مشروعها النهائي بعد ١٣ سنة.. وأقرت في ٣١ مايو ١٩٩٧ بأغلبية ١٠٤ دول واعتراض ثلاث دول هي الصين وتركيا وبورندي.. وامتناع ٢٧ دولة عن التصويت منها مصر وأثيوبيا.. فلم تشأ إفساد ما في خزائنهما من معاهدات مستقرة.

وجدت مصر فيما تملك من وثائق يزيد عمرها عن أكثر من مائة سنة ما يكفي للحفاظ على حقوقها المائية.. ولو كان لدول المجرى الأخرى حق الانتفاع بمياه النيل فإن ذلك بشرط عدم المساس بالحقوق المصرية.. وهو ما يعني التزام دول المنبع والمجرى بالتشاور مع مصر عند تطوير استخداماتها لمياه النيل.. كما أنها ملتزمة بالتعاون مع مصر في مجال حماية وتطوير الانتفاع بمياه النيل.. وهي ملاحظات نشرها الدكتور عبد الواحد الفار في أكثر من مرجع قانوني له.

ولكن.. بقاء الحال من المحال.. والمصالح الدولية والإقليمية المتشابكة تتغير.. وألعاب القوى الخفية لن تنتهي.. والمعاهدات الدولية لو لم تجد قوة تحميها تفقد صلاحيتها.. وهو ما حدث بالضبط في دول المنبع والمجرى التي تمردت على كل ما فات وطالبت بصفحة جديدة.. ومعاهدة جديدة.. وأنصبة مياه جديدة.. وهو ما فجر أزمات بينها وبين مصر.. كانت الأخيرة في صيف ٢٠٠٩ الأكثر حدة.. وبدأت تداعياتها الخطرة تتوالى.

ولنبدأ من أول السطر.. من أول قطرة في النهر.

الفصل الثاني

لو جاء السادات إلى هنا سنغرقه في دمائه ونعيده جثة هامدة!

«شيراتون» أديس أبابا أفخم فندق «شيراتون» على مستوى العالم.. لكن.. الطريق إليه يمر بأسوأ أحياء العاصمة الأثيوبية.. بيوت من الكرتون والصفيح والطين.. تتداخل بعشوائية بعضها بين بعض.. ويستخدم سكانها الشوارع غير الممهدة أمامهم للنوم في الأيام الحارة.. والسمر في ليالي السهر والقمر.. والتجمع في الصلاة.. المسيحيون يركعون خاشعين وهم يرسمون علامة الصليب أمام صورة السيدة العذراء وهي تحمل ابنها المقدس الرضيع.. والمسلمون يتجمعون وراء إمام نحيف يؤدون فرائضهم الخمس.. في حالة من التسامح الديني فرضها عليهم الجوار في الفقر الذي لا يفرق بين مؤمن وكافر.. بين زاهد وشره.. بين عابد وعاهر.

تنحدر السيارة إلى منخفض من الخضرة يؤدي إلى طريق من الأشجار ينتهي ببوابة حديدية ضخمة يحتاج من يخترقها إلى استئذان حراس الفندق الأشداء الذين يخشون تعرض النزلاء إلى سرقة أو اعتداء أو تحرش من سكان المناطق القريبة.

نفس المشهد تجده في نيودلهي وكراتشي والخرطوم.. جوهرة سياحية تتفجر ترفا.. وسط أكوام من النفايات تتفجر ألما.

على أنك ما إن تدخل لوبي الفندق وتصافح عيناك الكافتيريا والبار المطلين على حديقة أندلسية حتى تنسى لحظات الألم التي شعرت بها في الطريق.. وربما كان ذلك السر وراء إقبال الزبائن على شرب الخمر أكثر من المعتاد.. ولا بد أن تلك اللحظات ستمحى من صدرك فور أن ترى فتاة «الريسبشن» السمراء الساحرة التي تبدو وكأنها امرأة دقيقة مثيرة منحوتة من الشيكولاتة.. لكن.. الاقتراب منها يحولها إلى نمرة شرسة بالشطة.

خلال دقيقة ونصف كان مفتاح الغرفة في يدي وشاب صغير يستعد لحمل حقيبتي ليسبقني إلى المصاعد وهو يحمل في يده كتيب صغير فيه كل خدمات الفندق.. فتحت الأرض بوب إنجليزي.. ومطعم إيطالي.. ومرقص أمريكي.. وبوفيه مفتوح يقدم السوشي الياباني.. إنها أماكن مرتفعة الثمن لا يقدر عليها سوى رجال الأعمال الأجانب والمحليين.. وهم شريحة رفيعة.. يسهل حصرها.. لا علاقة لها بالسواد الأعظم من البشر الذي يعيش تحت خط الكفاف ويستكمل عشاءه نوما.

لكن.. الخدمة الوحيدة التي كنت في حاجة إليها في ذلك الوقت تأكيد من مكتب الحجز بأن رحلتي إلى بحر دار حيث منابع النيل الأزرق ستكون في موعدها.. وأن يتركوني لنوم عميق بعد رحلة السفر من القاهرة استهلكت ساعات طويلة من الليل.

نصحني صديق جاهل مصاب بالوسواس القهري أن أتناول عشائي قبل إقلاع الطائرة كي أحتفظ بمخزون من الطعام يجعلني أحتمل الجوع حتى أعثر على مطعم أطمئن إليه في تلك البلاد الموبوءة على حد خياله المريض.. وهو خيال يعكس تصور شائع عن تخلف أثيوبيا وغيرها من البلاد الإفريقية.. ويعد سببا مهما في الأزمات المتصاعدة والملتهبة والمتتالية بيننا وبينها.. إن الصورة الخاطئة تؤدي إلى سياسة خاطئة.. وعلاقة خاطئة.. ندفع نحن ثمنها قبل غيرنا.

وأغلب الظن أن تلك الصورة السوداء هي التي جعلت رجل الأمن في مطار القاهرة يتعامل بخشونة لا مبرر لها مع فتاة أثيوبية حملت في يدها شنطة من الورق بها «لمبات» موفرة للطاقة أصر على مصادرتها منها رغم أنها لا تهدد سلامة الطائرة.

ولم أعرف بما جرى لها إلا على باب الطائرة عندما سمعت شابا كان معها يعبر عن غضبه مما جرى لصديقته قائلا: «والله حلال فيهم قطع الميه عنهم».. والغريب أنه قال جملته بلغة عامية ملفتة للنظر.. وهي جملة ستطرق مسامعي في كل مكان أذهب إليه.

ولو كنت قد عرفت ما جري للفتاة في الوقت المناسب لتدخلت وأعدت لها ما صودر منها.

والحقيقة أنني عرفت قيمة الحزن الذي كانت عليه الفتاة بسبب فقد لمباتها الموفرة فور أن دخلت غرفتي فقد قطعت الكهرباء وساد الظلام.. وهو أمر معتاد في عاصمة لا تملك من مصادر الإنارة سوى أربعين في المائة من احتياجاتها.

وفيما بعد روى لي دبلوماسيون مصريون يعملون في سفارتنا أن أجهزتهم الكهربائية تحترق بسبب هبوط التيار وأنهم اعتادوا حلاقة لحاهم كل صباح على ضوء الشموع.. ويطالبون وزارة الخارجية باستثنائهم من تلك المهمة الصعبة المفروضة عليهم.. وصرف بدل مولد كهربائي خاص يستخدمونه في بيوتهم.

والصورة الخاطئة ليست في عيوننا وحدنا وإنما في عيونهم أيضا.. فنحن بالنسبة إليهم استعمار جديد.. ينهب ثرواتهم المائية دون مقابل.. ويتركونهم في حالة بدائية مزرية.. وساهمت تكنولوجيا الاتصالات في سرعة انتشار تلك التشوهات المؤلمة.

كانت الرحلة إلى أديس أبابا مريحة.. قضيتها في قراءة كتاب عن أثيوبيا.. يتضمن المعلومات الأساسية عنها.. وأعترف بأنني لم أكن أعرف عن هذه الدولة

التي تمسك بمحبس مياه النيل التي تصلنا منها سوى القليل.. إنها عالم شديد التعقيد والتنوع من القبائل والمناطق والأجناس والمناخ والتاريخ كان لا بد أن نستوعبه ونهضمه ونفهمه.. على الأقل كي نعرف ما الذي يفرحه؟.. وما الذي يغضبه؟.. ما الذي يظهره وما الذي يبطنه؟.. وكيف نتعامل معه؟.. وكيف نتجنب شروره؟

وفي حقيبة سفري وضعت كتبا أخرى عن النيل.. كتاب أميل لودفيج: «النيل حياة نهر» ترجمة عادل زعير.. كتاب ألان مورهيد: «النيل الأبيض» ترجمة محمد بدر الدين خليل.. كتاب السير وليم جارستن: «الدليل في موارد أعالي النيل».. كتاب شهاب الدين بن العماد الأفقهسي: «أخبار نيل مصر».. وكتاب كامل زهيري: «النيل في خطر».

كنت قد اخترت هذه الكتب من عشرين كتابا أخرجتها من مكتبتي وصورتها من مكتبات أصدقائي عن النيل والقرن الإفريقي وشخصية مصر وأبرزها بالطبع الأجزاء الكاملة لكتاب الدكتور جمال حمدان الذي يحمل نفس الاسم.

بجانب ملفات كاملة عن موارد مصر المائية وضعتها اللجان المتخصصة في مجلس الشورى.. وعن المياه العربية وتحديات المستقبل.. وهو ملف كبير طبعته جامعة أسيوط بعد مؤتمر دعت إليه يحمل نفس العنوان.

يضاف إليها تقارير إستراتيجية شديدة الأهمية والحساسية دفعت فيها ثمنا مرتفعا لناشرها: معهد لندن الإستراتيجي.. وموقع الإيكونوميست.. أكثر المؤسسات البحثية احتراما.

إن الرحلة الجغرافية التي قررت القيام بها إلى منابع النيل سبقتها رحلات أخرى سياسية وتاريخية وبشرية وربما دينية أيضا.. فالنهر بالنسبة لنا ليس مجرد ممر مائي وإنما سر حضارتنا القديمة ومتاعبنا الأخيرة.

على ارتفاع ١٧ ألف قدم أعطى قائد الطائرة إشارة ربط الأحزمة استعدادا

للهبوط.. لم يكن هناك ما يشير إلى وجود مدينة تحتنا.. فهل حدث في المحركات شيء يجبرنا على النزول اضطراريا في أرض لا نعرف عنها شيئا؟

عرفت من جاري طه العربي رئيس غرفة السياحة في أسوان الذي اعتاد السفر على هذه الرحلة:

«إن أثيوبيا كما تعلم هضبة مرتفعة عن سطح الأرض بنحو ١٥ ألف قدم.. والهبوط إليها يبدأ من الآن.. لا تخف.. ربنا يسترها».

المفاجأة الأولى إن مطار أديس أبابا الدولي المعروف باسم مطار بولي مطار حديث جدا على عكس ما تخيلت.. شيدته شركة الخرافي الكويتية بقرض من حكومتها.. ليس مثل المطارات السودانية التي بنيت من عصر الاستعمار ولم تتطور.. إلا قليلا.

كنا آخر طائرة هبطت في تلك الليلة بعد نحو أربع ساعات طيران ورغم ذلك لم تتأخر الحقائب وإن بدا النعاس على وجه موظف الجوازات الذي راح يسجل إجاباتي على أسئلته الكثيرة التي لم تتضمنها بطاقة الهبوط.. أين ستقيم؟.. في الشيراتون.. هل تملك المال اللازم للإقامة.. نعم.. أكثر من ألفي دولار، يجب أن تسجل ذلك في إقرار وإلا صودر ما تبقى منها عند عودتك.. حاضر.. هل لك أقارب هنا؟.. لا.. هل تفكر في الزواج من أثيوبيا؟.. ربنا يسهل.. لو فكرت عليك أن تأتي بشهادة من سفارتك تفيد بصلاحيتك للزواج.. حاضر.. ما سبب الزيارة.. كتابة تقرير صحفي عن منابع النيل.. لماذا؟.. أنا صحفي وهذه شغلتي.. لكنها المرة الأولى التي نجد فيها مصريا يأتي خصيصا لزيارة منابع النيل.. أتصور أنها لن تكون الأخيرة.

بعد ثلث ساعة من ذلك الاستجواب الفريد من نوعه خرجت من المطار لأجد المدينة خالية من البشر.. تقريبا.

الشارع الرئيسي في العاصمة يسمى بولي أيضا.. وهو أهم شوارعها.. فهو

الشريان الأساسي الذي يربط أطرافها وأحياءها المتشابهة.. وفيه الشركات والمؤسسات ومقر الحكومة وقصر الإمبراطور هيلاسي لاسي المرتفع على ربوة ننزل منها على فندق شيراتون.

في بداية شارع «بولي» من ناحية المطار يقع المكان الذي جرت فيه المحاولة الفاشلة لاغتيال الرئيس حسني مبارك في يونيو ١٩٩٥.. يبتعد المكان عن المطار مسافة ثلاث دقائق فقط.. ومن حسن الحظ أن سيارة الرئيس كانت مصفحة.. جاءت بها المخابرات المصرية خصيصا من القاهرة على ظهر طائرة نقل عسكرية (طراز هركليز ـ سي ١٣٠).. ويبدو أن جملة الرئيس الشهيرة للسائق: «لف وارجع» جعلت الأثيوبيين يطلقون على ذلك الملف «دوران مبارك».

وفي مكان البيت القريب الذي أطلق منه الإرهابيون رصاصاتهم شيد مبنى متميز بمناسبة الاحتفال بدخول أثيوبيا القرن الواحد والعشرين (الملنيوم) في عام ٢٠٠٨ متأخرة عن العالم بثماني سنوات.. والسبب أن أثيوبيا تتبع تقويم جوليان.. وهو تقويم قبطي أبطأ من التقويم الميلادي المعروف بسبع سنوات و١١٣ يوما.. ويعتقد رهبان الكنيسة الأرثوذكسية المسيطرة على البلاد أنه التقويم الصحيح والدقيق وليس التقويم الميلادي الغربي المعروف.

وحسب ذلك التقويم فإن السنة الجوليانية ١٢ شهرا.. كل شهر ٣٠ يوما.. يضاف إليها شهر آخر لا يزيد عن ٥ أيام في السنة البسيطة و٦ أيام في السنة الكبيسة.. وتبدأ رأس السنة الأثيوبية يوم ١١ سبتمبر.. نفس اليوم الذي وقعت فيه الهجمات على برجي التجارة في نيويورك وعلى البنتاجون في واشنطن.

وأثيوبيا تسمية يونانية قديمة تعني «أرض الوجوه السمراء».. أما الحبشة فتسمية عربية شاعت في أوروبا مأخوذة من الأحباش وهم سكانها الأصليون.. وتصل مساحتها إلى مليون و١٩٤ ألف كيلومتر مربع.. أكبر قليلا من مساحة

مصر التي لا تزيد على مليون كيلومتر مربع.. ولكن.. عدد سكانها لا يختلف كثيرا عن عدد سكان مصر.

ولا يختلف الأثيوبيون عن المصريين في الطباع.. فهم مثلنا طيبون.. متواضعون.. منكسرون.. مستسلمون.. متجردون من نوازع العنف رغم قسوة الحياة التي يعيشونها.. إن أديس أبابا أكثر المدن الإفريقية ـ المشهورة بالعنف ـ أمانا.. وإن كان الأثيوبيون في الوقت نفسه لا يثقون في الآخرين بسهولة.. ولو وصلوا لدرجة الثقة بقوا عليها زمنا طويلا.. وما يظهر على وجوههم يختلف كثيرا عن ما يستقر في قلوبهم.. وهم يميلون للشك فيما يسمعون.. ولا يصدقون ما يقال لهم إلا إذا شاهدوه بعيونهم.. ويصعب عليهم نسيان الإهانة.. وجراحهم لا تندمل بسهولة.. وكأن النيل الذي يربط بيننا وبينهم ينقل مع خصوبة الأرض خصائص الشخصية المشتركة.

ولو كنا قد فقدنا بعضا من خصالنا الطيبة ومنها التسامح الديني فإنهم لا يزالون يحافظون عليه.. إن عبارة «الدين لله والوطن للجميع التي صغناها في مصر وجدتها في أثيوبيا».

ولا يعني ذلك أنهم غير متدينيين.. بالعكس.. فدور العبادة أهم عندهم من بيت المعيشة.. وهي مشيدة بإبداع فني ومعماري لا تجده في مساكنهم.. والمسيحيون يصلون خمس مرات يوميا.. مثل المسلمين.. ليس لديهم ما يشغلهم سوى الصلاة.

ولا بد أن يلفت النظر مشهد جماعات النساء وهن يخرجن ويدخلن الكنائس طوال اليوم.. في أي لحظة ستجد ذلك المشهد أمام عينيك.. وتمشي النساء وراء رجل عجوز يرفع عصا رفيعة عليها قطعة قماش بيضاء ترشدهن.. وهو ما يذكرك بمشهد نساء ماليزيا وأندونيسيا في مكة خلال موسم الحج.. حيث يتحركن في طابور بزي متشابه وراء رجل يرشدهن إلى المناسك.

وترتدي الأثيوبية المسيحية الحجاب.. وتفضل أن يكون من الكتان الأبيض.. ولكنه.. لا يخفي الصليب المنحوت من الخشب أو النحاس أو الفضة ـ حسب مستواها الاجتماعي ـ ويتدلى بوضوح من رقبتها.. فعندما يعجز الناس عن توفير حياة مريحة فإنهم يتطلعون إليها في الجنة.

المرأة المسلمة هنا لا تعرف الحجاب.. ولا تميل إلى وضع مصحف على صدرها.. إلا فيما ندر.. وهي تميل إلى إبراز جسدها تحت ثياب الجينز الضيقة.. ويساعدها على ذلك جسدها الرشيق الممشوق المنحوت.

وسواء مسيحية محجبة أم مسلمة محزقة فإن المرأة الأثيوبية تعيش حياتها الجنسية طبقا للثقافة الإفريقية التي تفخر فيها النساء بأنهن مرغوبات من أكبر عدد من الرجال.. ولا يخضعن في الزواج والطلاق للقواعد الدينية.. وإنما للقواعد القبلية.. القبيلة أقوى من الديانة.. وإنجاب الأطفال غير شرعيين حادث سعيد للمرأة لا تستحق عليه الرجم وإنما تستحق التهنئة.. فقد اختارت الرجل بنفسها.. وغالبا ما تنجح في إمتاعه.. ولا تكلفه ما لا طاقة له به.. أن يتزوجها أو يعترف بابنها.. لو تحرك جنين في أحشائها.

وخمسة وخمسون في المائة من الأثيوبيين مسيحيون والباقي مسلمون.. ويشترك الجميع في احتساء نوع من البيرة شهير عليه صورة القديس مار جرجس وهو يحارب التنين بحربته.. وهي صورة تفرض الخشوع على الجميع مهما كانت ديانتهم.. ومهما كانت حالتهم بعد شرب نصف دستة منها.

وهناك صورة نشرتها الصحف المحلية وعندي نسخة منها للبطريرك الأعلى للكنيسة هناك وأمامه زجاجات ويسكي «بلاك» و«رد» ليبل.. وهو رجل متسامح.. سأله رجل أعمال مصري تعرف عليه: «هل يجوز أن يتزوج من مسيحية أثيوبية أحبها رغم أنه متزوج من أم أولاده المصرية؟».. فأجاب البابا باولوس: «ممكن يا ولدي أن تتزوجها فالإسلام الذي تدين به يسمح لك بالزواج من أربع».. ونفذ

الرجل النصيحة.. دون أن تفهم زوجته المقيمة في القاهرة سر تردده على أديس أبابا مرة كل أسبوعين على الأقل.. وأغلب الظن أنها كانت تدعو له بيسر الأعمال كلما انتهت من تجهيز حقيبة سفره.

ولا تأخذ المحاكم العرفية هناك بالقسم على الكتب المقدسة وإنما تأخذ بالقسم على الحراب.. وكلمة شيخ القبيلة لا ترد.. والساحر أهم من الكاهن.. ويسهل الانتقال من دين إلى آخر.. دون تكفير أو تعذير.. فالحرية الدينية لا تمس.

وهي نفس القواعد المستقرة التي وجدتها في جنوب السودان والصومال الغربي وجنوب إفريقيا.. إنها الطبيعة البشرية في فطرتها البرية التي لا تعرف التشدد والتطرف والتعصب.

والمثير أن المسلمين المحافظين كانوا يجنبون بناتهم الانفلات الجنسي من حولهن بربط أطراف من أعضائهن التناسلية بخيوط من شعر الخيل لضمان عذريتهن.. وعدم الاقتراب منهن.. فإذا ما سافروا بعيدا أو طويلا فعلوا الشيء نفسه مع زوجاتهم.. نوع مبتكر من حزام العفة.. لا نتصور أنه مستمر حتى الآن.

ويمكن بسهولة أن تسمع كلمات من العامية المصرية هي في الحقيقة جزء من قاموس اللغة الأمهرية.. اللغة الرسمية.. كلمات مثل ترابيزة.. وفوطة وشنطة وجزمة.. وشبشب.. وحارة.. وعيل.. وبت.. وغيرها.. وليس في ذلك ما يثير الدهشة.. فقد وصلت جيوش إبراهيم باشا إلى هرر في مناطق الغرب الأثيوبي.. وكل من يعيش هناك يفخر بأجداده المصريين وبطهي الملوخية والفتة والممبار والكوارع والكشري.

كانت تحركات مصر السياسية والإستراتيجية في ذلك الوقت من الزمن البعيد تعتبر القرن الإفريقي عمقا للأمن القومي كما فهمه ورسمه محمد علي الكبير يجب مد الجسور إليه فذهبت جيوش ابنه إلى هناك.. فتحت.. وغزت.. وسيطرت.. وعمرت.. وتزوجت.. واستقرت.

وقد زرت مدينة بربرة الصومالية الواقعة على باب المندب والمقابلة من الناحية الأخرى لعدن ووجدت أن سحارات المياه التي تشرب منها قدمتها مصر هدية يصل عمرها إلى قرون.. كما فتحت الكتاتيب لتحفيظ القرآن.. وعلمت الأهالي الزراعة بالمحراث.. وشقت لهم قنوات الري.. ومساقي تجميع المياه.

وكانت الصومال تؤجر بربره للسوفيت قاعدة عسكرية لهم.. ولكن.. الرئيس الأسبق سياد بري انقلب عليهم في نهاية السبعينيات وأجرها للأمريكيين.. وساعده على ذلك أنور السادات الذي أمد حركات تحرير الصومال الغربي بالسلاح والدعم الإعلامي كي يتخلصوا من أثيوبيا التي اعتبرته جزءًا تاريخيا من أرضها لا يمكنها التفريط فيه.. ونجحت تلك الحركات في السيطرة على المناطق الريفية تاركة المدن الرئيسية للقوات الحبشية التي كونت من بينها فرق مضادة لمواجهة التفجيرات التي شهدتها عاصمة بلادها.

في ذلك الوقت كانت مشاغل أنور السادات بالحرب على الشيوعية تسبق مصالح مصر في مياه النيل.. فانحاز إلى الصومال الغربي وأعلن عداءه لنظام مانجستو هاريا ماريم في أديس أبابا.. وهو نظام خلع الإمبراطور هيلاسي لاسي.. وأتى بالسوفيت لبلاده.. وتسببت تلك السياسة الطائشة في زرع أولى بذور العداء بين البلدين.. وهي بذور طرحت ثمار الشر التي نراها على مائدة المفاوضات بين البلدين الآن ويطالبون فيها بما يمثل اعتداء على حقوقنا المائية المستقرة منذ خلق الله الأرض ومن عليها.

إن جمال عبد الناصر الذي اتسمت سياسته بالراديكالية اليسارية وكراهية النظم الملكية استثنى هيلاسي لاسي من تصوراته الأساسية.. فحافظ على علاقته به.. لسبب بسيط وساذج.. إنه يمسك بيده محبس المياه التي تعيش عليها مصر.

ويسجل التاريخ الشخصي لجمال عبد الناصر أن المرة الأولى التي خرجت فيها زوجته السيدة تحية كاظم لتظهر في عشاء رسمي كانت على شرف الإمبراطور

الحبشي الذي شعر بقيمته في عيون المصريين مع خروجه بجانب جمال عبد الناصر في موكب سيارة مكشوفة في شوارع القاهرة حيث خرج تلاميذ المدارس لتحيته.. كان ذلك في عام ١٩٥٨.. في وقت أرادت فيه مصر تهدئة خواطره بسبب مشروع السد العالي.. وتفويت الفرصة على وكالة المخابرات المركزية (الأمريكية) التي راحت تحرض أثيوبيا على مصر لتعرقل المشروع وتوقف نموه.

وحرص هيلاسي لاسي على زيارة بطريرك الأقباط البابا كيرلس السادس.. وأهداه ثوبا موشى بالذهب.. هدية منه.. تليق بمقامه.. لكن.. الحبر الزاهد في متاع الدنيا منعه من ارتدائه.. وفضل عليه ثوبا من الكتان الرخيص نسجته أحد أديرة وادي النطرون.. وصعدت روحه إلى السماء وهو يرتديه.. وينتعل خفا من الجلد الرخيص ذاب من كثرة استعماله.. وفي دير مار مينا القريب من «كينج مريوط» غرب الإسكندرية حيث دفن.. يحتفظون بتذكارته الشخصية.. الخف.. والثوب.. وهدية هيلاسي لاسي كما هي لم تمس.. وقد شاهدت تذكاراته في فاترينة من زجاج يتبرك بها الزوار من المسيحيين والمسلمين ويمسكون بمقامه وهم يتوسلون إلى الله أن يلبي حاجاتهم.

ومعروف أن أثيوبيا عرفت المسيحية الكاثوليكية في نهاية القرن الخامس الميلادي وأصبحت كنيستها تابعة للكنيسة المصرية.. البطريرك المصري كان يعين كهنتها.. بل ويرسم ملوكها.. وعندما غضب منهم ظل ملوكهم غير متوجين نحو خمسين سنة حتى جاءوا واستعطفوه.. وقد استقلت الكنيسة الأثيوبية عنا.. وإن لم تغير طقوسها وصلواتها وأزياءها.. وهي في الوقت نفسه تتساهل مع رعاياها.. فلا تعترض على شرب الخمر.. وتوافق على الطلاق.. وتغض الطرف عن الزنا.. فالإنسان عندها مجبول على الخطيئة.. ومهمة الكنيسة الغفران.

لم يستوعب أنور السادات تلك السياسة الحذرة في التعامل مع أثيوبيا وأصبح

خصما عنيدا لحاكمها الأحمر الذي كوى شعبها بالحديد والنار.. وكسر شوكته بالسجون والمعتقلات.. فانضم السادات لعضوية نادي السفاري الذي كلف بمحاربة المد الشيوعي في إفريقيا.. بغض النظر عن ما ترتب على ذلك من عداء لمصر لا تزال تعاني منه.. وكان من الصعب إعادة المياه إلى مجاريها.. بل إن كل الأحداث السياسية التي جرت فيما بعد زادت من عمق الكراهية بين النظامين.

قال لي المهندس حسب الله الكفراوي: إنه شاهد عيان على اجتماع رأسه السادات قال فيه: «إنه قال إن حرب أكتوبر هي آخر الحروب التي ستخوضها مصر.. لكنه.. لو حارب فإنه سيحارب فقط من أجل مياه النيل.. حياة المصريين.. وإن كان في الوقت نفسه طلب تمهيد درب الأربعين بين مصر والسودان ليكون نواه طريق دولي يربط القاهرة في الشمال بجوهانسبرج في جنوب إفريقيا.. وجاء الدكتور فاروق الباز بخرائط الأقمار الصناعية للبدء في التخطيط.. لكن القدر لم يمهل السادات كي يرى مشروعه النور.. فلم يبق منه سوى كلماته التحريضية ضد أثيوبيا.

إن الجرح الذي لا يزال ينزف في صدور الأثيوبيين هو إعلان السادات عن ضرب بلادهم بالطائرات لو نفذوا تهديد حاكمهم الشيوعي منجستو ومنعوا مياه النيل عن مصر.. وكان رد منجستو الذي لم نعرفه إلا بعد سنوات طويلة أمام جماهير غفيرة في ميدان الحرية (ميدان الصليب فيما بعد): «لو جاء السادات فإننا سنغرقه في بحر من الدم لن ينجو منه وسنعيده إلى بلاده جثة هامدة».. ولم ينفذ منجستو تهديده.. نفذه نيابة عنه خصوم متطرفون في مصر.. فيما يعرف بحادث المنصة.

ويتحدث المثقفون الأثيوبيون عن تهديد السادات كما لو كان منذ ساعات.. لا منذ نحو ربع قرن من الزمن.. لقد بقي التهديد طازجا مؤثرا مؤلما محرضا على مزيد من العداء لمصر التي كانت في حالة غياب.. أو حالة غيبوبة.

وضاعف من حدة الأزمة محاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك في أديس أبابا.. ومقاطعته لمؤتمرات منظمة الوحدة الإفريقية التي تحتل أهم مبنى مميز في العاصمة الأثيوبية.. وكان ملفتا للنظر أن الرئيس سامح المدبرين الأصليين للجريمة.. النظام السوداني.. وساند رئيسه في مواجهة المحكمة الجنائية الدولية التي طالبت بمطاردته والقبض عليه.. بينما لا يزال يقاطع أثيوبيا التي لم يزد دورها عن دور المسرح ولم يثبت شيئا عن تورطها المباشر فيما حدث، بل إنها وضعت قيودًا صارمة على دخول العرب إلى أراضيها بعد الحادث.

لقد تراكمت كل هذه الأحداث وفرضت نفسها على العلاقات والمفاوضات والاجتهادات.. وكان إزالة ما علق في النفوس أمرا ليس هينا.. على حد تعبير وزير الري السابق الدكتور محمود أبو زيد الذي كتب بنفسه في جريدة الأهرام يوم ١٨ مايو ٢٠١٠ يقول: إن كثيرا من المفاوضات «بدأت في ظل ظروف مشبعة بالريبة والشك وانعدام الثقة حتى إن المفاوض المصري والأثيوبي على سبيل المثال لم يكونا يتبادلان السلام بالأيدي أو يتحدثان بشكل مباشر وإنما عبر وسطاء.. وكانت قاعات التفاوض تعج بالاتهامات المتبادلة والغضب والتجريح».. ولم يشأ الرجل الذي خرج من منصبه في ظروف غير مفهومة أن يفرط في الشرح والتفسير.

ورغم أنه يضيف: إنه بعد سنوات من الحوار نجحوا في إزالة الشوائب وبنوا الثقة تدريجيا إلا أن ذلك لم يستمر طويلا.. فقد تعاملت رموز من حكومة الدكتور أحمد نظيف مع وزير الري الأثيوبي المشارك في اجتماعات الإسكندرية في صيف ٢٠٠٩ بتعال ربما يصل إلى حد الغطرسة.. وهو ما جعل رئيس الوزراء الأثيوبي يؤجل زيارة رئيس الحكومة المصرية أكثر من مرة.. وعندما سمحوا له بالسفر على رأس وفد من المسئولين ورجال الأعمال أكدوا على أن الزيارة ليست رسمية.. «هو حر يأتي أو لا يأتي».

والحقيقة أنني سبقت رئيس الحكومة المصري المسئول عن ذلك الملف إلى زيارة أثيوبيا زيارة خاصة من أجل مياه النيل.. ولو كان هو قد اكتفى بالبقاء في جناحه الفخم بفندق شيراتون فإنني سافرت في رحلة خطرة إلى منابع النيل الأزرق.. لكننا سنؤجلها قليلا حتى ننتهي من رحلة سابقة عنها إلى منابع النيل الأبيض في أوغندا.

الإجابة.. نقطة جديدة من أول السطر.. أو من أول قطرة في النهر.

الفصل الثالث

احلقوا رؤوسكم قبل أن تغتسلوا في النهر المقدس كما فعل موسى!

في عهود فرعونية مزدهرة تخيل المصريون النيل مخلوقا يجمع بين صفات الذكر وصفات الأنثى.. وصوروه مرتين.. مرة وهو يضع على رأسه تاجا من نبات البردي.. أكرم النباتات.. وهي حالة الذكورة.. ومرة أخرى وهو يضع على رأسه تاجا من زهرة اللوتس.. أقدس الزهور.. وهي حالة الأنوثة.. وفي الحالتين كان يقدم مصر كلها هدية للملك الفرعون.. وكثر استعمال تلك الصورة على كراسي العرش طوال التاريخ المصري القديم.

وهناك تمثال يصور النيل ذكرا مكتملا لكن له أثداء.. تأكيدا على صفات الخنثى التي فرضوها عليه.

وفي الفاتيكان تمثال يجسد النيل محاطا بستة عشر ولدا.. وشرح ذلك حسب فلاسفة الرومان: «تكون المجاعة باثنتي عشرة ذراعا وتكون الكفاية بثلاث عشرة ذراعا وتكون المسرة بأربع عشرة ذراعا وتكون السلامة بخمس عشرة ذراعا وتكون السعة بست عشرة ذراعا».

لقد كان النيل بالنسبة للقدماء كائنا غير مفهوم.. فلو عرفوا آخره فإنهم لا يعرفون أوله.. ولو استفادوا من مياهه فإنهم لا يفهمون لماذا يشح؟ ولا لماذا يفيض؟.. وقد قطعوا مسافات طويلة لكشف غموضه لكنهم لم يصلوا إلى منابعه.. فخشوا منه وخشوا عليه فلم يكن أمامهم سوى عبادته وتقديم القرابين له.

وفي أواخر الأسرة الخامسة أرسلت بعثات استكشافية إلى جنوب أسوان بأمر من حكامها.. بعثة بدأها مهندس سمي «وني» بتكليف من الملك «مرنرع».. وبعثة أخرى قادها مغامر اسمه «حرخوف» بأمر من الملك «بيبي» الثاني.. ولكن.. هذه الرحلات على أهميتها لم تتجاوز بلاد النوبة.. وبعضها انتهى بحمل أقزام من تلك البلاد لتسلية البلاط.. خاصة الملوك الذين تولوا العرش صغارا.. مثل «بيبي» وغيره.

وتعتقد وثائق الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية أن الفراعنة وصلوا إلى مدينة الخرطوم التي ينتهي إليها النيل الأزرق دون أن يعرفوا أنه قادم من جبال الحبشة.. لكن.. من المؤكد أنهم لم يتوغلوا في المجرى الأصلي القادم من جنوب الخرطوم المعروف بالنيل الأبيض.. لا هم ولا غيرهم.. وبقي اللغز صعبا.. مجهولا أكثر من ألفي سنة دون أن ينجلي.. لقد نجح المستكشفون والمغامرون في الوصول إلى قمة جبل الهيملايا.. وجليد القطب الشمالي.. وما وراء الصين.. وقارة أستراليا.. لكن.. كل حملة كانت توفد من جنوب مصر إلى أعالي النهر لم تكن تعود إلا خائبة.. حتى أصبحت المسألة ـ في أواسط القرن التاسع عشر ـ أعظم «معمية جغرافية» بعد كشف أمريكا على حد تعبير «هاري جونستون».

وينسب للمؤرخ اليوناني هيردوت الجملة الشهيرة «مصر هبة النيل».. ولكن ألان مورهيد في كتابه المذهل والممتع «النيل الأبيض» الذي ترجمه ونشره محمد بدر الدين خيل في دار المعارف عام ١٩٦٥ يقول إن هيردوت حاول سنة ٤٦٠ قبل الميلاد السفر إلى أعالي النيل.. لكنه سرعان ما ارتد فاشلا «إذ تبين أن من المستحيل تماما الحصول على معلومات أكيدة عن منبع النهر».

وفي كتابه المؤسف والمخجل «رحلة إلى مصر» أضاف هيردوت خرافة عن النيل بجانب الخرافات الأخرى التي نشرها عن المصريين ومنها أنهم يمشون عرايا بلا ملابس تستر عوراتهم.. قال: إن النيل ينبع من «عيون» ما، في مكان

ما، في جوف إفريقيا.. لم يتخيل أحد أن مصدر مياه النهر هي الأمطار الغزيرة التي تسقط على دول المنبع لتشق بقوتها مجراه العملاق الذي يمشي كل هذه الرحلة المخترقة لنحو ٣٥ درجة من درجات العرض.. في بلاد متباينة.. متنامية الأطراف.. استوائية.. مدارية.. وصحراوية.. وبالرغم أنه ليس أكثر الأنهار طولا إلا أنه أطولها حوضا.

بعد ٥٠٠ سنة من رحلة هيردوت أرسل الإمبراطور نيرون قائدين رومانيين على رأس حملة إلى السودان الذي كان يسمى النوبة وقتها ولكنهما عادا دون أن يظفرا بشيء من التوفيق.. وكانت حجتهما أن المستنقعات التي صادفتهما سدت عليهما الطريق.

وحسب ألان مورهيد أيضا فإن طبيعة إفريقيا أعجزت أشد المغامرين جرأة عن كشف النيل الأبيض.. ولم يصل أكثرهم صبرا إلا إلى مدينة جوبا.. عاصمة جنوب السودان.. الواقعة على خط عرض خمسة شمالا.. ومن ثم لم يقاربوا النهر في شيء.

إن الشلالات وغابات البردي الشاسعة والملاريا والحرارة الاستوائية الضاربة والجبال الشاهقة والبحار الداخلية الشاسعة ومعارضة القبائل الوثنية كلها معوقات صعبة منعت تقدم الرحالة.. وحتى يبرروا فشلهم راحوا يروجون لخرافات لا وجود لها منها أقزام متوحشون ومفترسون وذوو ذيول وحيوانات غريبة تجمع بين الأفيال والتماسيح مثلا.

وقد وجدت بعضا من أوهامهم مرسوم في كتاب يحتفظ به جون جارنج.. الزعيم الجنوبي الذي قاد تمردا عسكريا مسلحا استمر سنوات طويلة ضد الحكومة السودانية في الشمال قبل أن تهدأ الحرب وتبدأ المفاوضات التي انتهت بإقرار استفتاء تقرير مصير الجنوب بالبقاء أو الانفصال.. ولم يعش جون جارنج ليعرف نتيجة الاستفتاء فقد قتل في تحطم طائرة كان يركبها هو وبعض مساعديه.

وسبق أن رأيت نسخة أخرى من تلك الصور في رحلتي إلى جوبا برفقه صلاح حافظ وهبة عنايت وكانت عند كاهن الكنيسة الرئيسية أخرجها لنا بعد أن حضرنا زفاف قام بعقد قران طرفيه.. لاحظنا فيه أن العروس حامل في شهرها التاسع وعلى وشك أن تضع طفلها.. وكانت المفاجاة أن العريس ليس هو والد الطفل.. «مش مهم».

كانت الرسومات تصور أقزاما لهم أنياب مثل أنياب الفيل.. وتصور فيلا له رأس تمساح.. وتصور تمساحا له فراء غوريلا.. وتصور غوريلا لها قدما رجل.. لقد شارك في تلك الرسومات شخصيات مرموقة في بريطانيا وبلجيكا برروا فشل رحلاتهم الإفريقية بتلك الخرافات التي وجدت قبولا عند عامة الأوربيين فآمنوا بها كأنها حقيقة.. وراح مؤلفو مجلات الأطفال المصورة يضيفون عليها ويزيدون من خيالاتهم.

وفي بيت كاهن جوبا وجدنا أيضا نسخة قديمة جدا من سجلات الجغرافي السوري مارينوس الصوري التي رسم منها بطليموس ـ أعظم جغرافي وفلكي في أواسط القرن الثاني الميلادي ـ خريطته المشهورة.. وفيها مجرى النيل ممتدا من البحر المتوسط مباشرة إلى خط الاستواء.. وتظهره نابعا من بحيرتين مستديرتين يأتي إليهما الماء من سلسلة جبال شاهقة.. جبال القمر.

وراح الكاهن المثقف خفيف الظل يروي لنا ما بين الوهم والحقيقة ما قرأه عن تاجر إفريقي في منتصف القرن الميلادي الأول يدعى ديوجنيس زعم أنه كان عائدا إلى بلاده من رحلة في الهند فهبط مكانا يدعى رابتا في القارة السمراء ـ يحتمل أن يكون الموقع الحالي لمدينة بانجاني في تنجانيقا ـ وبعد أن غادر المكان بنحو ٢٥ يوما قضاها في طريق بري بلغ مشارف بحيرتين كبيرتين وسلسلة من الجبال يكسوها الثلج ويستمد النيل منها منابعه.. وهي نفس القصة التي جاءت في سجلات مارينوس الصوري واقتبس منها بطليموس خريطته التي بقيت أعجوبة جغرافية طوال ١٧٠٠ سنة.

في عام ١٨٤٨ طلع المبشر الكاثوليكي جوهان ريبمان بنبأ أثار ضجة في أوروبا.. قال: إنه قام برحلة برية من ساحل إفريقيا الشرقي ـ كما فعل ديوجنيس ـ فرأى جبلا هائلا يدعى كليمنجارو تغطي الثلوج قمته.. فلم يصدقه أحد على حد قول ألان مورهيد.. وبادر عضو بالجمعية الجغرافية الملكية في لندن يسمى ديسبور كولي بنسف قصته وتسفيهها قائلا: «إن من المستحيل ألا تذوب الثلوج عند خط الاستواء».. و«أن ما رآه المبشر ما هو إلا انعكاس الشمس الحارقة على صخر أبيض».

لكن مبشرا مسيحيا آخر هو جوهان لودفيج كراف «ادعى في العام التالي أنه رأى عن بعد قمة ثانية تكسوها الثلوج شمال كليمنجارو هي قمة جبل كينيا.

وجاء مبشر ثالث يدعى جي جي إرهارت زار تلك المنطقة البعيدة وعاد وهو يحمل رسما يظهر بحيرة داخلية كبيرة أسماها بحر يونيا ميزي.

وفي منتصف القرن الثامن عشر راح تجار الرقيق يتحدثون ـ عند عودتهم من قلب إفريقيا إلى زنجبار ـ عن بحيرتين كبيرتين هما أوجيجي ونيانزا.. ثم أضيفت إليهما بحيرة ثالثة هي نياسا.. وهو ما أثار خيال اثنين من المكتشفين هما ريتشارد فرانسيس بيرتون وجون هانينج سبيك فقررا عام ١٨٥٦ السفر إلى إفريقيا والبحث عن الطريق المؤدي إلى منابع النيل الأبيض.. وبحملتهما الجريئة أصبحت الحقيقة المجهولة للنهر الغامض على وشك أن تنجلي.

كانت جزيرة زنجبار على الساحل الشرقي للقارة الإفريقية التي زارها بيرتون وسبيك أهم بكثير من تلك الجزيرة السياحية التي زرتها فيما بعد.. بعد أكثر من ١٣٠ سنة على نزول المكتشفين البريطانيين إليها.

كانت قبل قرن ونصف من الزمان مركزا مرموقا للتجارة الخارجية.. تصل إليها السفن من المحيط الهندي محملة بالتوابل والحرير.. وترحل منها وهي تحمل العبيد والعاج والجلود والشطة والعنبر وقرن الخرتيت وأسنان فرس

البحر.. وكان تجار العبيد من العرب الذين سكنوا الجزيرة واستقروا ولا تزال آثارهم باقية حتى الآن.

كان عمر بيرتون في ذلك الوقت ٣٦ سنة وسبق أن خدم ضابطا في الهند وترجم «ألف ليلة وليلة» عن العربية و«الكاما سوترا» عن الهندوسية وهو أشهر كتاب جنسي وقام برحلة شهيرة إلى مكة الإسلامية وقاد حملة إلى هرر الأثيوبية.. وعرف عنه الشذوذ الجنسي وفي نهاية عمره كان يتقن ٢٩ لغة وعاش في فترة من عمره مع ٤٠ قردا ليدرس أصواتهم ويؤلف معجما عن لغتهم.

أما سبيك فكان عمره ٣٠ سنة.. يعتني بنفسه.. يأكل قليلا.. لا يشرب الخمر.. لم يدخن.. جادا.. يهوى الحياة في الهواء الطلق.. رزينا.. متقشفا.. سبق له الالتحاق بالجيش الهندي.. وقاتل في البنجاب.. وخرج للصيد في الهيمالايا.. بدأ مغامرة النيل بمكافأة نهاية خدمته في الجيش.. حوالي ٣٩٠ جنيهًا اشترى بها سلعًا يقايض بها الأفارقة وعلى رأسها الخرز.. وقد انضم إلى بيرتون في حملة هرر ضد ما سموا بالمسلمين المتعصبين.. ثم اشتركا معا في حملة القرم.. وفي لندن التقيا معا على هدف واحد هو السفر إلى منابع النيل.. وقد بدأ رحلتهما في ١٦ يونيو ١٨٦٧.. في قافلة تضم ١٣٢ رجلا منهم مندوب عن سلطان زنجبار يحمل أعلامه وأختامه.

في ١٣ فبراير ١٨٥٨ وصلا إلى بحيرة تنجانيقا بجوار أوجيجي.. مركز تجارة الرقيق والعاج.. كانت لحظة فوز كبير.. لكن المرض استبد بهما.. سبيك الذي عانى من الرمد في طفولته كان شبه أعمى لا يكاد يرى البحيرة.. وبيرتون لم يكن ليتناول إلا السوائل بسبب تقيح فكيه.. ورغم ذلك استقلا زورقين ليقلعا في البحيرة حسب تصور بيرتون الذي كان واثقا أنه سيعثر على نهر يتدفق شمالا هو منبع النيل.. لكن رجاءه خاب.. فنهر روسيزي يتدفق في اتجاه الجنوب ليصب في بحيرة تنجقانيقا التي لا يتجاوز ارتفاعها ٢٥٣٥ قدما فوق سطح البحر.. فهي أشد انخفاضا من أن تكون المورد الأصلي للنيل.

في ٩ يوليو من نفس السنة سمعا من عرب يقيمون هناك عن بحيرة أكبر هي نيانزا تقع على مسيرة ثلاثة أسابيع في اتجاه الشمال فشكك بيرتون فيما سمعا وترك سبيك يرحل بمفرده.

اقترب سبيك من بحيرة فكتوريا دون أن يراها.. فالأعشاب البرية تتكاثف حولها ميلا بعد ميل في رتابة واضحة.. والقرى والبقاع من حولها يغلب عليها الفقر.. وعندما يحرق السكان الأعشاب الجافة في فصل الجفاف لا أحد يرى سوى أرض سوداء.. وأشجار طالها هباب الحريق.. وغبار رمادي متطاير.. لكن.. سرعان ما تبدأ أرض مختلفة.. إذ تتناقص الأعشاب وتتباعد وتظهر سهول فسيحة مترامية.. وتنبثق من الأرض صخور جراتينية هائلة شامخة.. وتحط أسراب من البجع والطيور الأخرى على مستنقعاتها وحفرها المائية.. ويتغير الهواء.. يصبح أكثر برودة.

وقد عشت هذه التجربة بنفسي أنا والفنان الصحفي هبة عنايت وكنا معا نشترك في تحرير مجلة الوادي التي اهتمت بالتكامل بين مصر والسودان.. وقفنا أنا وهو في نفس المكان الذي وقف فيه سبيك قبلنا بأكثر من ١٣٠ سنة.. وشعرت لحظتها أنني أمام تجربة جديدة فريدة.. وزاد ذلك الشعور باقترابي من البحيرة.. حيث تتضاعف خضرة الأرض ورطوبة الخواء.. ولا تلبث أن تجد نفسك وسط واحة من النخيل وأشجار المانجو وزهرة الجهنمية التي تصل ألوانها إلى عشرة ألوان مبهجة ومبهرة.. ومن بعيد تتراءى جزر بحرية تطوف بها زوارق شراعية.. وناحية الشمال لا تبدو نهاية لمساحة المياه الشاسعة.

لكن.. ما لم نره هو ما أضافه آلان مورهيد: «وقد يصادف أن تقض هدوء البحيرة عواصف هائلة تجللها الغيوم.. لكن في الأيام العادية تهب نسمات خفيفة.. وتتلون البحيرة بلون السماء.. فهي زرقاء في وضح النهار.. وسمراء في الأيام الغائمة.. وسوداء في ساعات العاصفة.. وفي أثناء الغروب ـ وهو منظر باهر الجمال ـ تتألق السماء والبحيرة بفيض من الأضواء الجميلة».

في ٣ أغسطس من السنة ذاتها رأى سبيك البحيرة للمرة الأولى واستولى عليه إلهام فكتب فيما بعد في مذكراته: «لم يعد لدي شك في أن البحيرة المترامية عند قدمي هي أم ذلك النهر الطرف.. هي المنبع الذي كان مجالا لتكهنات كثيرة.. وهدف للعديد من المستكشفين وصحت رواية العرب بحذافيرها.. فهذه البحيرة أوسع من رقعة تنجانيقا حتى إن بصرك لا يأتي على حدودها المقابلة كما أنها من الطول بحيث لا يدري أحد مداها».

واختلف بيرتون مع ما توصل إليه سبيك.. بيرتون احتضن بحيرة تنجانيقا وزاد تركيزه عليها وسبيك تحمس لبحيرة فكتوريا وأصر على أنها منبع النيل.. ولم يكن الخلاف بين الرجلين سهلا.. فقد تعمد بيرتون السخرية من سبيك وتسفيه كلامه.. وقررا أن يفترقا.. وكان فراقهما إلى الأبد.. وعاد سبيك إلى لندن في ٢١ مايو التالي.. وفي صباح اليوم التالي جرى إلى سير رود ريك ريبون رئيس الجمعية الملكية الجغرافية وأطلعه على ما توصل إليه.. ولم ينقض أسبوع على وصوله حتى شاع في الأوساط الراقية ما حققه الشاب الجريء المتواضع من كشف شديد الأهمية.. ودعته الجمعية للذهاب إلى إفريقيا مرة أخرى على رأس حملة جديدة اعتمدت لها ٢٥٠٠ جنيه.. واختار لمساعدته رجلًا آخر هو الكابتن جيمس أجسطس جرانت.. وكان مقدرا أن تنقضي خمس سنوات.. قبل أن ينال مراده كاملا.

في ٧ يوليو ١٨٦٢ شاءت الظروف أن ينفصل جرانت عن سبيك الذي مضى وحده إلى منبع النهر بعد أن شاهدا البحيرة وعرفا أن النيل يولد من أحشائها.. وفي ٢١ يوليو نفسه عند بقعة تسمى «أورونلد وجاني» على بعد أربعين ميلا من البحيرة وصل سبيك إلى منتهاه قائلا:

ـ «هنا وقفت عند طرف النيل وما أجمل المنظر فلا شيء يفوقه.. كان عين الكمال المنشود في أرقى متنزه عام.. ففيه مجرى ضخم.. تتراوح سعته بين

٦٠٠ و٧٠٠ ياردة.. مزركش بالجزر الصغيرة والصخور.. وهناك التماسيح.. والضفاف العالية.. وأفراس النهر.. وقطعان البقر الوشحي.. كل ما كان يخطر بالخيال».

ونظر سبيك إلى رجاله قائلا:

«يجدر بكم أن تحلقوا رؤوسكم وتغتسلوا في النهر المقدس كما فعل موسى وعيسى».

وبعد مسيرة أسبوع آخر وجد المجرى العظيم يتدفق تحت قدميه على مسقط مائي كموجة سيل عارم.. وكتب فيما بعد يقول: «كان منظرا يشد إليه المرء ساعات.. خرير المياه وآلاف الأسماك العابرة وهي تقفز في الشلال بكل قواها وصيادو قبيلتي واسوجا وأوجندا يسعون في القوارب ويستقرون على الصخور ليحصلوا على ما يسعون إليه من لحم طري بينما أفراس النهر والتماسيح تستلقي على الماء في خمول».

وأطلق على المكان اسم «شلالات ريبون» تكريما للرجل الذي رأس الجمعية الجغرافية الملكية وشجع على حملة الاكتشاف.

المذهل في مذكرات سبيك أن يكشف عن حقيقة ملفتة للنظر وهي وجود حامية مصرية تسمى فالورو كانت تقيم بالقرب من منابع النيل.. وقد خف قائدها زيد على محمد واد الملك لعناقه مرحبا به وأعلن أنه وكيل عن تاجر مالطي يدعى دي بونو وأنه سيحمله إلى معقل المصريين في جوندوكرو.. وقدم إليه هو ورجاله الخبز وعسل النحل ولحم الضأن في أطباق من فخار ونام في تلك الليلة على سرير حقيقي ولكنه وجد أن الصابون كان أعظم مظاهر الترف التي أتيحت له على الإطلاق، مما يعنى أن هناك محاولات من جانب المصريين نجحت في أن يصلوا إلى منابع النيل قبل الإنجليز الذين سجلوا السبق باسمهم لقوتهم.

ويبدو أن كشف النيل جعل سبيك الزاهد المتواضع يشعر بأهميته ويقرر أن

ينقلب على حياته الجافة السابقة.. فقبل ضيافة ملك البلاد.. وهي ضيافة شاملة شرب بيرة «البومبة» في الصباح كعادة أهل البلاد.. وتمتد إلى الفتيات الجميلات اللاتي يقدمن إليه كل ليلة.. ولوحظ أنه كان يمارس هواية غريبة وهي قياس أجساد النساء وهو عاري الساقين.. وكان يصف ذلك بأنها «عملية هندسية».. بجانب أنه كان لا يتوقف عن إطلاق الرصاص على البقر.

وعاد سبيك إلى لندن في ٢٥ سبتمبر ١٨٦٣ ليجد بيرتون يدعوه إلى مساجلة حول دور كل منهما في اكتشاف النيل.. لكنه لم يوافق بصورة نهائية.. فهو يعرف أن خصمه أكثر براعة منه في أحاديث التجمعات العامة.. وقررت الجمعية الملكية الجغرافية التي مولت رحلته الأخيرة أن يحضر المساجلة في يوم ١٦ سبتمبر ١٨٦٤ بعد نحو سنة من عودته.. على أنه قبل ساعات من اللقاء وقعت المفاجأة الأخيرة لسبيك.

كتب بيرتون بنفسه يقول: «في ساعة مبكرة من الضحى المحدد لما أسمته الألسنة الغبية «مبارزة النيل» وجدت اجتماعا كبيرا في قسم الجغرافيا وأديرت على الحضور ورقة في صمت.. وما لبث صديق مستر فيندلاي أن أنهى فحواها إلى: كان كابتن سبيك قد فقد حياته في الرابعة من مساء اليوم السابق بينما يصطاد في أراضي ابن خاله.. وجد مستلقيا على الأرض وقد اخترقت جسده طلقة قريبة من القلب ولم يعش سوى دقائق قليلة وكانت آخر كلماته بألا يحركه أحد».

وترنح بيرتون بشكل واضح على المنصة ثم تهالك في مقعده ووجهه يختلج وهتف: «لقد قتل نفسه».. وعندما عاد إلى مسكنه ذرف دموعا غزيرة.. وهو ما سجلته أيضا زوجته إيزابيل.

لم يكن سبيك متزوجا عندما توفي في السابعة والثلاثين من عمره.. ورغم ما فعل فإنه لم يلق التكريم اللائق الذي يستحقه.. كل ما حصل عليه ميدالية الجمعية.. وكان من الممكن أن يظل مهملا لولا أن فطنت الملكة فيكتوريا إلى

أنه «مات قبل أن يتلقى أي تعبير عن رضانا الملكي».. وتقرر إصلاح ذلك فأشير على والده بأن يضيف تمساحا وفرس نهر إلى شعاره الرسمي.. أقيمت على شلالات ريبون فيما بعد لوحة كتب عليها: «سبيك اكتشف هذا المنبع للنيل في ٢٨ يوليو ١٨٦٢».

وقد شاهدت تلك اللوحة أنا وهبة عنايات عند أول شلال للنيل الأبيض.. وقد اتسمت اللوحة بالدقة عندما ذكرت «هذا المنبع للنيل».. لا «هذا منبع النيل»، فهناك كما نعلم أكثر من منبع للنيل.

وبحيرة فكتوريا تزيد مساحتها عن ٦٧ ألف كيلومتر ومساحة حوضها ١٨٥ ألف كيلومتر ويصل إيرادها السنوي إلى أكثر من ٢٢ مليار متر مكعب.. وتعد البحيرة هي وبحيرتي كيوجا وألبرت جزءًا من هضبة البحيرات الاستوائية.. وبحيرة كويجا مساحتها حوالي ١٧٦٠ كيلومترًا ومتوسط إيرادها السنوي من المياه أكثر من ٢١ مليار متر مكعب.. أما بحيرة ألبرت فتصل مساحتها إلى حوالي ٥٣٠٠ كيلومتر وتقع في كل من أوغندا وزائير وإيرادها السنوي أكثر من ٣١ مليار متر مكعب ويصب في طرفها الجنوبي نهر السمليكي الذي يضاف إليه سنويا نحو أربعة مليارات متر مكعب يستمدها من بحيرتي إدوارد وجورج وتبلغ كمية المياه التي تخرج من البحيرتين إلى نيل ألبرت أكثر من ٢٦ مليار متر مكعب سنويا.

إن النيل الأبيض يبدأ بشلال عظيم.. وهو ابن لتلك البحيرة العظمى في إفريقيا.. ومتعة أن تراها في الفجر.. حيث ينتشر الضباب ساترا البحيرة.. ويستحيل أن تتنبأ بأين يذهب؟.. وأين ينتهي؟.. وما إن تطرد الشمس الضباب حتى نكتشف وجود جزر وخلجان عميقة في البحيرة.. وتظهر على مرمى البصر كثبان وجبال تغطيها سماء زرقاء صافية.

يسيطر عليها صيف حار قاتل في النهار.. وضباب ورطوبة خانقة في الليل.. وترتفع أوغندا خلف البحيرة نحو البراكين التي تفجرت من قبل ونتج عنها

صخور من البازلت والجرانيت كالتي نجدها عند أسوان وتتجه ناحية الأنهار الصغيرة التي تتجمع بقوة لتذهب إلى ناحية المجرى الرئيسي للنهر.

ويسمى النيل هنا بنيل فكتوريا التي يتركها خلفه من غير أن يراها متجها إلى بحيرة ألبرت ليصلها بعد ٥٠٠ كيلومتر من منبعه ليحمل اسمها بعد أن يتعزز بمنبع قوي آخر.. تسبح فيه التماسيح بحرية.. وتثب على ظهرها أسماك فضية.. تتلون بألوان قوس قزح.

اكتشف منبع ألبرت.. المنبع الثاني للنيل الأبيض إنجليزي في منتصف العمر.. هو صموئيل بيكر.. في طفولته أبصر سفن أبيه التي كانت تحمل السكر من جمايكا إلى بريطانيا.. لكنه.. اتجه إلى سيلان لصيد النمور.. وساعده على ذلك قوته البدنية الظاهرة.. وحسب ما نشر أميل بودفيج فإن الصور التي عاد بها من سيلان وهو يمسك رمحا ولا يغطي سوى نصف جسده أعطت انطباعا خاطئا بأنه يعشق القوة.. فقد كان رقيقا مع العبد الصغير الذي تبناه ورباه بعد أن فقد أبناءه الثلاثة في ثلاث سنوات متتالية.

بعد موت زوجته أحب فتاة مجرية شاركته عشق الصيد في آسيا.. وشاركته حلمه في السفر إلى منابع النيل.. واكتشاف ما غمض منها.. وبعد ثلاث سنوات من المعاناة والحرمان شاركته فيها زوجته الثانية اكتشف المنبع الثاني للنيل الأبيض عام ١٨٦٤.

ووصف بيكر بأنه محب الزنوج.. ومقاومة تجار الرقيق الذين أبطل حجتهم في استعباد البشر.. واستخدم في ذلك الكتب المقدسة.. ومنها القرآن.. فقد كان التجار عربا مسلمين يرون أن بيع الوثنيين حلالا.. وكانت الكنائس الأوربية تبارك النخاسة وتعتبرها فرصة لنقل الزنوج من الهمجية إلى المدنية.. وتغاضت عن بيع ما كرمه الله بخمسة جنيهات للرجل.. وثلاثة للمرأة.. والصبي فوق البيعة.

في ذلك الوقت كانت السودان محمية مصر منذ أن وضع محمد علي يده عليها

ووجد حفيده إسماعيل باشا أن تجار الرقيق في الخرطوم وأم دورمان امتنعوا عن دفع الضرائب.. فاستعان ببيكر كي يساعده في إخضاعهم.. وكانت المرة الأولى التي يستعين بها حاكم في القاهرة بأجنبي من لندن.

لكن.. بيكر كان في الحقيقة الرجل المناسب لتلك المهمة الصعبة.. فهو يحب الزنوج.. ولا يحسن الظن بتجار الرقيق العرب.. ويكره بيع الإنسان للإنسان.. وهاجم الباشوات السمان في القاهرة وهم يلبسون الثياب الموشاه بالقصب ويحملهم العبيد وهم في عرباتهم.. وأكثر ما استفزه.. «صبيان من السود مستلقيان على الرمال بعد إخصائهما وصب رصاص على الجروح التي نتجت عن ذلك، ليكونوا خدمًا مثاليين في الحرملك مع النساء دون خطر الغواية.

ويقول أميل لودفيج: إن بيكر كان يهاجم الأديرة القبطية التي كانت تعتمد في دخلها على تنفيذ عملية الخصي بكل ما فيها من قرف وخطر.. وكانت جهوده المضنية لتحرير العبيد سببا مباشرا أن يكون فيما بعد ضيف الشرف في احتفال جمعية مكافحة الرق البريطانية.. فقد كانت جهوده في تلك الناحية سبب شهرته الحقيقية رغم أن كشفه في منابع النيل لا يقل عن ذلك أهمية.

ولو كانت مياه فكتوريا عذبة فإن مياه ألبرت مالحة.. وهو ما يسعد أهالي المنطقة أكثر.. فالملح يهمهم أكثر من الماء.. فهم يشترونه بالمال.. أما الماء فمجانا.. وبعد ترسيبه من البحيرة تخرج مياه ألبرت إلى مجراها التحتاني خالية منه تماما.. وبسبب مرض النوم المنتشر يتكاسل الرجال في جمع الملح المتكوم على شاطئ البحيرة.. ولا تكفي النساء اللاتي قمن بهذه المهمة في إزاحة الأطنان المتراكمة.. وهو ما قد يدفع الملح من جديد إلى المياه ويفسد المياه التي تصلنا من هناك.

وقبل أن نغادر أوغندا بيومين وجدنا من يدعونا للفرجة على الأقزام المتوحشين الذين يسكنون سفوح الجبال القريبة.. وكان وصفهم كفيلا بإدخال الرعب في قلوبنا وتجاهل الزيارة.

الأقزام شعب عريق.. سكن المنطقة منذ عصور ما قبل التاريخ.. وأغلق حدوده على نفسه.. ويقال إن شعر أجسامهم الكستنائية والضاربة نحو الصفرة يصل إلى ١٣٠ سنتيمترًا.. ولحاهم طويلة.. ويتسمون بالصمت.. ويتمتعون بذكاء وحيوية لا تنقصها في حالة الغضب العدوانية.. ويعيشون على ثمار الطبيعة.. خاصة الموز الذي يسرقونه من ما حولهم مثل القرود.. ويقيمون في أكواخ صغيرة يدخلونها زحفا.. ونساؤهم عاريات دائما.. ولا فرق عنده بين حاكم ومحكوم.. بين شخص بسيط وشيخ قبيلة.. وهم مولعون بالموسيقى والرقص.. ولا يكفون عن التدخين.. ورغم ذلك فاضت الأساطير المخيفة حولهم.. فلم نشأ أن نجد الخيال متجسدا أمامنا.. أو نجد أنفسنا أحد ضحاياه.

ويصل الإيراد السنوي للنيل الأبيض في المتوسط إلى ٣٠ مليار متر مكعب.. قبل أن يتجه إلى السودان منتظرا النيل الأزرق الذي يأتي من هضبة الحبشة.. ورغم ثراء النيل الأبيض فإن نصيبنا منه يمثل أقلية بالنسبة للأغلبية التي تأتي لنا من النيل الأزرق الذي قمت برحلتي الأخيرة إلى منابعه.. وكدت أن ألقى حتفي في شلاله الأول وهي قصة سنرويها فيما بعد.

نقطة من أول السطر.. أو من أو ل نقطة في النهر.

الفصل الرابع

حقائب دولارات سرية: ليس بالرشوة نحمي حقوقنا!

كان وزراء الري في دول حوض النيل مجتمعين في الإسكندرية في فندق فلسطين الذي يطل على البحر مباشرة في بقعة المنتزه الملكية الساحرة.. لكن.. نسمات الهواء الطرية لم تخفف من سخونة طقس يوليو وولائم الطعام الشهية لم تهدئ من حدة الخلاف بين غالبيتهم من ناحية وبين وزيري مصر والسودان من ناحية أخرى.. كان سبع دول من دول الحوض التسع يصرون على وضع اتفاقية جديدة لتوزيع حصص النهر تجب الاتفاقيات القديمة المستقرة.. وكانت تلك الدول تشعر بالقوة في مطلبها بصفتها دول المنابع.. ودول المجرى.. حيث يولد النيل في أرضها أو يجري فيها قبل أن يصل إلينا.. نحن دولة المصب.

لم يكن أحد يهتم بتلك الاجتماعات التي جاءت في عز الصيف.. في وقت ينشغل فيه المصريون بأخبار النميمة في مارينا.. ويسعون وراء أخبار نجمات الفيديو كليب وأفلام السينما التي تعتبر الصيف موسما مزدهرا لها.. ومن جانبها تتعجل الحكومة كل ما يوضع أمامها من موضوعات جادة لتنتهي منها على أمل أن تحظى بإجازة تقضيها خارج القاهرة.. كأنها تعبت وشقيت وأنجزت وتستحق الراحة.

قبل أن ينفض الاجتماع اتصل بي الدكتور ممدوح حمزة قائلا: «إنه حصل

على معلومات شديدة الأهمية عن سد تكيزي الذي انتهت منه الحكومة الأثيوبية بمساعدة الصين بعد أن رفض البنك الدولي تمويله احتراما للاتفاقيات التي توجب الرجوع لمصر قبل بنائه هو وعشرات السدود الأخرى التي ستؤثر بالقطع على حصتنا من المياه».. وطلبت من الاستشاري الهندسي المتخصص في التربة ويفهم جيدا في السدود أن يكتب لنا تقريرا مطولا عن ذلك السد وأضراره.. وأصررت على أن ينتهي من مقاله في نفس اليوم لنشره بعد ساعات ليكون هدية عاجلة إلى مسئولي الري الغافلين في مصر عن ما يجري في أقصى جنوب النهر.. وأرسلت إلى مكتبه صحفيا من جريدة «الفجر» جلس بجواره حتى انتهى من الكتابة.. وما إن دارت المطابع بما كتب حتى وجدنا تصريحات حكومية متتالية تهون مما نشرنا.. وتؤكد أن العلاقات المصرية الأثيوبية في أفضل أحوالها.. سمن على عسل.. ولنخرج نحن منها.. بل وأصرت على أن السدود مهما كثرت لن تؤثر على ما يصل إلينا من مياه.. فهي لتوليد الكهرباء فقط.. وكان ذلك أكبر قرينة على أن هناك أزمة.. بل كارثة.. فالكذب الرسمي دليل على صدق الاتهام الصحفي.

قررت أن لا نتوقف عن دق كل نواقيس الخطر وإضــاءة كافة الأضواء الحمراء.. فكانت رحلتي إلى أديس أبابا ومنها إلى منابع النيل الأزرق.. المصدر الأكبر للمياه التي تصلنا عبر النهر العظيم.

في اليوم التالي لوصولي أديس أبابا أنكرت شركة الطيران الأثيوبية حجز تذكرتي بالبريد الإلكتروني على خطوطها الداخلية إلى بحر دار.. وقالت موظفة الشركة: «إن عليك الانتظار أسبوعا حتى نجد لك مكانا الطائرات كلها كاملة العدد وقوائم الانتظار لا نهاية لها».

كان من المستحيل الانتظار أكثر من يوم واحد.. فلو نفذت برنامج الرحلة كما خططت فإنني سوف أعود إلى القاهرة ظهرا بعد يومين على أن أسافر بعد عشر ساعات إلى واشنطن عن طريق فرانكفورت لتغطية رحلة الرئيس صحفيا.. وهي

رحلة يعود بها مبارك إلى الولايات المتحدة بعد غياب خمس سنوات بسبب سوء تفاهم سياسي بينه وبين إدارة الرئيس بوش تسبب فيه نائبه ديك تشيني.. وبعد أن جاء خليفته أوباما إلى العاصمة المصرية وألقى خطابه الشهير في جامعة القاهرة عادت الطرق لتفتح أمام زيارة الرئيس للعاصمة الأمريكية التي كانت تستقبله عادة مرة في السنة على الأقل.

طلبت من موظفة الحجز البحث عن حل يعوض إهمال شركتها.. ويمنحني فرصة السفر إلى المنابع في وقت مناسب.. وإلا قطعتها وعدت في نفس الليلة إلى القاهرة.. لكنها.. نظرت في أوراق أمامها وهي تخفي ابتسامة مشجعة على أمر ما.. فوضعت في جواز سفري خمسين دولارا.. وجاءني شعور بالثقة وأنا أرد على ابتسامتها بأخرى مشابهة إنني سأجد مقعدا على أول طائرة.. وهو ما حدث.. لكن.. طالبتني «أديس» وهذا هو اسمها بدفع مبلغ إضافي على ثمن التذكرة.. بحجة أنني أجنبي.. وبحجة أنني أريد السفر دون حجز.. ودفعت وأنا غير مقتنع.. وربما كانت على حق.. فلم يعد أحد يعرف كيف تتعامل شركات الطيران المختلفة الآن؟.. ودفعت.. وأخذت التذكرة.. ومن شدة الفرحة كدت أن أقبلها.. وأتصور أنها لم تكن لتمانع.

بطبيعتي المحافظة الحريصة على احترام القانون لا أميل إلى دفع رشوة للحصول على حق من حقوقي.. لكنني في إفريقيا.. حيث الضمير القانوني في بداية عمره.. في مرحلة طفولية لم يغادرها بعد.. لا أحد يعتبر ما تقدمه إليه رشوة.. يعتبره هدية.. مجاملة.. عربون محبة.. بداية صداقة.. وتتساهل القوانين مع غالبية الأموال التي يتلقاها المسئولون فيها تحت الموائد.. إلا في حالات نادرة.. حين تستخدم الفضيحة في تصفية الخصوم السياسيين في فترات الانتخابات وتشكيل الحكومات.

لقد سيطر الأجانب على القبائل الإفريقية الشرسة بالخرز والحرير.. وهو ما

خلق ثقافة تلقي الرشوة كأنها هدية.. وأصبح مستقرا في يقين الدنيا كلها أن شراء أصوات الدول الإفريقية في التجمعات الدولية أمر سهل.. الفيفا.. منظمات الأمم المتحدة.. منظمة الوحدة الإفريقية.. وغيرها.

ورغم أن مصر لها حقوق تاريخية مستقرة في مياه النيل فإنها كانت في عهود مختلفة كانت ترسل بحقائب متفجرة بالدولارات إلى مسئولين في بعض دول الحوض حتى لا يثيروا المتاعب ولا يحرضوا ضدها.. ويبدو أن تلك الطريقة السهلة في السيطرة أغنتنا عن تعاون حقيقي بيننا وبين تلك الدول.. فأهملناها على أمل استردادها في أي وقت بحقيبة دولارات أكبر وأعرض.

ومن ناحية أخرى كنا نشتري أربعة مليارات متر مكعب مياه من حصة السودان وندفع ثمنها ١٢ مليون دولار.. وهو أمر قديم من عهد الرئيس السوداني الأسبق جعفر نميري.

على أن ذلك لم يعد يصلح الآن بعد أن ظهرت دول من خارج الحوض يمكن أن تدفع أكثر مقابل فرض إرادتها وسياستها ولو على حسابنا.. فلم تعد الرشوة تكفي.. إلا للحصول على تذكرة طيران داخلي.

لا وربما طلبت بعض الدول مبالغ أكبر مما هو معتاد بعد أن رفعت شعار: يا البيع يا المنع.

لكن.. ذلك لا يعنيني الآن.. ما يعنيني أن أكمل رحلتي إلى منابع النيل الأزرق.. الأكثر أهمية بالنسبة لنا.

كانت أديس أبابا نائمة وأنا وزميلي في الرحلة طه العربي.. تركنا الفندق في الخامسة صباحا متجهين إلى المطار.. في الطريق بدت المصابيح شاحبة.. باهتة بعد أن عطلت الأمطار الصيفية الغزيرة الشرسة محطات مختلفة في شبكات توليد الكهرباء.. في العاصمة التي تعاني من فقر الطاقة.. تحت تهديد دائم بالإظلام.

وجاء صوت مؤذن المسجد الكبير من بعيد ضعيفا.. خافتا.. وزاد من ضعفه صخب الأمطار وصراخها.

كان المطار هو أيضا نائما.. متكاسلا.. ما عدا إجراءات الأمن.. كانت صارمة.. خوفا من عمليات تفجيرية تقوم بها منظمات الصومال الغربي التي ترفض الاحتلال الأثيوبي لبلادها.. وسبق أن نفذت أكثر من عملية هزت العاصمة بانفجاراتها المدوية.

المحلات التجارية في المطار متواضعة.. تبيع المنتجات الشعبية.. والخمور.. ولعب الأطفال.. والمقهى الوحيد ليس فيها سوى الشاي.. وأنواع متواضعة من البسكويت.. ويسهل التدخين فيه.. ولا تبتسم فتاة الخدمة إلا إذا أعجبها البقشيش.. وهو أمر مقدور عليه بسبب ضعف العملة الوطنية «البري» أمام الدولار.

مع كوب شاي ساخن سألني طه العربي بطريقته اللماحة الذكية: «هل من المناسب قيامك بهذه الرحلة في قت هطول الأمطار الصيفية؟».. وأضاف متسللا: «لقد حذرني أصدقائي الأثيوبيون من خطورة الرحلة.. ما رأيك في تأجيلها.. والعودة إلى الفندق على أن نفكر فيها فيما بعد؟».

قلت: «اسمع يا طه.. ليس في إيماني قضية تمس أمننا القومي أهم وأخطر من قضية المياه.. إنها قضية حياة أو موت.. وأنا على العكس أرى أن الوقت مناسب رغم خطورة الموقف.. هي فرصة كي أعرف كيف تنتفخ المنابع بالأمطار التي تجبر المياه على السير في اتجاهنا كل هذه الرحلة التي تقدر بمئات الأميال دون كلل أو ملل».

قال: «على كل حال ربنا معنا وأنت في الحقيقة ستسجل أن رحلتك هي الأولى من نوعها لصحفي مصري جاء يرى بنفسه ما يجري».

وأضفت: «إن الرحلة مهما كانت خطرة.. سهلة.. مجرد أن نركب طائرة

لنكون هناك بعد ساعة.. ماذا لو كنا قد قمنا بها قبل مائة سنة كما فعل مكتشفو منابع النيل؟.. كان من المستحيل أن نبدأها.. أو نفكر فيها دون أن تكون وراءنا دولة توفر لنا عشرات الحراس والحمالين من السكان المحليين.. بخلاف أدوية الملاريا.. وهدايا الخرز والحرير لزعماء القبائل.. وربما اشتهوا لحمنا فأكلوه مشويا أو مسلوقا.. نحن مترفون يا حاج طه.. نقوم بالرحلة وكل الاختراعات الحديثة في خدمتنا.. ويمكن تسجيلها بكاميرا ديجتال في حجم الكف.. ويمكن أن أرسل بما أكتب وبما أصور فور العودة إلى أديس أبابا عبر شبكة الإنترنت».

واستطردت: «لقد كان على الرحالة القدامى أن يمشوا مئات الأميال.. وبعضهم لم يستطع أن يكمل الطريق.. وبعضهم مات من التعب.. ولو كنا قد استكثرنا أن تستمر الرحلة أسبوعا فإن هناك من استمر في رحلته خمس سنوات.. وفي النهاية ما هو مكتوب علينا لا مفر من أن نراه بأعيننا».

ونودي على الرحلة (١٢٢) رحلتنا..ووجدنا علامة حمراء على بطاقة صعود الطائرة.. إن شركة الطيران توفر على نفسها صداع الركاب الذين لا يجيدون القراءة فتضع على بطاقة صعود الطائرة لونا معينا لكل رحلة.. وكان اللون الأحمر من نصيب رحلتنا.

بدأت الرحلة في السابعة والربع صباحا وسط أزيز صاخب.. مشينا على أرض المطار إلى الطائرة المروحية التي راحت محركاتها تئن وتهدد من يجلس على متنها بالصمم من إزعاج صوتها.. ولم يخل الأمر من مطبات هوائية حادة حولت الطائرة النحيفة إلى طائرة ورقية خفيفة وجعلتها في حالة حشرجة مسموعة وكأنها أسد عجوز لا يقوى على اصطياد فأر.. واعتذرت للمضيفة عن سندوتش التونة الذي قدمته إلينا.. وجبة إفطار بلا شاي ولا قهوة ولا شربة ماء.

ولم يمنع إيماني بقضاء الله وقدره أن أقرأ الشهادتين وما تيسر من آيات التحصين والحماية.. وأغمض عيني في وصلة يوجا عقلية (ميدتشين) ألجأ إليها

في مثل هذه المواقف التي لا حول لي فيها ولا قوة.. أغمض عيني وأسترخي في مقعدي وأنتظر قدري ومصيري.

ما الذي يمكن أن أفعله لو دخل طائر قوي عنيد في محرك من محركي الطائرة وأوقفهما في الجو لتسقط في منطقة مجهولة كما يحدث كثيرا؟.. لا شيء سوى الدعاء إلى الله أن يصلي على جثماني من يجده.. أو لا أجد نفسي في منطقة يهوى أهلها لحم البشر.. أو يعتبرونني أسيرا يمكن المساومة عليه.

لكن الميزة الوحيدة لذلك النوع من الطائرات أنه يطير على ارتفاع منخفض يسمح برؤية الأرض تحتنا بسهولة.. لقد أتاح ذلك لنا مشاهدة غابات السفانا القصيرة.. والجبال المغطاة بالخضرة.. وقطعان الحيوانات البرية..ومجاري المياه الصغيرة وعندما اقتربنا من محطة الوصول ظهرت لنا بحيرة تانا واضحة من الجو.. مساحة غير منتظمة من المياه.. وإن بدت أقرب إلى شكل القلب الواسع العريض.. وربما تحمل مثله سر الحياة.. وأصل الخلود.

بدأ الهبوط في مطار بحر دار من البحيرة نفسها.. كأنها أول المهبط.. نزل قائد الطائرة بجسمها حتى كاد يلامس ببطنها المياه.. وهو مشهد عشته من قبل وأنا أهبط في مطار مقديشيو في الصومال ومطار سان فرانسيسكو في الولايات المتحدة ومطار بانكوك في تايلاند.. حيث توجد ممرات الهبوط على مياه المحيط مباشرة وتبدأ من البحر قبل أن تستقر على البر.

وبحيرة تانا هي ثاني أكبر بحيرة طبيعية في العالم بعد بحيرة فكتوريا.. تقع على ارتفاع ١٨٠٠ متر.. مثل بحيرات وادي إنجادين في سويسرا.. طولها ١٣٥ كيلومترًا.. وعرضها ٦٥ كيلومترًا.. ويسيطر عليها اللون البيج.. لون الطمي المختلط بالمياه.. وتبدو هادئة.. خالية من الأمواج.. وغير مغرية للتماسيح.. وإن كان الحيوان المتوحش بها البقر المائي.. وعندما تسقط عليها أشعة الشمس في وسط النهار يتألق سطحها بصفائح مرتعشة من الذهب.

وتحيط بالبحيرة جبال صغيرة.. وسهول مزروعة بأشجار السنط والنخيل.. مع أكواخ فقيرة هزيلة من الحصير يسكنها الفلاحون والرعاة.. وأكبرها يسكنه شيخها أو عمدتها.. وبالقرب منه كنيسة.

وتقترب بحيرة تانا من بحيرة ألبرت اتساعا.. وإن كانت ضعفها ضخامة.. وهي نتاج براكين قديمة فجرت الأرض.. وأخرجت الطمي.. وعندما امتلأت بالمياه تركت الطمي يمشي معها مئات الأميال ليكون في طريقه القرى والواحات حتى ينتهي في مصر.. هبة الغرين.

على البحيرة مباشرة فندق صغير مبني على طريقة بيوت الغابات الإفريقية التي نسميها «بانجولز».. الفندق يسمى «كرفتو».. وبدا واضحا من حركة البناء أن هناك إقبالا سياحيا على الفندق من طبقة معينة تقدر على دفع ٣٠٠ دولار في الليلة.. بجانب تكلفة الطعام المرتفعة.. وتكلفة الخدمات الأخرى.. استئجار زورق يطوف بالبحيرة.. أو دخول منطقة السونا والمساج الذي تقوم به فتيات على نفس مستواه في فنادق الخمسة نجوم.

والبناء يجري بطريقة بدائية.. نساء يحملن ما يقدرن عليه من الحجارة.. حجر حجر.. وأخريات يحملن ما يقدرن عليه من مياه البحيرة.. بجرادل صغيرة.. وكسارة تسحق صخور البازلت السوداء قبل وضعها في خلاط أسمنت صغير لتخرج «المونة» التي تستخدم في تشييد طوابق غير مرتفعة عن الأرض.. تطل كلها على مشاهد البحيرة الساحرة من جوانبها المختلفة.. وكأن النزيل ينام في قلبها.

مدير الفندق الذي جاء للترحيب بنا شقيق صاحبه تادرس الذي ترك بلاده وقت منجستو وهاجر إلى الولايات المتحدة هربا من البطش والاعتقال دون سبب.. وبعد سقوط النظام.. عاد المهاجر إلى وطنه بأفكار سياحية.. فبنى فندقا متواضعا في العاصمة.. وبنى هذه القرية السياحية على حافة البحيرة.. ويمكن

أن أعترف بأن خدمة الطهي وتقديم الطعام كانت ممتازة.. وإن كنت لم أتوقعها.. إن الاحتلال الإيطالي الذي عرفته أثيوبيا في فترة من تاريخها أنجب أجيالا من الطهاه المحليين تعلموا الصنعة من المحتلين.

تناولنا طعام الإفطار-بيض أومليت وجبن شيدر ومربى فراولة وقهوة أمريكية بالحليب قبل أن نستقل زورقا سريعا دخلنا به أعماق البحيرة.

كانت لسعة البرد منعشة في البداية.. لكن.. مع سرعة الزورق زادت حدة البرد إلى درجة التهديد بالأنفلونزا التي أعاني من هاجس مرضي بالإصابة بها.. إن ارتفاع سطح البحيرة عن مستوى الأرض بأكثر من سبعة آلاف قدم وغزارة الأمطار أحالت الصيف هنا إلى ربيع في الصباح.. وخريف في منتصف النهار.. وشتاء بارد في الليل.. لا بد أن تنام تحت غطاء ثقيل ولو كنت في يوليو أو أغسطس.

أما الصيف فتشعر به عندما تبدي أقل حركة.. فكل هذا الارتفاع عن سطح البحر يقلل من نسبة الأكسجين الذي نتنفسه إلى حد الشعور بالعرق وضيق النفس عند أقل مجهود وكأنك جريت مائة كيلومتر مرة واحدة دون انقطاع.. لذلك فإن تدخين سيجارة واحدة يكفيك لتشعر بأن دخنت «خرطوشة» كاملة.. ورغم ذلك أصر طه العربي فيما بعد أن ندخن «الشيشة» التي يحتفظ الفندق بأكثر من واحدة منها للمصريين الذين يأتون إلى هنا من دبلوماسيين ومهندسي ري ورجال مخابرات.. وهذه هي المرة الأولى التي يدخنها صحفي ورجل أعمال هنا.

ويعد نقص الأكسجين سببا في خمول غالبية السكان في أثيوبيا.. وإن حباهم الله بنوع من الحبوب الغذائية يصنعون منه خبزهم وفطائرهم غني بالحديد والفيتامينات.. ويوسع الشرايين الموصلة إلى المخ.. ويزيد من كميات الأكسجين في الدم.. ويصلح لزراعته في مصر التي يعاني أغلب سكانها من الأنيميا الحادة.. إن الله سبحانه وتعالى يقطع من هنا ليصل من هناك.

في منتصف البحيرة تقف جزيرتان تغطيهما خضرة برية كثيفة وصافية وخالية من البقع الصفراء.. على إحداهما كنيسة قديمة بنيت منذ ثلاثة قرون.. يسكنها رهبان فضلوا العزلة عن صخب الدنيا.. لا يفتحون أبوابهم للزوار إلا في أعياد القديسين المحليين.. وبعضهم ملوك تمتعوا بالعدل والورع.. ومنهم ملك منطقة ليبالي الذي نحت في الجيل إحدى عشرة كنيسة بنصيحة من أمه أصبحت تحفة أثرية.. وعبقرية معمارية.. ومزارا دينيا يأتي إليه خمسة ملايين سائح خصيصا كل سنة.

بين الجزيرتين ممر يشبه البوابة الطبيعية.. يستمتع صيادو السمك بدخولها هربا من الأيام التي تشتد فيها الحرارة.. وهم يستقلون قوارب مصنوعة من سيقان نبات البردي يسمونها فيشريما.. تشد بالحبال.. دون مسامير.. لا تسع أكثر من شخصين.. أحدهما يقوم بالتجديف.. والآخر يلقي بالشباك.. وبعد ساعات قليلة يعودان بصيد وفير.. فالبحيرة لا تعرف وسائل الصيد الحديثة التي تقضي على الأسماك الصغيرة «الزريعة» قبل أن تكبر.. والناس هنا يحترمون تعليمات الحكومة التي تصلهم عبر الراديو.. ولا يتحايلون عليها.

وتصر بعض المراجع التاريخية على أن الفراعنة وصلوا إلى هنا قبل غيرهم من المكتشفين الأجانب.. وتركوا سر صناعة تلك القوارب ـ التي لم تتغير منذ خمسة آلاف سنة ـ وراءهم.

ويدعم ذلك أن أسراب الأوز التي تسكن البحيرة وتسيطر عليها بصورة واضحة تسمى «الوز المصري».. يسمونه «وز».. بنفس الطريقة العامية التي ننطق بها الكلمة.

والحقيقة أن ذلك ليس دليلا قويا على أن الفراعنة وصلوا إلى بحر دار.. فمن الممكن أن تكون تلك القوارب قد جاءت إلى هنا عبر الصومال الغربي الذي وصلته بعثة الملكة حتشبسوت المكونة من ٢٥٠ عالمًا وباحثًا وجغرافيًا ومسئولًا

سياسيًا وماليًا وتجاريًا وعسكريًا.. ونجحت في أن تقيم علاقات اقتصادية ودبلوماسية معها.. وكانت تعرف في ذلك الوقت ببلاد بونت.. والقصة معروفة في كتب التاريخ المدرسية.. وربما جاءت تلك القوارب من هرر.. صنعها رجال إبراهيم باشا وقت أن كانوا يحتلونها.. وإن كانت الخلاصة أن بصمات المصريين القدماء وصلت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى بحيرة تانا ومنابع النيل الأزرق في وقت مبكر من التاريخ.

وربما لم نعد نتذكر أن الأحباش غزوا مصر وفتحوها سنة ٧٣٠ قبل الميلاد.. وجاءوا منها بكل ما نراه على أرضهم ويمت لنا بصلة.. جاءوا بالآلهة.. والعادات.. وعناصر من يهود وعرب.. اختلطوا بأهلها.. وهم الذين أطلقوا عليها الحبشة.. والمذهل أن الأحباش لم يغزوا في حياتهم دولة ونجحوا فيها غير مصر.. كانت على ما يبدو مغرية لهم.

ووصل العرب الذين استقروا في الحبشة إلى مراتب عليا في السلطة.. ولعل أشهرهم الملك العربي اليهودي الذي سمي بابن الآراس.. وكان يصف نفسه بابن آلهة اليونان.. على أنه كان أول من تعمد تكفيرا عن السيئات.. وصار يهوديا.. وصار أبناؤه نصارى.. وهكذا دخلت المسيحية قبل نحو ١٥ قرنا من الزمن قبل أوروبا نفسها.

وليس هناك دليل على أن العرب وصلوا إلى الحبشة أكثر من تسمية بحر دار.. المؤكد أنها تسمية عربية تعني دار البحر.. أو بيت البحر.. والمقصود بالبحر هنا النهر.. وفي النهاية تعني التسمية بيت نهر النيل.. والغريب أن النيل هو النهر الوحيد الذي يطلق عليه سكانه وصف البحر.

وبحر دار عاصمة أقليم «أمهرا ريجن» الذي جاء منه الإمبراطور هيلاسي لاسي.. وحكمت عائلته البلاد سنوات طويلة حتى قضى عليه الانقلاب الشيوعي الذي قام به منجستو.. ولم يرد اعتباره إلا بعد التخلص من السلطة الحمراء التي

أطاحت به.. وقد عاد الناس يتذكرونه بالخير.. ويعلقون صوره.. ويتحدثون عن طيبته وتدينه.. فلم يعرف حكمه معتقل سياسي واحد.. بينما وصل عدد المعتقلين في سنوات منجستو إلى خمسين ألف شاب ورجل وفتاة.. بجانب ألف رأس ماشية في اليوم يستولي عليها ليطعم أنصاره.

ويعد إقليم أمهرا ريجن واحدا من ١١ إقليمًا في أثيوبيا.. لكل منها حكومة وميزانية وحصة من مقاعد البرلمان ورئيس جمهورية يأتي بالانتخاب.. وإن تميز هذا الإقليم بأن اللغة التي يتكلمها أهله هي اللغة الرسمية في البلاد.. اللغة الأمهرية.. والملفت للنظر أن حروفها تشبه حروف اللغة الهندوسية.. ويضم قاموسها مئات من الكلمات العربية.. ليس فقط بسبب انتشار الإسلام وإنما بسبب التاريخ الطويل المخجل لتجار الرقيق العرب الذين كانوا وسطاء نخاسة بين لصوص البشر في إفريقيا وشركات تصديرهم إلى أمريكا.

ويحتفظ مثقفون أثيوبيون معادون للعرب بكتابات الرحالة الغربيين عن تجارة الرق التي برع فيها النخاسون العرب.. ويحدثونك عن «عمليات الفحص المهينة التي تعرض لها أجدادهم على يد أجدادنا».. وكأن ذلك حدث منذ عدة أسابيع ولم يحدث منذ قرون طويلة.

ذات مساء اقتربت مني صحفية في التلفزيون المحلي طالبة التحدث معي بعد أن سمعت عن وجودي من صاحب الفندق.. وما إن جلست حتى أخرجت صفحات من كتب قديمة تتحدث عن عرض العبيد في أسواق بيعهم.. قالت وهي تضع أصبعها في سطور أمهرية لا أعرفها:

ــ انظر لقد كان أجدادك العرب يدهنون أجدادي الذين خطفوهم من قراهم بزيت جوز الهند ويطلون وجوههم بخطوط حمراء وبيضاء ويزينون أيديهم وأنوفهم وأقدامهم بفيض من الأساور الفضية ليشجعوا المشترين على اقتنائهم.. وما إن تتم الصفقة حتى يجردوهم منها.

ولكن....

لكن.. لم تدعني أكمل.. وأضافت:

ــ انظر.. لقد كانوا يتفقدون أسنان العبد أولا ثم كل جزء من جسمه تباعا بما في ذلك الأثداء وما إليها لدى الإناث.. في أوقح فحص يجري في مكان عام.. دون أن ينسى التجار العرب اغتصاب البنات قبل بيعهن.. متعة وتجارة.. «بيزنيس أند بلجير».

وما إن هدأت حتى عرفت منها أن ما تقوله يقوله غيرها من الصحفيين والإعلاميين الذين يكرهون مصر ويعتبرونها استعمارا جديدا ينهب ثروات بلادهم المائية وفي الوقت نفسه نتعالى عليهم.. والشعور بالتعالي عليهم أهم عندهم من المياه.

ونسيت الأجيال الجديدة أن مصر هي التي تبنت حركات التحرر ضد الاستعمار.. وساعدتها على أن تقف على قدميها.. لكنها في الوقت نفسه عندها حق.. فقد غابت مصر عنها منذ سنوات بعيدة ولدت خلالها أجيال متنوعة لم تسمع عنا شيئا طيبا.

لقد حاولت أن أخفف من شراستها بتذكيرها بتلك الأيام الوطنية.. فقالت وهي على وشك الانصراف: «ده كان زمان».

وحاولت أن أثنيها عن تجديد الجراح التاريخية وإلا ما توقفنا عن اللوم المتبادل.. وضربت لها مثل.. «إبراها» الذي كان ملكا حبشيا نصرانيا أراد مكة بسوء فحماها الله بحرق أفياله القوية بحجارة من سجيل وجعلهم كالعصف المأكول.

لقد ترتب على تلك الهجمة صراعا دينيا بين المسيحيين والمسلمين.. لولا أن أزال النجاشي ما في النفوس باستقباله وفدًا من صحابة الرسول وحماهم من بطش كفار قريش وانضم إليهم مسلما.. وكان ذلك سببا للتسامح الديني بين أبناء

الديانتين القائمة في الحبشة الآن.. وقبر النجاشي يقع على بعد ٧٠٠ كيلومتر من أديس أبابا.. ويحتاج إلى رعاية وترميم.. ويمكن أن يكون مزارا سياحيا يقرب بين الشعبين.

وكانت المسيحية هنا قد قامت وانتشرت على أنقاض اليهودية بعد أن تنصرت أميرة يهودية من البيت الملكي الذي ينتسب إلى النبي سليمان.. وحكمت هذه الأميرة شمال البلاد حاملة اسم الملكة يهوديت.. وما تبقى من اليهود عرفوا فيما بعد بيهود الفلاشا.. وقد جرى تهجيرهم إلى إسرائيل عبر السودان بتدبير من رجل الأعمال السعودي عدنان خاشقجي وبمساعدة الرئيس السوداني الأسبق جعفر نميري الذي قبض في العملية عشرين مليون دولار ليفقد بعدها سمعته قبل أن يفقد حكمه.

وقلت للفتاة الغاضبة: إن تاريخ الصراع الديني والسياسي في بلادها لو أعيد إحياؤه لغرقت البلاد من جديد في فتنة لا أحد يعلم مدى شرها.

مثلا كان الملوك النصارى الذين حكموا أثيوبيا يلقبون بالقمامصة.. واشتهروا بتقطيع نسائهم إربا إربا ورمي لحمهن للكلاب.. ويخرج الرهبان يحتفلون بذلك علنا وهم يشربون الخمر حتى الثمالة.

سألت الفتاة: هل نحاسب الكهنة اليوم على ما كانوا هم وملوكهم يفعلونه في حق نساء بلا ذنب مثلك؟

قالت: أحترم فهمك العميق لتاريخ بلادي.. ولكننا.. نعيش واقعًا مختلفًا.. الجراح فيه أعمق مما تتصورون في مصر.

في تلك اللحظة أدركت أن المشاكل المتفجرة مع دول الحوض أعقد مما نتصور.. وأكثر تشابكا مما نتصرف.. فمتاعب السياسة اختلطت بأوهام الخرافة.. وضغوط القوى الخفية خرجت في صور متاعب تاريخية.

لم أكن أتوقع وأنا في البحيرة أنني سأسمع فيما بعد.. بعد العودة منها.. كل هذا السواد الذي يخرج من أفواه وقلوب أصحاب الرأي والمؤثرين في صنع القرار.

واصل الزورق تغلغله في البحيرة حتى تجاوزنا ٢٥ كيلومترًا جنوبها.. في تلك النقطة التي تسمى «شبه جزيرة جرجس» يبدأ من ناحية الشرق ممر النيل الأزرق.. وهو ممر ضيق.. تحاصره أحراش برية.. وصخور سوداء.. عتيقة.. وعصافير ملونة.. نحيفة.. من هنا يسقط النهر الأزرق ليمشي ببطء داخل الأراضي الأثيوبية مائة كيلومتر ليواصل مسيرته إلى دولتي المصب.. السودان.. ومصر.

لكن.. طبيعة البحيرة لا تسمح بمواصلة اختراقها حتى نصل إلى الشلال الأول الذي يبدأ منه النيل الأزرق.. لو فعلنا ذلك لانزلق القارب وأكلته المياه ونحن فيه.. والحل الوحيد أمامنا أن نصل إلى الشلال الأول عن طريق البر في رحلة أخرى تحتاج تجهيزات مختلفة.

رحلة نبدأ فيها من أول السطر أو من أول قطرة في النهر.

الفصل الخامس

كدت أن ألقى حتفي عند حافة الشلال الأول
وأنا التقط صورة تذكارية!

لم يكن النيل في بدايته على صورته التي نراها الآن.. كان يتكون من ثلاثة فروع ينفصل كل منها عن الآخر.. الفرع الأول في الهضبة الاستوائية.. الفرع الثاني في الهضبة الحبشية.. والفرع الثالث في النوبة ومصر.. ولم تتصل هذه الفروع بعضها ببعض إلا منذ ألفي سنة.

ويعتقد علماء الجيولوجيا أنه قبل تكوين النيل الحالي في مصر كان النهر يعرف باسم النيل القديم.. أو النهر الليبي.. وفي تلك الأزمنة كانت دلتاه تقع بالقرب من بداية ساحل البحر المتوسط شمال الفيوم.. ثم حدثت اضطرابات أرضية في منطقة البحر الأحمر ظهرت على أثرها الجبال هناك من جهة وجبال الحجاز من جهة أخرى.. وارتفعت الأرض في شمال شرقي إفريقيا.. وأدت كل هذه التغيرات الحادة إلى تغير في نظام جريان المياه.. فانتهى النهر القديم.. وبدأ النهر الحالي في الظهور.. وحفر مجراه الذي نعرفه الآن في مصر.. وأدى سقوط الأمطار بكثرة إلى إزدياد الرواسب الطينية التي تحملها المياه خاصة وقت الفيضان مما ساعد على تكوين الدلتا وقاع الوادي.. ووقتها تحول المجتمع المصري من القنص إلى الزراعة.

أدت الزراعة إلى استقرار.. وأدى الاستقرار إلى حضارة.. وأدت الحضارة إلى دولة مركزية.. فرعونية.. تسيطر على أرزاق الناس بسيطرتها على الري.. من يخرج عن طوعها يحرم من خيرها.. من يتمرد عليها يقض عليه.. فكانت أقدم حكومة.. وأول ديكتاتورية.. وبظهور ممثلي الحاكم من مهندسي المياه ومأموري الضرائب أضيفت البيروقراطية للسلطة الفردية المزمنة.

لم تكن خدمات حفر الترع وإقامة السدود وتنظيم مياه الفيضان لوجه الله.. بل كانت الحكومة تستولي على الجزء الأكبر من المحاصيل ضرائب تدفع لمالك الأرض الوحيد قبل عصر الملكية الفردية.. تدفع للفرعون أو للوالي أو للإقطاعي.. وعاش الفلاح منكسرا.. عند خط الفقر.. أو تحته.. فلم يكن ليقوى على صلب طوله.. أو التعبير عن رأيه.. أو الاعتراض على من ظلمه.. أو الوصول إلى حقه.. فكانت أقدم أمة من العبيد وإن لم تعترف بالرق الرسمي.

ومما تكرر على البرديات: إن فرعون أعطى إحدى نسائه ضرائب محصول مديرية بأسرها لتدفع ثمن أحذيتها.. وأعطى دخل خمر منطقة أنتليس في الدلتا لدفع ثمن أثواب امرأة أخرى.

في الوقت نفسه لم يكن غالبية المصريين يجدون قوتهم.. خاصة العمال الذين شيدوا الأهرام والمعابد والقصور والقبور الملكية.. مثل العمال الذين بنوا مدينة رمسيس المأتمية أو الجنائزية الذين سجلوا أول إضراب في التاريخ ضد حكم ظالم في مصر.. وقفوا.. ثم تحركوا.. ثم ناموا على الأرض.. وهتفوا: «لم يكن عندنا من سمك وخبز وخضر منذ ثمانية عشر يوما بسبب المسالك الخبيثة هنا في هذا الجزء الغالي من المملكة».

ولا بد أن الفساد السبب.. فالكتبة والشرطة ينهبون نصف أنصبة العمال من الحبوب.. والحشرات والطيور تشاركهما فيما تبقى في الأجران.. ولو لم يدفع العمال ما يطلب منهم من رشوة قيدوهم وضربوهم وقذفوهم في النهر حتى

الغرق.. وتوثق الزوجات والأولاد أمامهم.. وهو ما يحدث الآن.. دون خلاف أو اختلاف.. فتاريخ الظلم والقهر والفساد والطوارئ حادثة يومية وهوية وطنية في مصر المحروسة.. أو المنهوبة.. أو المضروبة.

وفي آخر الدولة القديمة وقعت ثورة نادرة.. ثار الفلاحون والعمال على سادتهم.. استمرت الثورة مدة طويلة.. كسروا فيها شوكة الأغنياء والكهنة والكتبة والشرطة.. بدأ الغضب بعصيان ضد حاكم ظالم اسمه كيتي.. لم يرع المجاعة وأصر على أن يعيش هو ورجاله وبطانته في تخمة.

قال أحد كهنة هوليوبوليس: «ضاع البلد وعادت الشمس لا تضيء وغدا النيل فارغا فيمكنك أن تعبره ماشيا وتشرب ضواري الصحراء من نهر مصر وينهض أعداء في الشرق فيرون هذا البلد في مأتم وألم وكل واحد يقتل الآخر ويسود الحقد بين أهل المدن ويجبر الفم المتكلم على السكوت وينقلب كلام الآخرين إلى نار في الفؤاد».

أما ما قاله الفقراء فيستحق أن نسمعه فهو نغمة نادرة في تاريخ السلطة المركزية في مصر القديمة والحديثة: «الفقراء ينتصرون.. ولنقهر الأقوياء.. وأولئك الذين يلبسون النسج الناعمة.. ونالوا المناصب دون وجه حق.. لا نعرف ماذا يحدث في البلد.. تعوزنا الثياب والتوابل والزيوت.. وتهدم المخازن.. ويؤكل الكلأ.. ولا تلد النساء.. وتنصب الخيام مجددا.. فقد حرقت الأبواب والأعمدة والجدران».

«بيد أن الكبار جياع يبكون وما كانت الأهرام تخبئه غدا فارغا وكشف القناع عن ما خفي ولم يعد لفرعون عوائد من الحب والسمك والطيور والبرونز والزيت وجميع الأشياء الطيبة لم تعد له.. ومن كانوا يحملون الآخرين على بناء قبورهم صاروا يعملون بأيديهم.. ويُرمى الموتى في النهر.. ويضحى النيل مدينة الأموات.. وجرى خداع الآلهة في المعابد فيقدم إليها الأوز بدلا من البقر..

وزادت أعداد الملحدين الذين سخروا من الآلهة ضاحكين: «لو كنت أعرف أين الرب لقدمت إليه قرباني».. يا ليت هذا آخر العالم لكان هذا آخر الغضب والاضطراب».

وحسب الدكتور جمال حمدان فإن مصر كانت «أول أمة».. ثم أصبحت «أول دولة».. ثم أصبحت «أول إمبراطورية».. فإنها وبعد أكثر من ألفي سنة من القوة والضعف أصبحت «أطول مستعمرة».. إن «عوامل الموضع والموقع» بجانب الاستقرار حول النهر منحتها «ثقلا غير عادي من البداية» وجعلت منها نواة حضارية متميزة دفعت بها في أوقات القوة للتوسع والسيطرة وانتهت بها في أيام الضعف والانكماش للخنوع والاستسلام.

ولو قارنت اليوم بين الدولة (نحن) التي ينتهي عندها النيل والدولة التي يبدأ عندها (هم) ستجد فوارق لا تعد ولا تحصى.. عند النهاية مدنية.. وعقلانية.. وعصرية.. وعند البداية.. حياة برية.. وقبلية.. وعيشة أولية.

إن مدينة بحر دار ليست مدينة بمعنى الكلمة.. فهي أقرب لقرية كبيرة.. عريضة مثلها مثل غالبية المدن الإفريقية البعيدة عن العاصمة.. مطارها صغير.. يقع وسط أحراش.. مكون من صالة واحدة.. ودورة مياه معطلة.. وكافتيريا لا تقدم إلا الشاي والبيض المسلوق.

بها شارع رئيسي تقع على جانبيه المتاجر والمكاتب والمقاهي والفنادق الصغيرة.. بجانب ستديو تصوير يستخدم الكمبيوتر في صور كاميرات الديجتال.. ومراكز تعليم الحرف الشعبية.. فيما عدا ذلك.. نحن أمام مناطق عشوائية.. بها أسواق تعرض بضائعها الرخيصة أمام عيون المارة.. أوانٍ من البلاستيك.. أحذية من الجلود الصناعية.. شباشب.. أنسجة يدوية متواضعة.. أدوات زراعية متخلفة.. والمفاجأة التي تلفت نظرك.. إعلان كوكا كولا.. المشروب الأمريكي الشهير الذي تجده أينما ذهبت.

كنا في حاجة إلى شراء أحذية مطاطية تقترب من الركبة كالتي يستخدمها الجزارون وعمال المجاري والبناءون الذين يخوضون في «مونة» الأسمنت.. كان علينا الحصول عليها واستعمالها قبل أن تنطلق رحلتنا البرية إلى الشلال الأول للنيل الأزرق.. فالأمطار القوية أحالت الطرق والجبال التي سنمشي فيها إلى برك وأوحال.. لا ينفع معها سوى ذلك النوع من الأحذية التي تلقى عادة في القمامة بعد العودة.

استأجرنا «ميكروباس» يقوده شاب يعرف الطريق ومدرب عليه وبجانبه مساعد يمكن أن يحل محله في الطوارئ.. كان السائق بارعا.. لكن.. الطريق كانت مؤلمة.. فقد هدمت الأمطار تسويتها.. وكشفت عن صخور وحجارة صغيرة في تربتها جعلت إطارات السيارة ترتج وترتعش ـ ونحن معها ـ طوال الرحلة التي تزيد عن ثمانين كيلومترا.. وهي طريقة مبتكرة في التعذيب لم تتوصل إليها النظم البوليسية بعد.. فلم يكن أمامنا سوى تأمل ما يقابلنا من قرى فقيرة يسكنها بشر تحت خط العدم.. ولا علاقة لهم بالعالم الذي جئنا منه.. ولا يعرفون شيئا عن الصراع الدائر بين بلادنا وبلادهم على مياه تولد عندهم.. ويعانون من كثرتها.. ويعتبرونها مشكلة إذا ما زادت الأمطار عن الحد.

كان واضحا أن السكان المحليين يبنون بيوتهم من سيقان وعيدان الأشجار الرفيعة.. يربطون بعضها ببعض.. ثم يغطونها بالطين المخلوط بالقش ويسقفونها بالصاج المائل حتى لا تستقر الأمطار عليه.. لكنهم في الوقت نفسه يحرصون على تغطية نوافذهم بزجاج مرسوم عليه العذراء وهي تحمل السيد المسيح أو غيرها من صور القديسين المحليين.. فمن غير الله يعينهم على احتمال ظروف المعيشة الصعبة.

ويمارس الأهالي حياتهم في عرض الطريق.. يشربون الشاي من سيدة سمينة تبيعه وتغرفه من إناء في حجم الحلة.. يلتفون حولها وهم يجلسون القرفصاء في

جماعات صغيرة.. بجانبها جزار متواضع ترك ذبيحته هدفا للذباب الذي تراكم عليها حتى أخفاها تماما.. بجانبه باعة خضار ومانجو بري وقصب ورمان وتوابل يصعب التعرف على أنواعها.

ولغياب مشاريع الري والصرف لا تصل مياه الأنهار الوفيرة إلى أراضيهم البعيدة.. لذلك يكتفون بالزراعة المطرية.. يضعون البذور.. وينامون بالقرب منها.. وينتظرون ما تجود به السماء.. وأغلب محاصيلهم ذرة.. وفول.. وعدس.. وقصب السكر.. وكلها طبيعية خالية من الأسمدة والكيماويات.. أورجانيك.. وأحيانا يزرعون البانجو ويدخنونه بلا تبغ.. والقات منتشر.. ويمضغونه دون أن يحاسبهم أحد.. وأغلب الظن أنهم جاءوا به من اليمن عبر الصومال الغربي عندما كانت المنطقة كلها تسمى إمبراطورية سبأ القديمة.

ولو كنت قد عبرت كلمة أورجانيك دون تركيز عليها فإنني أعود لأعبر عن احترامي لها.. فقد أدى نقص المياه في مصر إلى ري حقول الخضراوات بمياه الصرف الصحي.. وهي محملة بالسموم البشرية التي تنتهي بأمراض شديدة الخطورة.. السرطان والفشل الكلوي.. مثلا.. وكان اللجوء إلى تلك المياه دليلًا لا يقبل الشك على أن مصر دخلت عصر الفقر المائي.

لقد كان نصيب الفرد من المياه في مصر ١١٣٨ مترًا مكعبًا سنويا عام ١٩٨٦ انخفض إلى ٨٦٠ مترًا مكعبًا عام ٢٠٠٣.. وسوف ينهار إلى ٥٨٢ مترًا مكعبًا عام ٢٠٢٥.. حسب تقارير مركز معلومات مجلس الوزراء.

وفي العالم كله هناك ثبات في الموارد المائية مع زيادة في مستهلكيها إلا في مصر تنقص الموارد المائية وتزيد القوى السكانية.

ويمثل النيل المورد شبه المطلق للمياه في بلادنا.. حوالي ٨٦ في المائة على الأقل.. والباقي نحو خمسة مليارات متر مكعب من مياه الصرف الزراعي.. ونحو ثلاثة مليارات من المياه الجوفية.. وهي كميات رغم أنها لا تكفينا فإن دول

المنبع تنظر فيها وترى أنها أكثر مما نستحق.. ومن ثم فمن المتوقع أن تنخفض حصتنا من النيل نحو سبعة مليارات متر مكعب عام ٢٠١٧ ليهبط نصيب النيل من مواردنا المائية إلى نحو ثمانين في المائة.. ويمكن أن يكون الانخفاض أشد لو زادت حدة المشاكل السياسية والمائية بين مصر وأثيوبيا وأوغندا بالذات.

ويبدو الموقف مثيرا للدهشة أن تعاني مصر من شح في المياه بينما كميات هائلة منها تهدر وتتبخر من حولنا هنا.. في دار البحر.. أو بيت النهر.. فجملة ما يسقط من أمطار على منابع النيل المختلفة تصل إلى ١١٦٥ مليار متر مكعب.. يتبخر ربعها.. ويهدر ربع آخر.. وما يستفاد منه أقل مما يضيع.

والرعي من حولنا ـ حسب ما رأينا طوال الطريق ـ مثل الزراعة.. مراعٍ طبيعية على منحدرات ومرتفعات تغطيها الخضرة في مشاهد ساحرة لا تجد مثلها إلا في سويسرا لو نزعت البشر الفقراء من الصورة.

تبلغ الثروة الحيوانية في أثيوبيا نحو نصف مليار رأس من الأبقار والأغنام.. ويمكن أن نستورد منها اللحم بسعر ستة جنيهات تصل إلى بيت المستهلك المصري بعشرين جنيها لو نجحنا في القضاء على المافيا التي تحرم غالبية المصريين من تناول البروتين إلا في عيد الضحية.

وأجمل ما تراه في الطريق مزارع الورد البلدي الطبيعية.. زهور عفية.. براقة.. ألوانها جذابة.. وصريحة.. ومذهلة.. وتعمر هنا ثلاثة أضعاف عمرها في بلادنا.. وهو ما شجع الهولنديين على إدارة ١٦ مزرعة لإنتاجه في أماكن متفرقة من أثيوبيا.. وجاءت إسرائيل لتقلدها بضعف هذا العدد من المزارع.. والملفت للنظر أننا نستورد هذا النوع المحبب لنا من هولندا بعشرة أضعاف سعره في أثيوبيا التي لا نفكر في شرائه منها.. فالولي الأوربي البعيد سره باتع.. مع أننا أفارقة بيننا صلة مياه.. صلة حياة.

ولا بد أن يصادفك في الطريق عشرات الرجال يمشون فرادى وجماعات.. كل

منهم يحمل عصاه.. يتوكأ عليها.. أو يفردها خلف رقبته ويمسك بيديه طرفيها.. وهو يلف جسده النحيل بملاءة تشبه البطانية لا يرتدي تحتها سوى شورت يلعب دور ملابسه الداخلية.. وغالبية الرجال الفقراء لا يملكون سوى ما عليهم من ملابس لم تعد تعرف لونها من كثرة ما سقط عليها من مطر مختلط بالطين.. فرغم محيطات المياه العذبة من حول الناس في ذلك الريف البعيد فإنهم نادرا ما يستحمون إلا صدفة عندما تسقط عليهم المياه من السماء.. حمام رغم أنوفهم.

وتبرز المرأة الأثيوبية بملامحها الدقيقة ولونها القريب من لون القهوة بالحليب.. وهي رشيقة.. ممشوقة.. كأنها مانيكان.. يصلح لها كل ما تبتكره بيوت الموضة العالمية.. ولكن العين بصيرة واليد قصيرة.

وما دام الطريق لا يزال طويلا دعني أتكلم معك أكثر عن المرأة الأثيوبية التي تشتهر ببراعتها الجنسية وفي إيمانها بأن الرجل سيدها وتاج رأسها.. وقد اقتربت في أديس أبابا من شارع الدعارة هناك.. دون أن أنزل من السيارة.

كان الشارع مثل غيره.. مطباته عريضه وعنيفة.. تكسر بطن أشد السيارات احتمالا.. وتفكك أوصالها.. وتصيب من يركبها بالانزلاق الغضروفي.. وإن كان ما في الشارع يثير الانتباه يجعل من السهل الاحتمال.

على جانبي الشارع بارات صغيرة.. رخيصة.. تحاول جاهدة جذب زبائنها بأضواء شاحبة.. ناعسة.. تقف على أبوابها فتيات نحيفات.. فقيرات.. يفتعلن الإثارة.. ويغمزن بالإشارة.. ولو وجدت الواحدة منهن رغيف خبز نظيف شريف لغطت جسدها وعادت إلى بيتها مستورة.. مجبورة.. ويطلق المصريون المقيمون في العاصمة على هذا الشارع اسم «شارع الشرفاء».. سخرية متوقعة ولو على الماشي.

وتجد منظمات التبشير الأمريكية في فتيات الليل هدفا سهلا لإقناعهن بترك الإسلام والمذهب الأرثوذكسي والانتماء إلى الكنيسة الإنجيلية.. وهي كنيسة

شاردة في عرف البابا شنودة.. وتغري تلك المنظمات الفتيات بالهجرة إلى الولايات المتحدة.. وتأخذ منهن كل سنة عشرة آلاف فتاة.. يعملن في النظافة وخدمة غرف الفنادق وغيرها، وغالبًا ما تكون القاهرة محطة ترانزيت بين أثيوبيا وأمريكا.

أما المرأة في الطبقات العليا فيندر أن تخرج للمتعة.. أو التسكع.. فلو وجدتها بالقرب منك وجدت عينيها في لون عسل النحل.. ولفت نظرك اهتمامها الزائد بزينتها.. ولا بد أنها تقضي وقتا طويلا فيها.. خاصة وهي تجدل ضفائرها الصغيرة بصورة فنية.. وهي تفضل الشعر القصير.. ويبدو شعر رجلها في كثير من الأحيان أطول من شعرها.. ويصل زهوها بنفسها إلى الحد الذي تضع فيه قطعة من خشب عطري في رأسها أثناء النوم.. يبدو لرائحته أثرها المباشر على خياشيم الرجل الجنسية.. وهو مثلها يضع نوعا من الدهان يثير الشهوة.. ولا يبطلها إلا بعد الإشباع الكامل.

ويعتبرهن أميل لودفيج مثل الباريسيات.. ينزعن حواجبهن.. ويخططن أقواسا سمراء مكانها.. ويدهن الجفون بصبغة سوداء.. ويدهن الأرجل بكل ما يصل إليهن من كريمات.

ويسهل على أكثر السياح تواضعا أن يقضي سهرة مثيرة في مطعم لبناني بعينه يقدم بجانب الفتوش والتبولة والكوبيبة والشيشة استعراضات جنسية مثيرة.. تقدمها فتيات تتلوى أجسادهن شبه العارية في مرونة مذهلة.. ويقدرن على تنفيذ وصايا الكتاب السري الشهير «رجوع الشيخ إلى صباه».

وقد تذكرت وأنا أجلس في ذلك المطعم وسط خليط من الزبائن الصينيين والكوريين والفرنسيين والسودانيين ما جرى للشاعر الفرنسي أرتورد رامبو.. جاء في القرن التاسع عشر إلى هذه المنطقة قبل أن يهبط عليه وحي الشعر الثوري ليتاجر في العبيد.. والتقى بفتاة أكاد من وصفه لها أراها أمامي على المسرح

تتلوى وتتعرى.. كشفت له عن رجولته التي لم يمارسها من قبل.. وغيرت مهنته الوضيعة.. وجعلت منه ثائرا.. غاضبا.. متمردا على السلطة الفردية المتعسفة في بلاده.. فقد راح بعدها يتبنى قضايا الطبقة العاملة والفقيرة.. لقد نبذ الثروة.. وعرف المتعة.. ومشى وراء الثورة.

لكن.. لا الثورة التي جاءت.. ولا الإمبراطورية التي ماتت.. ولا الحكومات التي ما زالت غيرت من حياة ثمانين مليون أثيوبي نرى عينة منهم أمامنا في الطريق وعلى جانبيه.. إنهم لا يجدون ما يسد جوعهم.. ولا ما يستر عوراتهم.. ولا ما يأوي عائلاتهم.. سبحان الله.. كل هذه المياه.. لم تقدر على القضاء على التخلف ولا حتى التخفيف منه.

وبالمناسبة روى لي دبلوماسي أثيوبي سابق أن أجهزة الأمن في بلاده كانت تستخدم العاهرات في اصطياد رموز المعارضة.. فقد كانوا يأكلون ويشربون ويزنون مجانًا وفي اليوم التالي يقدم القوادون للحكومة الفواتير لتدفعها.. وهي طريقة للسيطرة عرفتها السودان أيضًا يوم كان بها بيوت دعارة رسمية.

ولو كنت من الأثيوبيين لشعرت بالغيظ من مصر التي عرفت كيف تصنع من مياه تولد على أرضهم أمة مستقرة ودولة متماسكة الكيان مهما كانت مشاكلها ومتاعبها بينما هم في غياهب الظلام.. ولو كان حكامهم سبب ما هم فيه.. فإن تعليق فشلهم على شماعة المصب طريقة سهلة للهروب من المسئولية.. ودعم ذلك مثقفون وصحافيون غاضبون يصبون لعناتهم على الجميع.. ولعل ثورة الأقمار الصناعية وسهولة نقل الصورة ملونة ومجسمة نقل الأزمة من الخاصة إلى العامة.. من قصور الحكم إلى المقاهي والشوارع وبيوت الدعارة.

خفف السائق من حدة سرعته ونحن نقترب من قرية تسمى آباي.. تبدأ معالمها في الظهور بسوق صغير يفرد التجار الصغار فيها كميات هائلة من الشطة.. بجانب كميات أخرى من المانجو.. وآباي اسم نهر من ٣٠ نهرا

صغيرا تجري في أثيوبيا.. ويصب آباي في النيل الأزرق عند النقطة التي يرحل فيها ناحية الشمال.

توقفت السيارة في نهاية طريق مسدود.. عند مبنى حكومي علقت عليه لافتات عريضة بلغات مختلفة يفهم منها أننا نقترب من حرم الشلال الأول للنيل الأزرق.. وتفرض السلطات المحلية رسوما على دخول المنطقة.. فهناك سياح كثر يأتون ليعيشوا مغامرة فريدة من نوعها.. وأمام المبنى الرسمي وهو الوحيد المشيد بالطوب والأسمنت أكشاك تبيع منسوجات وطنية تتمتع بألوان فاقعة مبهرة يصعب صرف النظر عنها.. ولا يتوقف الباعة عن الإلحاح ويتنافسون على خفض الأسعار كي يجذبوا الزبائن.

وضعنا الأحذية المطاطية في سيقاننا وأقدامنا لنبدأ أهم وأخطر وأصعب جزء في الرحلة.. كانت نصيحة غالية شراء هذه الأحذية.. فالطين يرتفع عن الأرض أمتارا.. والمياه المتبقية من الأمطار راكدة في كل مكان.. والأرض التي نمشي عليها ترتفع وتنخفض بنا كما تشاء.. وتطوع شاب يجيد الإنجليزية من نفسه ليكون دليلا لنا.. ولم نمانع.. ومشينا وراءه نحو نصف كيلومتر حتى وصلنا إلى نهر آباي نفسه.. ونحن على ضفة النهر في انتظار قارب يعبر بنا إلى الضفة الأخرى لمحنا على مسافة كيلومترات سلسلة متتالية من السدود بنيت وتبنى.. يقولون إنها لتوليد الكهرباء لا لحجز المياه.. وهو أمر نؤجل مناقشته فيما بعد.. علينا أن نتجاوزه مؤقتا.. لنركب قاربا صغيرا من الحديد لنعبر النهر النحيف.

على الضفة الأخرى للنهر اقترح الدليل أن أستأجر عصا قوية أتوكأ عليها وأنا أصعد الهضبة المرتفعة المغطاة بطبقات كثيفة من الطين.. مشينا وراءه.. وكل منا يمسك بيد الآخر.. وأولنا يمسك بيده.. والحقيقة أنه لولا وجوده في مقدمتنا لكنا قد وجدنا أنفسنا في التيه.. فالطرق متشابكة.. غير ممهدة.. لا نعرف أولها من آخرها.. ولا يفك طلاسمها بالغريزة سوى أهلها.

لفت نظري وجود شبان وفتيات من الغرب جئن للفرجة والدراسة في هذه المنطقة التي صنعت مياهها حضارة مصر القديمة.

بعد الحذاء المطاطي والعصا القوية وجدت نفسي في حاجة إلى مظلة تحميني من المطر الذي يهطل فجأة ويتوقف فجاة في تلك المساحة الشاسعة المكشوفة.. منك للسماء.. وظهرت فتاة تمسك بمظلة فطلب الدليل أن أدفع لها عشرة دولارات.. ودفعت.. ومشينا في الطين والمطر أكثر من ساعة ونصف الساعة.. تلوثت فيها ملابسنا بلون أحمر.. لون الطمي الذائب في المياه التي تسافر إلينا.. وهو الطمي نفسه الذي كون الدلتا على مدار مئات السنين.. وكان حجزه خلف السد العالي أحد الآثار الجانبية لبنائه.

تقطعت أنفاسنا من طول المشي.. لكن.. ما شرح صدرنا مشهد الشلال الأول الذي يأتي من بحيرة تانا وينحدر أكثر من ثلاثة آلاف قدم دافعا المياه إلى النيل الأزرق الذي يتحرك في اتجاهنا بسرعة تصل إلى ثمانين كيلومترًا في الساعة.

بدت المياه المندفعة بقوة هائلة من الشلال وكأنها عاصفة من القطن المنتوف ناصع البياض تتجاوب مع خضرة صافية تغطي الجبال والمرتفعات من حولها.. بينما تجلس قطعان الأبقار في جماعات عائلية وكأنها تتسامر وتحل مشاكلها وتتحدث في شئونها الخاصة.

وهناك طريق طويل يستغرق نحو ساعتين يهبط تدريجيا من قمة الشلال حتى بداية النيل الأزرق.. حيث يمارس الصغار السباحة بحرية دون ثياب.. ويلتقط السياح صورا تذكارية يصعب الحصول على مثلها.

لكن.. قبل الهبوط لم يكن من الممكن أن أفوت التقاط صورة لي والشلال خلفي وكأنني جزء منه.. واقترح الدليل أن أرجع إلى الوراء قليلا.. حيث الحافة المرتفعة.. ولم أتخيل أن تلك الحافة طينية.. هشة.. يمكن بسهولة أن تنهار.. فكادت قدماي أن تنزلقا.. وأقع على ظهري في مسقط النهر لولا أن سارع الدليل

بالإمساك بي.. وفي الوقت نفسه أمسك السائق بيد الدليل فلم نسقط أنا وهو.. نجونا بمعجزة.

جلسنا نستريح من الصدمة.. ورحت غير مصدق أقرأ ما تيسر من القرآن.. وفي تلك اللحظة ظهر أمامنا كاهن لم نتعرف عليه إلا عندما وجدنا الأهالي يقبلون يديه وهو يباركهم.. كان رث الثياب.. حافي القدمين.. يعلق صليبا خشبيا في رقبته.. ولم يتردد في أن يقترب منا ويباركنا بقراءة بعض مما يحفظ من الكتاب المقدس.. ويأخذ منا ما فيه النصيب.. فكله بثمنه.. والحقيقة أننا كنا في حاجة إلى هذه البركة وسط كل ما نحن فيه من مخاوف ومخاطر خاصة وأن الغيوم تخفي الشمس.. وتحرض الحيوانات الشرسة على الخروج من مكامنها.

إن مثل هذا الكاهن مئات وألوفا يجوبون البلاد بلحاهم الطويلة وشالاتهم البيضاء فوق رؤوسهم وأحذيتهم البالية لا تخفي أصابع أقدامهم.. وتتدلى صلبانهم المعدنية على صدورهم.. وهم مثل رعاياهم يعرفون من الخرافات أكثر مما يعرفون من التعاليم المسيحية الصحيحة.. وفي الوقت نفسه يهددون بالقتل كل من يود ترجمة العهدين القديم والجديد من لغته القديمة إلى اللغة الأمهرية ـ أو الأمحرية ـ الحديثة.

وهم مثل رجال دين القرون الوسطى في أوروبا يعيشون على نفوذ شيوخ القبائل الحكام.. ويحمل كبيرهم لقب البابا.. والغريب أن هناك حرصًا على أن يختار من طبقات دنيا.. والمهم أن يشعر شعبه أنه مختار من الرب.

ولا يخفي رجال الدين هنا حكمتهم عن الشعب.. فليس لديهم منها شيء.. فأغلبهم لم يتعلم.. والشاب الفقير الذي لا يجد مهنة.. ولا يحب لكسله أن يجدها.. يتجه إلى قسيس القرية أو الناحية ليرسم على صدره علامة الصليب الثلاثية.. يصبح بعدها مثله.. رجل دين.. ولا مفر من أن يطعمه ويأويه كل من يراه ويريد منه البركة.. وغفران الذنوب.

ولو كان الناس يزدرونهم أحيانا فإنهم يخشونهم دائما.. ولا يحق للواحد منهم أن يتزوج سوى مرة واحدة.. لو ماتت امرأته يعيش محروما من النساء.. إلا في الحرام.

وقد قال لنا الكاهن الذي قابلنا وباركنا: إنه في طريقه إلى قداس في كوخ بأعلى الجبل.. فإذا ما انتهى منه.. لا يحق لرجل أن يقرب امرأته لمدة أربع وعشرين ساعة تالية.

وسألته: وهل يلتزم أحد!

قال: من لا يلتزم يدفع للكنيسة كفارة.

وغادر الكاهن المكان كما غادرناه.. عدنا من نفس الطريق الوعرة، وقد تلوثت ملابسنا كاملة بالطمي الأحمر الذي يصعب على أشد المساحيق شهرة وقوة إزالته.. وما إن عدنا إلى الطريق العام، وخلعنا الأحذية المطاطية حتى تكاثف علينا الأهالي يريدون خطفها منا.. فتدخل السائق ومنحها لشيوخ المنطقة.. على أن ندفع للدليل مائة دولار، وندفع له ضعفها.. ودفعنا، ما الذي علينا أن نفعله سوى أن ندفع؟.. وهنا تساءلت:

هل هناك قوة تمنع المياه المنحدرة في الهضبة الأثيوبية أن تصل إلينا؟ إنها قوة الطبيعة هل هناك من يقدر على فرملتها؟..

الإجابة، نقطة من أول السطر، أو من أول قطرة في النهر!

الفصل السادس

لو كنت من المهدي لجعلت مصر تدفع ثمن كل لتر ماء يجري في النيل!

مهما كانت الطبيعة شرسة فإن السيطرة على نزواتها ممكنة.. فقد نجح المصريون في تهذيب النهر.. وترويضه.. وضبط إيقاعه.. وحبس فيضانه وراء القناطر والخزانات والسدود.

لكن.. ما هو صعب.. ومعقد.. ومثير للمتاعب.. نزوات البشر السياسية.. نزوات القبض على مصير النهر من منابعه.. والتحكم فيه من بدايته.. تحقيقا لرغبة عارمة.. متجددة.. في الإضرار بمصر.. فالنيل نظريا وبالقوة مقتل كامن وممكن لها.. حسب جمل صاغها جمال حمدان.. راهب العلم الذي نبذ الدنيا من أجل «شخصية مصر».

«ولا غرابة أن تكون سياسة مصر المائية مسألة حياة أو موت.. لا أقل».. والخطأ فيها عن سوء فهم منها أو سوء نية من غيرها ينتهي بكارثة تتجاوز حدود الجفاف والخراب إلى ما بعد الدمار والفناء.

إن النيل مثل باقي الأنهار الطويلة لا يمكن أن يكون ـ مثل الأنهار المتوسطة والصغيرة ـ وحدة بشرية.. سياسية.. واحدة.. متجانسة.. فهو يمر بثلاثة أقاليم مائية عريضة.. منبع.. ومجرى.. ومصب.. أو مصدر.. وممر.. ومقر.. المنبع إقليم إرسال وتصدير.. والمجرى إقليم عبور وترانزيت.. والمصب إقليم

استقبال واستيراد.. الأول هضبتا البحيرات والحبشة.. والثاني السودان.. والثالث مصر.. وحسب قواعد التفكير العامة يرى البعض أن دولة المصب.. مصر.. لا بد بالضرورة في الموقف الأضعف جغرافيا.. في حين أن دول المنبع.. أوغندا والحبشة.. في الموقف الأقوى.

وسواء صح الفرض أو خاب.. فإن جمال حمدان يضيف.. إنه منذ وقت مبكر وسكان المنبع «المتخلفون» يحسدون سكان المصب «المتقدمين».. لكن.. عداءهم المحرض على استخدام المياه سلاحا سياسيا أتى من دخلاء على الحوض.. «بل يمكن القول إن تلوين المياه بصبغة سياسية خلق بإيعاز من استعمار خارجي دخيل.. خاصة في العصر الحديث».. ولكنها.. «بقيت في حينها مجرد خزعبلات أسطورية أو أوهام مريضة أو تهديدات طفولية خرقاء عاجزة».

مثلا: عندما تعاظم المد الثوري الوطني ضد الاستعمار الفارسي في مصر خلال القرن الرابع قبل الميلاد فكر أردشير الثالث في تحويل مجرى السند ـ الذي كانوا يعتقدون وقتها أنه رافد للنيل أو منبع له بسبب وجود التماسيح فيه ـ كي يمنع مياهه عن الوصول إلى مصر تأديبا وردعا لها.

وتواصلا مع الخرافة حدث حين وقع الغلاء العظيم في منتصف القرن الخامس الهجري أن «أشيع أن الحبشة سدت مجرى النيل فتوجه الخليفة المستنصر بالله إلى الحبشة طالبا من سادتها إطلاق سراح النيل».. وكأنه كان معتقلا في سجونها.

ومثلا: فكر البرتغاليون في خنق مصر من الجنوب فاقترحوا على الحبشة شق مجرى من منابع النيل الأزرق إلى البحر الأحمر.. تتحول المياه إليه.. وتترك مصر بعد فطامها تموت جفافا حتى تختفي من الخريطة.. لتصبح واحدة من الواحات المفقودة التي يحتفظ التاريخ بقائمة طويلة منها.. ولكن بطبيعة الحال

لم يكن لمثل هذا المشروع الجنوني من مكان إلا سلة المهملات.. أو مستشفى الأمراض العقلية.

وعندما احتلت إيطاليا الحبشة عادت المخاوف نفسها إلى سطح القلق العام في مصر.. لكن.. كل ما هددت به حكومتها الفاشية «لم يكن إلا قطعة من التلفيق والتهويش».. سرعان ما تبددت.. وتبخرت.. قبل أن تصل إلينا.

وقد احتلت إيطاليا الحبشة بسبب الحرب التي جرت على حدودها بينها وبين المهدي الأول الذي أشعل ثورة في السودان.. وقد قتل حاكم الحبشة.. أو نجاشيها فإذا بورثيه منيليك الثاني يمنح إيطاليا منطقة من الأرض مقابل حمايتها له ولبلاده.. ولكنه.. كان كمن يستجير بالرمضاء من النار من اللهب.. أو من يسلم القط مفتاح الكرار.

لكن.. الاستعمار البريطاني استغل حالة الخوف من عبث الإيطاليين بالنهر ولعب دورا مزدوجا وصفه جمال حمدان بالخبث والخسة.. فقد كان يوعز إلى الآخرين بفكرة «الادعاءات المائية أو التلويح بها أو التلميح إليها ويكاد يضع كلماتها في أفواههم».. حكامًا.. وأهالي.. وجواسيس.. وفي الوقت نفسه يقف أمام مصر في ثوب المدافع عن «حقوقها المشروعة».. «ليمن عليها بهذا الموقف وينال امتنانها لعله يكسب تمسكها بحمايته ويضمن بقاءه فيها مسيطرا عليها».

ما إن دخل الاستعمار البريطاني حوض النيل حتى سارع ـ غير مدعو ـ إلى الحصول على أكثر من تعهد وأكثر من تأكيد من إمبراطور الحبشة «بعدم التدخل أو التصرف في مياه النيل دون الرجوع إليه والاتفاق معه».. وهي أمور لم يكن لها من داع «سوى فتح عيون الحبشة على إمكانية ذلك التدخل أو التصرف بعينه الذي طلب الابتعاد عنه».. ومن «ناحية أخرى تهديد مصر بطريقة ملتوية وغير مباشرة حتى تواصل الخضوع لوجوده وسيطرته».

وفي السودان اتخذت بريطانيا من مياه النيل «أداة ضغط سياسي على مصر

ليؤلب الشقيق على الشقيق ويدمر وحدة وادي النيل التي كانت تهدد بقاءه غير المرغوب فيه».

وباعترف فالنتينو تشيرول في كتابه «المشكلة المصرية» فإن «خطط تخزين مياه النيل الأزرق والأبيض في السودان توضع تحت إشراف ـ حاكم الخرطوم ومندوب بريطانيا السامي فيها ـ اللورد كيتشنر الشخصي وكان يوجه إليها كل اهتمامه لا لأنها ستفتح إمكانيات لا حد لها للمياه لمصر أو للسودان ولكن لأنه يرى أن القضايا السياسية الضخمة لا بد أن تتشابك مع السيطرة الدائمة من السودان على مياه النيل التي عليها يتوقف صميم وجود مصر».

وعبرت تلك السياسة البريطانية المتعسفة عن نفسها بالإكثار من السدود والخزانات والمشاريع المائية في السودان.. «تلك التي توضع في يد العابثين سلاحا شديد الخطورة».. فالتمادي في هذه السياسة أضر بمصالح مصر.. فقد أدت بالضرورة إلى تخفيض مستوى النيل في السنوات التي يشح فيها الفيضان.. و«تقنينا لتلك السياسة فرضت بريطانيا على مصر توقيع اتفاقية مياه النيل سنة ١٩٢٩ التي أكلت من مصالح مصر وضغطت عليها وأعطت بريطانيا مزيدا من التحكم في مياه النيل».

وعمليا.. أقامت بريطانيا خزانين في السودان.. خزان سنار على النيل الأزرق لصالح السودان.. وخزان جبل الأولياء على النيل الأبيض لصالح مصر.. كان هدف خزان سنار الذي بني ١٩٢٥ تغذية مشروع الجزيرة لزراعة ثلث مليون فدان قطنا.. لكن بريطانيا استغلت حادث مقتل السردار ستال ستاك ذريعة لتطلق يدها في التوسع في مشروع الجزيرة إلى مليون فدان.. ثلاثة أمثال الاتفاقية.. على حساب مياه مصر.

أما خزان جبل الأولياء فقد رفضه غالبية المصريين ولم يبن إلا تحت ضغط ملح وشرس من بريطانيا على مصر.. حسب ما سجله جمال حمدان.. وأقيم

الخزان بالفعل عام ١٩٣٧ بطاقة اثنين ونصف مليار متر مكعب.. نحو نصف طاقة خزان أسوان.. لكن جسم الخزان بني أعلى من مستوى الحجز أمامه.. الأمر الذي يعني إمكانية زيادة الخزين مستقبلا.. لمصلحة مصر.. أو ضدها.. حسب الظروف السياسية.

«فمن يسيطر على خزان جبل الأولياء وتسول له نفسه أن يضر بمصر يمكنه التحكم في إيراد المياه الصيفية الآتية لمصر من النيل الأبيض».. مورد فترة التحاريق الوحيد.. مما يعني أنه «أداة ووسيلة حرمان بالقوة لمصر».

لقد نجحت السياسة البريطانية.. أو كادت.. في أن «تخلق تعارضا ظاهريا في المصالح المائية الحيوية بين مصر والسودان».. ووصلت تلك السياسة إلى حد أن أحد أعضاء مجلس العموم قال بعد الحرب العالمية الثانية: «لو أنني كنت من المهدي لجعلت مصر تدفع ثمن كل لتر من الماء يجري في النيل».

وفيما بعد.. أيضا.. وأثناء الأزمات السياسة بين مصر وبريطانيا ارتفعت أصوات عالية في مجلس العموم نفسه تطلب «منع» مياه النيل عن مصر.. والمثال الصارخ على ذلك حدث في أزمة السويس عام ١٩٥٦.

وقبل أن تجلو بريطانيا عن دول شرق إفريقيا الثلاث.. أوغندا وكينيا وتنزانيا.. عمدت إلى استثارتها للمطالبة بحصص محددة في مياه النيل.

وتكررت الدسيسة نفسها عندما بدأت مصر في تنفيذ مشروع السد العالي.. راحت بريطانيا تؤلبها على مصر بصورة مكشوفة.. وساندتها علنا الولايات المتحدة الأمريكية.. وكانت حجتهما أن الغرب سحب تمويله للمشروع بعد أن اكتشف أنه يضر بمصالح الدول الإفريقية الواقعة على حوض النيل.

وعندما ساند جمال عبد الناصر لومومبا في الكونغو هدد خصمه العميل الاستعماري تشومبي «بتحويل منابع النيل بها عن طريقها الطبيعي» دون أن يحدد جهة بعينها.

وفور أن سيطر السوفيت على نظام منجستو في أثيوبيا عادت نغمة التصرف في مياه النيل من طرف واحد تطن من جديد.

ويعتقد جمال حمدان بعد هذا العرض التاريخي والسياسي المنشط للذاكرة «أن كثيرا من هذه السياسات الاستعمارية والتهديدات الصبيانية تنبع من جهل تام بحقائق الطبوغرافيا والهيدرولوجيا ولا يغذيه إلا سوء النية».

لكنه.. رغم ذلك يرد عليها بما يسميه «مبادئ الشريعة الجغرافية الحاكمة والحاسمة».. ويفصل رده في أربع نقاط مهمة:

(١) حقوق مصر الطبيعية: فمياه النيل تتجه إلى مصر كظاهرة طبيعية.. قامت عليها في مصر حياة بشرية كاملة قبل أن تعرف المنابع العليا السكنى المستقرة.. وهي بهذا حق مكتسب شرعا.. «حق ارتفاق» تاريخي وجغرافي يعترف به القانون الدولي ولا يجادل.

«مياه مصر بصيغة أخرى ليست منحة أو منة من أحد ولا هي فضل أو فضلة.. إنها حقوق مكتسبة لا مغتصبة كما روج بعض العملاء من أصحاب الصيحات الهوجاء عن «منع» أو «بيع» مياه النيل لمصر».

(٢) إن الطبيعة من جانبها أمنت حقوق مصر المكتسبة بوسائلها وضمانتها.. بحيث يكون من المستحيل على محاولات التهديد أن تنال منها جديا.. من ناحية تعتمد مصر على مصدرين لا مصدر واحد للنيل.. كل منهما يضخ مياهه في موسم يختلف عن الآخر.

وبمزيد من التوضيح تعد هضبة البحيرات بفضل جغرافيتها موطن أكبر خزانين ممكنين على النيل جميعا وهما فيكتوريا وألبرت.. سعة الأولى ٢٠٠ مليار متر مكعب.. وسعة الثانية ١٥٥ مليار متر مكعب.. ولو أن دول الهضبة أرادت إنشاء خزانات لا تحتاج إليها فإنها تظل في حاجة إلى تهذيب كامل لمجرى النهر قبل أن تؤثر على المياه الواصلة إلى مصر.

وبالنسبة إلى هضبة الحبشة التي تعد المصدر الأساسي لمياه النيل فقد انتهت الأبحاث العلمية المستفيضة لخبراء الري إلى أن من المستحيل فزيقيا وتكنولوجيا أن يعترض عدو مهما حاول تدفق مياه الفيضان الموسمية الكاسحة المندفعة إذ يصيب نفسه بالغرق قبل أن يصيب مصر بالجفاف.. ذلك أن مياه أنهار الحبشة تكون محملة غزيرة وكثيفة من الطمي بحيث يستحيل تخزينها.. وأي سد يقام سوف ينطمي وينسد بالطمي في سنوات معدودات.. يفقد بعدها سعة التخزين.. ويحيل المياه إلى طوفان مهلك.

أما قصارى ما يمكن لأحد أن يفعل فهو أن يتعرض بالسحب لمياه الفصل المنخفض.. وهي مياه لا تعتمد عليها مصر.. فضلا عن صعوبتها محليا نظرا لشدة عمق مجاري الأنهار الحبشية في هضبتها العليا.. فهي أنهار جبلية تبدو كالخوانق الغائرة أحيانا ويتراوح عمق أوديتها العليا بين الكيلومتر والكيلومتر ونصف.. كما قد يصل اتساعها إلى بضعة كيلومترات.. إنها باختصار أنهار لا تقع على سطح الهضبة وإنما تحتها.. ومن ثم فإن أي محاولة لرفع أو سحب مياهها محكوم عليها بالفشل فنيا وهندسيا.

وهناك مشروع في بحيرة تانا لتصبح خزانا دائما يسع ما بين خمسة وعشرة مليارات متر مكعب.. كان المشروع في الأصل لحساب مصر.. ثم عاد وأصبح لحساب مصر والسودان معا.. ولو أرادت قوة معادية أن تنفذه لحساب أثيوبيا وحدها فإن هذا ليس سهلا من الناحية العملية.

(٣) وخصصت الطبيعة وأمنت حقوق مصر من تلقاء نفسها.. وألغت الصراع على المياه.. وتجاوزت التعارض بين الأطراف المختلفة.. فقد وازنت وعوضت بين المطالب والحاجات الحقيقية للمياه لكل قطاع بالنهر.. بحيث خلقت في النهاية تقسيم عمل جغرافي رشيد ومتناسق بين قطاعاته المختلفة.. فهناك سلسلة من الانحدارات المناخية التصاعدية أو التنازلية عبر قطاعات الحوض.. تخلق فيما بينها سلسلة من العلاقات الطردية أو العكسية بين المطر الطبيعي والري الصناعي.. بين إمكانيات المياه والحاجة إليها.

إن المطر يقل كلما اتجهنا شمالا ويزداد كلما اتجهنا جنوبا.. بالتالي اعتماد الزراعة على الري يزيد كلما اتجهنا شمالا حتى يصل إلى أقصاه في مصر.. ويقل بشدة جنوبا حتى يصل إلى نقطة الصفر في جنوب السودان والبحيرات والحبشة.. الزراعة هناك مطرية تماما.

من هنا فإن الزراعة في دول المنابع تجد كفايتها في مياه الأمطار دون حاجة إلى مياة الري.. بل إن مشكلتها أحيانا في إفراط المطر.. كما أن دول المنبع تعتمد على الرعي أكثر من الزراعة على عكس دولة المصب.

إن السواد الأعظم من مجتمعات دول المنابع لا علاقة لها طبيعية أو وظيفية بالنهر تقريبا.. إنها ليست مجتمعات نيلية بمعنى الكلمة.. أوغندا مجتمع بحيرات.. الحبشة مجتمع هضبي.. على عكس مصر مجتمع نهري.. الواقع أن النهر لا يمس حياة الناس في منابعه.. خاصة في الحبشة.. سواء في الري أو الشرب أو الصيد أو الملاحة.. ولو لم يوجد النيل وروافده هناك ما كان قد تغير شيء في نمط الحياة فيها.. وما شعر سكانها بأي خسارة.. على عكس المصب.. لو لم يكن النيل لما كان الأمر مجرد اختلاف نمط الحياة وإنما اختفاء الحياة نفسها أصلا.

على أن لنطاق المنابع ميزة حاسمة يتفوق فيها خارج كل مقارنة وهي الكهرباء.. بحكم تركيبة الجغرافيا المجسدة في هضاب شاهقة غزيرة المطر تضم بحيرات شاسعة ومساقط مياه حادة فإن توليد الكهرباء يصبح الشكل الأمثل وربما الأوحد لاستغلال مياه النهر.. مثلما تحقق فعلا في خزان أوين في أوغندا.. وكما يمكن أن يتحقق في مشروع بحيرة تانا.

وهكذا تتكامل لنا في المحصلة الصافية خطة تقسيم العمل الجغرافي الرشيد المتناسق كما رتبته الطبيعة بين قطاعات الحوض المختلفة دون تعارض أو تحيز: المطر للمنابع والري للمصب.. الزراعة المطرية للمنابع وزراعة الري

للمصب.. الكهرباء للمنابع والمياه للمصب.. بعبارة أخرى.. الكهرباء لأوغندا وأثيوبيا والماء لمصر.. وبعض منه للسودان.

(٤) وأخيرا ففي حوض النيل من الموارد المائية الصيفية ما يكفي حاجات كل سكانه في المنبع والمصب.. ريا ومطرا.. اليوم وغدا.. فقط إذا ما أحسن استخدامها واكتمل استغلالها.. وقبل السد العالي كان الجزء الأكبر من موارد الحوض يضيع ما بين البحر والبخر.. ما بين التسرب والتشرب.. فإذا كان السد العالي قد أوقف الفاقد إلى البحر فمازال الفاقد إلى السماء والأرض والنبات كما كان.

وينتهي جمال حمدان قائلا: «ليس هناك تعارض كامن أو تضارب حقيقي في المصالح المائية بين أجزاء الحوض ودوله.. ولو كان ذلك قد وقع أو حدث فهو ظاهري ومرحلي.. بفعل الاستعمار ومضارباته.. والملاحظ أن مشكلات المياه قد خفت أو خفتت في الحوض بعد تصفية الاستعمار وفي ظل التحرير.. ومعنى ذلك كله في النهاية أن السياسة المائية في الحوض جميعا وكما أرستها ورسمتها خطة الطبيعة نفسها إنما هي التعاون لا الصراع والتكامل لا التناقض.. وعلى هذا الأساس ينبغي أن يجري التنسيق بين دول الحوض».

نشر جمال حمدان نظريته العلمية الدقيقة في الجزء الثاني من كتابه «شخصية مصر».. فالطبيعة قادرة وقاهرة وفارضة إرادتها على الجميع بحكم قوة اندفاع المياه من الهضاب المرتفعة من المنبع إلى المصب مرورا بالمجرى بحيث لا يستطيع أحد إيقافها وإلا غرق.. وهي نفس النظرية التي تؤمن بها الحكومة المصرية وتجعلها مطمئنة إلى أن النيل سيأتي عليها، سيأتي رغم أنف الجميع.. هذا صحيح.. ولكن.. صحيح أيضا أن هناك تغيرات حدثت على أرض الواقع تهز هذه النظرية.. وتقلل من صرامتها.. وتشير إلى أن حقوق مصر المكتسبة يمكن أن تتعرض بكميات قليلة أو كثيرة للاغتصاب.

لقد عدت من رحلتي إلى منابع النيل الأزرق عند الشلال الأول.. حيث قرية دخان النهر.. وهو اسم اكتسبته القرية لقربها من المرتفع الذي تهبط منه المياه بقوة تجعلها تشبه الدخان.. ومن تلك النقطة يبدأ النيل الأزرق رحلته داخل أثيوبيا بطول ٨٠٠ كيلومتر.. على ارتفاع ٤٠٠٠ قدم.. وفي أماكن أخرى مثل منطقة تسمى «يز إيزات» يجري على ارتفاع ٤٦٧٠ قدما.. ويخترق السودان بطول ٤٨٠ كيلومترا حتى يصل الخرطوم.. حيث ينتظره النيل الأبيض.. ليستريح على كتفه قبل أن يعاود السير من جديد مسافة ٣٠٠٠ كيلومتر حتى يصب في البحر المتوسط.

إن قطرة الماء التي نهدر مليارات منها في ثوان تصل إلينا بعد رحلة شاقة امتدت إلى ٤٢٨٠ كيلومترا.. وهو أمر لا يتخيله أغلبنا.. أغلبنا يتصور أن النيل ينبع من الحنفية التي يفتحها في المطبخ أو الحمام أو الحديقة.. أو ينبع من الخرطوم الذي يغسل به سيارته في واحدة من أكبر عمليات السفة الجماعية المشتركة.

لقد عرفت قيمة تلك القطرة بعد أن كدت أكثر من مرة أن أموت وأنا أبحث عن مصدرها.. مرة في الجبل القريب من الشلال الأول.. ومرة عندما تعطل محرك الطائرة وهي في الجو ونحن في رحلة العودة من بحر دار إلى أديس أبابا.. بسبب دخول طائر أعمى بين ريش محركاتها.. ومن حسن الحظ أن الطائرة كانت قد أقلعت قبل دقائق من المطار ويسهل عليها العودة إليه وإنقاذ نفسها من السقوط وإنقاذنا من الموت غرقا في بحيرة تانا التي كانت تحتنا مباشرة.

لكن قبل رحلة العودة إلى أديس أبابا قضيت ليلتي في فندق كرمنتو المطل على بحيرة تانا.. إن البحيرة الساحرة في الصباح.. موحشة وصامتة ومخيفة في الليل.. وليس في الغرفة المطلة عليها ما يسلي سوى القراءة.. فالتلفزيون لا يأتي إلا بالقنوات المحلية الناطقة بالأمهرية.. والقناة الوحيدة التي يمكن فهمها.. قناة ديسكفري.. وكانت تعرض برنامجا عن دبي.

رحت أقرأ الملاحظات التي دونتها في مذكراتي بعد أن وجدت أمامي في شيراتون العاصمة مجموعة من الصحفيين الأثيوبيين الغاضبين الذي جاءوا لمناقشتي أو بدقة أكثر أرادوا أن أسمعهم ليكون الحوار من طرف واحد.. طرفهم هم.

قالوا:

(١) ما الذي نأخذه من مصر مقابل ما نرسله إليها من مياه جعلت منها دولة إقليمية مؤثرة في محيطها بينما أثيوبيا بلادهم تعاني من مشكلات لا أول لها ولا آخر.

(٢) إن مصر بعد جمال عبد الناصر أهملت إفريقيا تماما.. وتنكرت لجذورها وهويتها السمراء.. وتعلقت بأوروبا الشقراء.. فلا طالت ودها.. ولا تذكرت أصلها.. يكفي أن مبنى شركة النصر للاستيراد والتصدير المشيد في أهم مكان بالعاصمة قد تحول إلى خرابة لا أحد يفكر في تشغيله وزيادة التبادل التجاري بين البلدين.

(٣) إن مصر ساندت الصومال على حساب أثيوبيا في قضية الأوجادين وأرسلت سلاحا ودعما للمتمردين هنا وهو ما عطل تنمية بلادهم طويلا.. وكأننا السبب فيما يعانون منه من تخلف.

(٤) إن محاولة اغتيال الرئيس حسني مبارك عقدت العلاقات السياسية المتوترة بين البلدين أصلا.

(٥) إن هناك من هو مستعد لشراء المياه التي تولد في أثيوبيا وهي غير مسئولة عن نقلها أو استخدامها.

(٦) إن هناك أيضا من هو مستعد لدفع ثمن استغلال المياه في أثيوبيا بزراعة

ملايين الهكتارات في إنتاج الغذاء وتصديره وهو ما سيسحب مليارات من أمتار المياه المكعبة كانت ستأخذ طريقها بحكم «شريعة الطبيعة» إلى مصر.

وعند هذه النقطة تبدأ نظرية جمال حمدان المستقرة في الاهتزاز.. والارتجاج.. لا نقول السقوط.. والتهاوي.. فسلاح المياه عاد ليشهر في وجه مصر من جديد.. وسياسات الاستعمار الجديد استيقظت من سباتها مرة أخرى..

نقطة من أول السطر.. أو من أول قطرة في النهر.

الفصل السابع

عفوا جمال حمدان
شريعة الجغرافيا وحدها.. لا تكفي!

من بين الكتب المهداة لي كتاب الدكتور جمال حمدان «شخصية مصر» الذي أفنى عمره فيه.. إهداء أعتبره شهادة تقدير فخرية منه.. توجني بها في يناير ١٩٨٤.. «للكاتب الصحفي الممتاز الأستاذ الفاضل عادل حمودة.. تحية تقدير. وشكرا».

كان الرجل قد اختفى بعيدا عن الدنيا ليؤلف بحرية.. ولم يكن ليتواصل مع أحد إلا عبر خطابات ترسل إليه تحت عقب الباب.. نتلقى الردود عليها من ناشر كتبه يوسف عبد الرحمن.. الوحيد الذي كان يستقبله.. ويأنس إليه.. وجها لوجه.. وشاء القدر أن ينهي حياته بطريقة درامية لا تقل إثارة عن ما اختاره بنفسه.. انفجار أنبوبة البوتاجاز.. وهو ما جعل البعض يؤمن بأن الحادث كان مدبرا.. ورشحت اجتهادات مختلفة المخابرات الإسرائيلية، واتهمت عائلته الموساد باغتياله.

لم تتقدم أسرته ببلاغ إلى النيابة العامة تتهم أحدًا بتدبير الحادث وقتله وإن كانت هناك دلائل يرى مثقفون كثر أنها تكفي لوقوع جريمة سياسية مدبرة.. وحسب ما نشر الأديب يوسف القعيد منها أن الجزء السياسي من كتابه «شخصية مصر» نزع منه ١٠٠ صفحة وهو في المطبعة وكان عن معاهدة الصلح بين مصر

وإسرائيل.. وطبع الجزء ناقصا بعد اختفائه.. ومنها أنه في سنواته الأخيرة كان يجهز لثلاثة كتب لم يكن من السهل على ما يبدو تقبلها.. كتاب عن أصول اليهود وجذورهم.. وكتاب عن الإسلام السياسي.. وكتاب عن سيكولوجية الحشاش.. وقد ضاعت الكتب الثلاثة أو اختفت أو أخفيت.. فهل كان على الذين أخفوها أن يخفوه معها؟

ولا بد أن خطاباتي إليه قد احترقت هي الأخرى.. ولم تكن خطابات شخصية.. وإنما هي ملاحظات على كتابه «شخصية مصر» الذي قرأته بدقة مذهلة وعرضته على مدى شهور طويلة في مجلة «الأهرام الاقتصادي».. وكان الإهداء الذي كتبه لي على أحد أجزاء الكتاب نوعا من الشكر على ما فعلت.

كنت أرى أن نظريته عن عبقرية المكان الذي تنفرد به مصر ارتبطت بصعوبة المواصلات وضعف الاتصالات.. فكان لا بد من القوى الإمبريالية العظمى أن تسيطر على مصر كي تضمن محطة ترانزيت وسطى بين بلادها في أوروبا ومستعمراتها البعيدة في الهند وأستراليا وغيرها.. وكأن مصر لم يزد دورها عن دور «الريست هاوس» في منتصف طريق طويل شاق.. وبثورة الاتصالات والمواصلات لم يعد لهذا الدور ما يبرره.. ووعدني العالم المتواضع أن يبحث فيما قلت ويعيد النظر فيما يؤمن لو وجدني على صواب.

ولا بد أنني تذكرته وأنا في طريقي إلى رحلة منابع النيل.. لم يكن من الممكن أن أفكر في مثل هذه الرحلة دون أن أتزود بما كتب عنها.. ورغم أنني لم أشأ أن أقتبس منه الكثير لسبب بسيط أن كتابه في متناول الجميع إلا أنني توقفت عند نظريته في شريعة الجغرافية الطبيعية التي تجعل من وصول النيل إلينا أمرا مفروغا منه مهما حيكت المؤامرات.

والحقيقة أن نظريته ظلت معتمدة وسائدة حتى وقعت أزمة الغذاء في العالم.. ونظرت الدول خارج حدودها إلى مناطق ولو بعيدة تزرعها وتأتي بمحاصيلها

إليها مهما كلفها الأمر من مال.. فالبديل هو المجاعة.. ومع ارتفاع أسعار الغذاء لم يعد مكلفا أن تزرع الدول التي تملك مالا في أراضي دول أخرى ولو بعيدة وتستورد المحاصيل والثمار منها.. التكلفة العالية للطعام جعلت من هذه الطريقة طريقة اقتصادية مناسبة.

لقد ارتفعت أسعار الغذاء إلى الحد الذي جعل زراعته في مناطق بعيدة مثل أثيوبيا على المياه الفائضة من حاجتها أمرًا مقبولا تتنافس عليه دول كثيرة.. لا يهمها أن تؤثر بما تفعل على حصة مصر من المياه.. خاصة مياه الأنهار المحلية قبل أن تنحدر من هضبتها العليا إلى مجرى النيل الأزرق.. أهم منبع نيلي لمصر.. ومقابل ذلك تأخذ أثيوبيا إيجارا لهكتار الأرض بما يلزمه من مياه.. دولار واحد في السنة.. وتعتبر قيمة الإيجار هدية من السماء.. لا تكلفها شيئا.

كنت أتمنى أن يكون جمال حمدان على قيد الحياة لأناقشه فيما رأيت بعيني وبما قرأته بنفسي وبما سمعته بأذني من ملاحظات جديدة تهدد نظريته في وصول النيل إلينا بقوة الطبيعة.. فقد بدأ عصر استهلاك المياه على الأرض هناك.. قبل أن تنطلق مسافرة إلينا.. عشرات المئات من الكيلومترات.. حجز قبل أن تنطلق إلى المنبع.. وتسقط في المجرى.. وتصل إلى المصب.. صحيح أنها ليست كل الكميات.. لكن صحيح أيضا أنها كميات تؤثر علينا في وقت دخلنا فيه عصر الفقر المائي.

لقد سيطر الغرب على النفط وتحكم فيه وجاء الدور على المياه ليفعل الشيء نفسه بها.. فبدأت الولايات المتحدة الشمشة العلمية بدراسات أكاديمية واقعية.. وراحت إسرائيل تفرض نفسها بوسائل برعت فيها.. بيع الأسلحة.. علاج المسئولين في مستشفياتها ومراكزها الطبية.. وتقديم الخبرات في كافة المجالات بمافي ذلك الأمن والمخابرات والتدريب العسكري وحروب العصابات التي تهواها دول إفريقيا في المنابع وفي غيرها.. بل إن إسرائيل التي تملك أول سوبر

ماركت في أديس أبابا لم تتردد في علاج فتيات الليل من الأمراض السرية.. بمنح قدمها يهود أثرياء في أوروبا بدعوى الرحمة قبل الأخلاق الحميدة.

تحت يدي الآن وثيقة أمريكية مكونة من ٢٤ صفحة صادرة عن «المعهد الدولي لبحوث السياسات الغذائية».. أعدها ثلاثة خبراء وباحثين في جامعة كلورادو.. هم بول بلوك.. كينث ستراتزبك.. وبلاجي راجيا جوبلان.. بعنوان: «الإدارة المتكاملة لحوض النيل الأزرق في أثيوبيا».. النهر الذي تأتي غالبية المياه منه إلينا.

وقد دخلت الولايات المتحدة الساحة الإفريقية لتواجه تغلغل النفوذ الصيني المتزايد في القارة السمراء.. فقد استأجرت الصين مساحات هائلة في دول إفريقية مختلفة.. وقدمت معونات فنية في شكل بناء كبارٍ أو تمهيد طرق.. وزرعت مئات من الأفدنة بالمياه اللازمة لها مقابل جعل سنوي لا يزيد في حالتها عن نصف دولار.. وجعلت الأسواق تطفح ببضائع أرخص من التي تبيعها في أماكن أخرى.

وقد تابعت في بكين لقاء إفريقيا بالصين الذي حضره الرئيس مبارك وشارك فيه غالبية حكام القارة السمراء بكثافة لا تشهدها لقاءات أخرى مع مناطق مختلفة.. فقد شعروا أن المستقبل القريب والبعيد مع الصين.

ولخطورة الوثيقة الأمريكية سنلخصها بدقة وأمانة تتناسب مع خوفنا على مستقبل الحياة في بلادنا:

(١) تعيش أثيوبيا في حالة حرجة بسبب الزيادة الكبيرة في السكان الذين وصل عددهم الآن إلى أكثر من ثمانين مليون نسمة مع حالة من الركود وضعف الإنتاج الزراعي ونقص حاد في الطاقة.. وفي الوقت نفسه تتوسع دول النيل الشمالية العلوية (السودان ومصر بالذات) في استثمار المياه في الزراعة والطاقة.. لكن.. المشروعات التي تفكر فيها تحتاج إلى مياه أكثر من التي تصل إليها.

(٢) إن غالبية دول حوض النيل لا تعرف كيف تستفيد من المياه التي في حوزتها.. فمعظم مشاريعها عشوائية.. تحتاج إلى خبرة اقتصادية رفيعة وموهبة عالية لتتعامل ببراعة مع كل قطرة مياه وكأنها حبة ذهب.. كل شيء محسوب ومحكوم بين تلك الدول في اتفاقيات دولية ملزمة تسعى دول المنبع لفسخها حتى تفر من التزاماتها بحصة سنوية ثابتة من المياه لدول المصب (وعلى رأسها مصر).

(٣) نحو ٨٣ ٪ من سكان أثيوبيا يعيشون بدون كهرباء و٩٤ ٪ منهم يعتمدون على حرق الأخشاب للحصول على ما يحتاجونه من وقود رغم وجود مصادر مياه غزيرة هناك قادرة على توليد الطاقة من اندفاع المياه فوق هضابها ومرتفعاتها الشاهقة المناسبة.

(٤) لا تزرع أثيوبيا إلا خمسة في المائة فقط من أراضيها الخصبة.. وتضع حكومتها برامج لتنمية الطاقة الكهربائية من مساقط المياه.. وتطوير أنظمة الري في محاولة منها لخفض نسب الفقر.. وتكوين بيئة مناسبة للتغيير الاجتماعي.. ولكن.. مشكلتها الأساسية هي التطبيق السليم لخططها مع الحاجة الماسة للتمويل (وهو ما يجبرها على التعامل مع دول طامعة لا تراعي الاتفاقيات الدولية المنظمة للمياه في دول الحوض مثل الصين وإيران).

ومن جانبها اقترحت الولايات المتحدة بناء أربعة سدود عملاقة على طول النيل الأزرق في أثيوبيا تمولها وتنفذها وكالة استصلاح الأراضي الأمريكية.. تكون نموذجا مهما لتوليد طاقة كهربائية ثابتة وتوفر كميات مناسبة لري ملايين من الأفدنة (تستفيد منها الولايات المتحدة في اختراق إفريقيا وتقديم نموذج بديل للصين في التعامل معها).

(٥) فشلت المشروعات الأخرى (مثل السدود التي بنتها الصين) في التوفيق بين تخزين المياه لتوليد الطاقة وبين المحافظة على تدفق المياه إلى الدول الأخرى مما أثار قلق هذه الدول التي اعتبرت بناء السدود ليس أمرا عادلا بالنسبة لها.

(٦) ينبع النيل من بحيرة تانا في الأراضي الأثيوبية المرتفعة وينضم إلى العديد من الأنهار الصغيرة المساندة للبحيرة وهو ما يؤدي إلى جفاف الأراضي الأثيوبية الوسطى.. وتتجمع هذه الأنهار في مجرى واحد رئيسي هو النيل الأزرق الذي يمتد مئات الكيلومترات في أثيوبيا والسودان قبل أن يلتقي بالنيل الأبيض ويتوحدان معا ثم يأخذان طريقهما إلى مصر.. ولو كانت الأمطار الصيفية التي تبلغ ذروتها في شهر أغسطس هي مصدر المياه فإن قرب النيل من خط الاستواء يضاعف من تبخرها ويتسبب في فقدان عشرات المليارات منها.. بجانب إهدار مليارات أخرى بسبب تخلف طرق الري في جميع دول الحوض.

(٧) تستخدم أثيوبيا والسودان مياه النيل في الري ولكن مصر تستخدمها في توليد الكهرباء والصناعة وتطوير المدن الجديدة بجانب الزراعة.. ويمد النيل الأزرق (الأثيوبي) مصر بنحو ٨٥٪ من المياه التي تخزنها في بحيرة ناصر جنوبي أسوان.. إلا أن أثيوبيا لديها حصة ضئيلة وصلاحيات محدودة في استخدامات المياه التي تولد على أرضها.. وطبقا لاتفاقية ١٩٥٩ فإن مصر تحصل على أكثر من ٥٥ مليار متر مكعب من تلك المياه سنويا ويحصل السودان على أكثر من ١٨ مليار متر مكعب منها دون تحديد للكميات التي على أثيوبيا استخدامها وهو ما يثير جدلا واسعا منذ سنوات.. فدول المنبع راحت ـ بعد حصولها على استقلالها السياسي ـ تضغط على دول المصب كي تلغي تلك الاتفاقية من أجل حصولها على حصص أكبر.. وفي عام ١٩٩٨ أنشئت منظمة دول حوض النيل لوضع حلول وبدائل ترضي جميع الأطراف المشتركة في النهر.

(٨) في عام ١٩٦٤ قامت وكالة الري الأمريكية بدعوة من الحكومة الأثيوبية بعمل تحقيق شامل ودقيق عن استخدامات دول النهر بمناسبة بناء السد العالي في مصر (١٩٦٠ ـ ١٩٧٠) وانتهت الدراسة إلى ضرورة قيام أثيوبيا ببناء شبكة من السدود على منابع النيل الأزرق لتوليد الطاقة وزراعة مساحات شاسعة من المحاصيل التجارية كثيفة المياه.. مثل الأرز وقصب السكر.. كي تحصل من

المنبع على كميات كبيرة من المياه تذهب إلى مصر (لكن ضعف إمكانيات إثيوبيا المالية وعلاقة حاكمها هيلاسي لاسي في ذلك الوقت مع جمال عبد الناصر جمد تلك المشروعات ولكن ذلك تغير تماما فيما بعد).

(٩) واقترحت الدراسة بناء سد كالادوبي (بطول ٩٨٠ مترا وارتفاع ٢٥٢ مترا وطاقة تخزين تزيد على ٣٢ مليار متر مكعب من المياه) على بعد ٣٨٥ كيلومترًا جنوبي بحيرة تانا لإنعاش أكثر من ٦٠ ألف كيلومتر مربع من الأراضي الأثيوبية.. وبناء سد مابيل (بطول ٨٥٦ مترا وارتفاع ١٧١ مترا وطاقة تخزين تزيد على ١٣ مليار متر مكعب من المياه) على بعد ١٤٥ كيلومترا من سد كارادوبي.. وبناء سدين آخرين هما سد ماندايه (بطول ١١٣٤ مترا وارتفاع ١٦٤ مترا وطاقة تخزين تزيد على ١٥ مليار متر مكعب من المياه) ويقع على بعد ١٧٥ كيلومترا من بداية الحدود السودانية.. والسد الأخير هو سد بوردا.. بطول ١٢٠٠ متر وارتفاع ٨٤ مترا وطاقة تخزينة تزيد عن ١١ مليار متر مكعب من المياه ويقع على بعد ٢١ كيلومترا من تلك الحدود.

(١٠) وبناء هذه السدود على التوالي سيوفر أكثر من ٧٣ مليار متر مكعب من المياه بما يعادل مرة ونصف ما تخزنه كل دول الحوض طوال العام كما ستوفر نحو ٥٥٧٠ ميجاوات من الطاقة الكهربائية.. أكثر من مرتين ونصف ما ينتجه السد العالي.. وهو ما سيساعد أثيوبيا على تجاوز فقرها في الكهرباء.. فإنتاجها في الطاقة لا يتعدى ٥٢٩ ميجاوات حاليا.

(١١) وفيما بعد وضعت خطة لتنفيذ تلك السدود بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٢٨ لتحتجز المياه الخارجة من أثيوبيا مبكرة.. وهو ما جعل وزارة الري هناك تقترح توسيع رقعة الأراضي الزراعية على ضفاف النيل الأزرق بمساحة ٢٥٠ ألف هكتار.. ما يعادل ٣٥ ٪ من الأراضي القابلة للزراعة.

(١٢) ويتكلف سد كارادوبي ٢٢١٣ مليون دولار.. ويتكلف سد مابيل

١٧٩٢ مليون دولار.. ويتكلف سد مانديا ٢١١٤ مليون دولار.. ويتكلف سد بوردا ١٩٨٥ مليون دولار.. ولا تتضمن هذه التكلفة وسائل الحماية والأمان لمواقع البناء.. ومن المتوقع زيادة التكلفة ما بين ٢٥ ٪ و٤٠ ٪ كما أن استيراد العمالة المحترفة للبناء قد يؤدي إلى حدوث تضخم مالي محلي.. ولكن.. ذلك سيزول بمجرد الانتهاء من البناء.

وواضح من هذا العرض المفرط في الأمانة والدقة والموضوعية أن الولايات المتحدة دخلت على الخط بتحريض أثيوبيا على بناء شبكة من السدود تحجز كميات هائلة من المياه للزراعة ولتوليد الطاقة متجاهلة في ذلك حقوق مصر في الإطلاع على المشروعات التي تقام في أعالي النيل.. حسب ما تنص عليه الاتفاقيات المختلفة التي أقرت بها منظمة الوحدة الإفريقية التي اختارت أديس أبابا مقرا لها.

وتدعي أثيوبيا أن السدود التي تبنيها على النيل الأزرق لها وظيفة واحدة.. توليد الطاقة الكهربائية.. ولا تؤثر على حقوق مصر المائية.. والملفت للنظر أن المسئولين في بلادنا يوافقونها الرأي.. ويروجون له.

ولا يمكن أن يكون ذلك صحيحا.. فحجز ٧٣ مليار متر مكعب من المياه خلف السدود القائمة والسدود القادمة لا بد وأن يؤثر على ما يسقط في النهر من أمطار.. وما يصل لمصر من مياه.

ولا شك أن اهتمام الولايات المتحدة بتنمية أثيوبيا ومساعدتها ليس لوجه الله وإنما محاولة منها للتواجد في منطقة حوض النيل وإيقاف المد الصيني والإيراني هناك ولو كان ذلك على حسابنا.

وهناك وثيقة أخرى تكشف عن الدول والشركات التي ستحصل على كميات هائلة من المياه قبل أن يندفع إلى النيل الأزرق.. إن الاتفاقيات الدولية تؤكد أن لا أحد من حقه خارج دول الحوض الاستفادة من مياه النيل.. لكن.. ذلك على

ما يبدو لم يعد مجالا للاحترام.. فسوف يجري الاستيلاء على المياه بتأجير الأراضي وزراعتها في أثيوبيا ثم تصدير المحاصيل خارجها.

في أثيوبيا:

(١) انتزعت شركة كارتوري الهندية ٣٠٠ ألف هكتار من الأراضي التي استأجرتها في منطقة جامبالا لمدة ٨٤ سنة لزراعتها وتصدير محاصيلها دون مقابل سوى ١٥ ٪ من أرباح الشركة السنوية التي لا تزيد على ١٠٠ مليون دولار.. وهناك شركة هندية أخرى تسمى أماني بيوتك تستأجر ١٠٠ ألف هكتار تزرعها بمحاصيل الوقود الحيوي.

وتتولى الاستثمارات الزراعية في الهند لجنة تسمى أوروميا يعمل من خلالها ٢٠ شركة محلية وتستعين أحيانا بشركات أجنبية لمنافسة إسرائيل وهولندا في زراعة وتصدير الزهور من أثيوبيا.

ووقعت الشركة الهندية براجي التي تنتج الوقود العضوي مذكرة تفاهم مع مجموعة إيردن للطاقة في أثيوبيا (يوم ٤ ديسمبر ٢٠٠٩) لإنتاج الوقود الحيوي من الغذاء منتهي الصلاحية.. وتهدف الشركتان إلى زراعة ١٥ ألف هكتار من الأراضي الواقعة في مكان يسمى ميتيكال بمنطقة بينشانجول جيميز.

(٢) استأجرت شركة فلورا أيكو باور الألمانية التي تعمل في الوقود الزراعي ١٣ ألف هكتار.

(٣) استأجرت شركة باكستانية مصنعا للسكر في أثيوبيا على أن تزرع قصب السكر في ٧٠٠ ألف هكتار.. وبدأت الشركة بزراعة ٢٨ ألف هكتار.. بقرض يصل إلى ٨٠٠ مليون دولار.. حصلت عليه من البنك التجاري الأثيوبي.. وكان مالك الشركة عبد الحميد باردسي قد حصل على رخصة العمل في نوفمبر ٢٠٠٦ على أن يستثمر أكثر من ٧ مليارات دولار في مصانع السكر وزراعة

باقي المساحة المخصصة له.. نحو ٧٠٠ ألف هكتار.. ويقع المشروع المميز في منطقة بحيرة تانا.. ويشجع ملايين الفلاحين على الزراعة والتصدير.. والمعروف أن الحكومة الأثيوبية لا تحاسب على المياه التي تستهلكها مزارع القصب والسمسم والزهور.

(٤) أعلنت شركة جنات السعودية عن استثمار ٤٠٠ مليون دولار في إنتاج الغذاء في أثيوبيا والسودان.. وتعتقد أنها يمكن أن تستأجر نصف مليون هكتار في أثيوبيا وحدها.

وتستأجر شركة سعودية أخرى تسمى هايل للتنمية الزراعية نحو عشرة آلاف هكتار لزراعة القمح والخضراوات وتصديرها إلى بلادها.

وتضع الحكومة السعودية الملياردير السعودي العمودي الذي يحتل المرتبة رقم ٩٧ بين أغنياء العالم وتبلغ ثروته ٩ مليارات دولار في واجهتها.. وتضع تحت تصرفه نحو ١٥ مليار دولار استثمارات هناك تضخها في زراعة ٥ ملايين هكتار.. والعمودي شخصية مؤثرة في أديس أبابا فقد بنى العديد من المشروعات هناك على رأسها فندق شيراتون.

والعمودي شخصية قوية ومؤثرة في أثيوبيا ليس فقط لثروته وإنما لنسبه، فأمه حبشية وهو ما أعطاه ثقلًا إضافيًا هناك.

وبواسطة شركة العمودي «سعودي ستار» بدأت زراعة ١٠ آلاف هكتار في منطقة جامبالا على أن تروى من مياه سد الويرو.. بجانب ٣٥ ألف هكتار في منطقة أعالي بليز.. حيث تملك شركة برازيلية أكثر من ١٧ ألف هكتار هناك.

(٥) وتستأجر كوريا الجنوبية ٦٩٠ ألف هكتار لزراعة القمح.

(٦) وتستأجر الأردن ٢٥ ألف هكتار لزراعة العلف الأخضر وتربية الماشية عليه بينما تتفاوض دولة الإمارات على استئجار ٣٧٨ ألف هكتار.

وفي السودان:

(١) يمتد استثمار شركة جنات السعودية إلى السودان لتستثمر هناك ٤٠٠ ألف مليون دولار في إنتاج الغذاء.. وحصلت الشركة السعودية هادكو على ٢٥ ألف هكتار من أراضي المحاصيل الزراعية في السودان (بلس أند ويلبس) بتمويل من صندوق التنمية الصناعية التابع للحكومة السعودية التي ستمول نحو ٦٠٪ من المشروع.. وتستأجر شركة هايل للتنمية الزراعية أكثر من عشرة آلاف هكتار لزراعة القمح والخضراوات.. وصرحت الشركة السعودية الوطنية للتنمية الزراعية (ناداك) أنها أكملت إجراءات زراعة ٤٢ ألف هكتار من الأراضي الزراعية في السودان.. وتقع مزروعاتها على ضفاف النيل.. وأنتجت الشركة عام ٢٠٠٨ ما يعادل ١٥٠ ألف طن قمح.. كما تركز على منتجات الألبان والعصائر.. وتدير الشركة عائلة سعودية ثرية.. ويمتلك صندوق الاستثمار العام التابع لوزارة المالية ٢٠ ٪ منها.

(٢) قام فيليب هيلبرج وهو مستثمر أمريكي كان مسئولا بنكيا سابقا في وول ستريت (شارع المال والأعمال في نيويورك) بتأسيس شركة جارش كابيتل.. مقرها نيويورك لزراعة ٨٠٠ ألف هكتار في السودان.

(٣) يمول صندوق التنمية في أبي ظبي ٢٨ ألف هكتار من الأراضي الزراعية في السودان لزراعة البرسيم والحبوب والبطاطس لاستهلاكها في الإمارات.

(٤) وهناك شركة بريطانية تسمى أكوا توريا تيك يديرها صندوق سي دي سي.. وهي أول شركة وقعت عقد زراعة وتنمية مع الحكومة الجديدة في الجنوب عام ٢٠٠٦ لتنمية أكثر من ١٨ ألف هكتار.

(٥) في سبتمبر ٢٠٠٨ وقعت الكويت إستراتيجية الشراكة العملاقة مع السودان.. ووفقا للاتفاقية الموقعة بين البلدين سوف تستثمران أموالا مشتركة في إنتاج الغذاء وتربية الماشية.

(٦) وفي يوليو ٢٠٠٨ أعلنت قطر والسودان تأسيس شركة مساهمة للاستثمار الزراعي لإنتاج أغذية تصدرها للدول العربية وهي شركة زاد المساهمة وكان اسمها من قبل فلور مايلز وتمتلكها قطر بالكامل.

وصرحت الحكومة السودانية أن العديد من الشركات تحاول الحصول على أراضٍ زراعية في بلادها.. قال بيتر شاولي.. مدير مصادر المياه والري في مدينة جوبا (عاصمة الجنوب) أن هناك العديد من الطلبات قدمها مستثمرون من جنسيات مختلفة.. ولكن.. «حكومتنا تنظر إليها في روية.. ولن يفوز فيها إلا من نستفيد منه أكثر».

إن في أثيوبيا وحدها ٧٧ مليون هكتار أراضٍ خصبة قابلة للزراعة.. تصل إلى ٢٠٠ مليون فدان.. المزروع منها لا يزيد على ٤٠ مليون فدان.. ولتوافر المياه يسهل على من يدفع زراعة ما يشاء منها.. في عملية إخصاء لقوة الطبيعة من المنبع.. تخفض من قوة اندفاع المياه.. وتقلل من حجم تدفقها إلى المجرى المؤدي إلينا نحن عند المصب.

عفوا.. دكتور جمال حمدان.. الشريعة الجغرافية وحدها لم تعد تكفي لضمان حقوقنا المكتسبة.. تفوقت عليها المؤامرات والمصالح السياسية.. ونحن في العسل نائمون.. وللقواعد القديمة مستسلمون.. ولعلاقاتنا مع الحبشة غافلون.. مستهترون.. مستهزئون.. متعالون.. متكبرون.

لقد رحل الرجل عن عالمنا دون أن نعرف منه سوى وجهة النظر التي قرأناها في كتبه وناقشناه فيها دون أن يتاح لنا معرفة رأيه.. وقد كان من الممكن أن ينتهي الأمر عند هذا الحد لولا المفاجأة التي وقعت مؤخرا.

خرج إلى النور كتاب صغير لم يلفت النظر نشره الدكتور عبد الحميد صالح حمدان شقيق العالم الراحل.. وهو مغترب مصري عاش معظم سنوات عمره في باريس وهو الآن على المعاش.. والكتيب صدر عن عالم الكتب.. ويتعرض

لأوراق متناثرة أقرب للخواطر العابرة كتبها الدكتور جمال حمدان.. ورأت أسرته أنه لا مبرر لنشرها.. على أنها فوجئت بها مطبوعة.. ومعروضة.

الغريب أن جمال حمدان في هذه الأوراق بدا أنه تراجع عن استقرار شريعة الجغرافية في ضمان تدفق حصة مصر من مياه النيل.. والسبب متغيرات حادة وقعت «ضربت في صميم الوجود المصري ليس فقط من حيث المكانة ولكن المكان ذاته».

منها: إن أرض مصر أصبحت معرضة «للتآكل الجغرافي لأول مرة في التاريخ كله وإلى الأبد إذ تحولت من عالم متناه «بالطبع والطبيعة والجغرافيا» إلى «عالم متآكل» بفعل الإنسان.. ولا شك أن السد العالي أوقف نمو أرض مصر أفقيا ورأسيا وعرضها للتآكل البحري والصحراوي».

ومنها: أن أرض مصر «أصبحت «أرضا مغلقة» بيولوجيا بلا صرف بل مصرف وبالتالي لا تتجدد مياهها وتربتها كما لم تعد تجدد أرضها وترابها.

ومنها: «لأول مرة ظهر لمصر منافسون ومطالبون ومدعون هيدرولوجيا ـ مائيا ـ كانت مصر سيدة النيل بل مالكة النيل الوحيدة الآن فقط انتهى هذا إلى الأبد وأصبحت شريكة محسودة ومحاسبة ورصيدها المائي محدود وثابت وغير قابل للزيادة إن لم يكن للنقص.. والمستقبل أسود.. ولت أيام الغرق وبدأت أيام الشرق وغرقت المعاني لا لخطر راجع ولكن دائم «الجفاف المستديم» بعد الري المستديم!

ومنها: أن سكان مصر بلغوا الذروة غير المتصورة قط.. الطفح السكاني إلى مداه.. ولم يبق سوى المجاعة.. ونفس عامل السكان الذي تعدى إمكانيات الأرض أصبح بالوعة للأرض وأكلها لها فهو لا يتجاوز إمكانيات الأرض فحسب وإنما يقلصها بقدر ما يتوسع إسكانا في المدن والقرى والطرق حتى سيأتي اليوم الذي تطرد فيه الزراعة تماما من أرض مصر لتصبح كلها سكنًا دون

مكان عمل.. «أي دون عمل أي دون زراعة أي دون حياة أو موت» لتتحول في النهاية من سكن على مستوى وطن إلى مقبرة بحجم دولة.

لا أعرف ما إذا كان ما وصله لنا بعد وصوله إلى العالم الآخر يؤيد وجهة نظري أم ينفيها لكن.. من الأمانة أن أذكرها.. خاصة وأن صورة مصر في عينيه قبل الموت كانت شديدة السواد.. بسبب سياسات خاطئة في الداخل.. وتجاوزات مسيئة في مناطق حوض النيل.

وما زاد وغطى أن إسرائيل راحت تلعب من خلف الينابيع كي تصبح إحدى دول الحوض شئنا أم أبينا.. فما حقيقة دورها بأمانة ودون مبالغة هناك؟

نقطة من أول السطر.. أو من أول قطرة في النهر.

الفصل الثامن

إنني أرى يا سيادة الرئيس أن نقل مياه النيل إلى النقب فكرة عظيمة!

تغري شركات السياحة الحكومية في إسرائيل زبائنها العائدين من رحلاتهم في مصر باستعادة نصف ما دفعوه.. لو وافقوا على كتابة تقرير عن ما عاشوه.. وما شافوه.. مهما كان بسيطا.. أو عابرا.

إن خمسين ألف تقرير يقدمها خمسون ألف سائح يزورون مصر سنويا تكفي لمعرفة كل شيء عن مجتمعنا.. ونجومنا.. وميولنا.. وأحلامنا.. وأحزاننا.. وعلاقتنا بهم.. ومستقبلنا معهم.

وسبق أن رسمت المخابرات الإسرائيلية خريطة رتب الجيش المصري خلال حرب الاستنزاف من النعي الذي ينشر لهم ولعائلاتهم في صفحة وفيات الأهرام.. ولم يعد ذلك سهلا بعد انكشاف الأمر.

وفي أديس أبابا ألمحت الصحف أكثر من مرة إلى هواية الموساد في تجنيد سكرتيرات المسئولين ودفع مبالغ مغرية لهن مقابل زرع أجهزة تنصت تسجل كل ما يدور في مكاتبهم.

حدث ذلك بسهولة في بلاد يعتبر فيها الناس الهدية ولو كانت مبلغا منتظما من المال نوعا من المجاملة الاجتماعية المقبولة.

وفي تقارير رسمية مصرية.. إن إسرائيل تسيطر على حكام أثيوبيا وأوغندا وكينيا وغيرها من دول المنابع بطريقتها السلسة.. البسيطة غير المكلفة.. فكل ما تفعله هو أن تحميهم بضباط من الموساد.. وأن تعالج عائلاتهم في مراكزها الطيبة.. وأن تبني ملاعب كرة قدم لكسب عواطف الناس العاديين الذين تستهويهم تلك الرياضة الشعبية التي تصيب مشجعيها بالجنون.

وقبل أن يزور رئيس وزراء كينيا القاهرة (في منتصف مايو ٢٠١٠) ضغطت عليه إسرائيل لتوقيع اتفاقية «تعطيش مصر» التي تعيد توزيع حصص مياه النهر قبل أن يأتي الرجل إلينا.. ولم يمنعها من تحريضه على طلب الغاز الطبيعي المصري لبلاده.. قائلا: «ما دمتم تعطونه لإسرائيل عدوتكم فلماذا لا ترسلونه إلينا ونحن أصدقاؤكم؟».

وفي فيلم «صياد أبيض وقلب أسود» يلعب كلينت ستود دور مخرج متهور يقرر اصطياد فيل قوي قبل أن يبدأ تصوير فيلمه في أدغال أوغندا.. ويرافقه في الرحلة كاتب السيناريو اليهودي المهذب والموهوب.. وعلى العشاء يصادفان امرأة بريطانية تحدثت باشمئزاز عن اليهود.. فجرى الرد عليها بقسوة.. كما جرى في الوقت نفسه رد اعتبار الزنوج الذين يعاملهم البيض بفظاظة.. وكأن اليهود والزنوج في كفة اضطهاد واحدة.. ولا ينصفهم سوى الشخصيات الراقية من المبدعين والمثقفين.

كان كل هم البطل أن يصطاد فيلا قبل أن يبدأ تصوير أول لقطة في فيلمه.. لكنه.. يفشل.. ويدفع الثمن الدليل المحلي الأسود من حياته.. يصرعه الفيل.. ومع ضغوط المنتج الجشع.. ينطق المخرج المتهور في نطق الكلمة التي ينتظرها الجميع: «أكشن».

ويظهر الفيلم الذي أنتجه وأخرجه كلينت ستود أيضا المشاهد الطبيعية الساحرة لبحيرة فيكتوريا وحسن ضيافة فندقها الذي يحمل اسمها.. ولم تنس

تترات ما بعد النهاية أن تشكر الشركات والمنظمات اليهودية التي تعمل في إفريقيا على دعمها في تمويل ومساندة الفيلم.

قبل ذلك بسنوات طويلة.. بالتحديد في عام ١٩٥٦ طلب هيلاسي لاسي من رئيس الحكومة الإسرائيلية وقتها ديفيد بن جوريون أن تتولى إسرائيل تدريب وتسليح جيشه.. فوافق.. وفي عام ١٩٦١ اعترفت أثيوبيا رسميا بالدولة الصهيونية.. وتبادلت معها البعثات الدبلوماسية.. وافتتحت قنصلية لها في القدس.

في ذلك الوقت كان بين أبناء أثيوبيا ما عرفناهم فيما بعد بيهود الفلاشا.. جاء أجدادهم إلى «كعكة إفريقيا السمراء» قبل الميلاد بألف سنة.. وبسبب ميل الأحباش ذي الجذور العربية إلى التوحيد فإنهم تركوا الوثنية واعتنقوا اليهودية.. بل وفرحوا بها.

ويهود الحبشة مثل باقي رعايا الديانات الأخرى أقرب للوثنية.. فلا هم يؤمنون بالمسيح المخلص.. ولا هم يعرفون كلمة واحدة من اللغة العبرية.. ويصعب أن تفرق ملامحهم وملامح غيرهم ممن حولهم.. وهم يقيمون بجوار أديس أبابا وبالقرب من بحيرة تانا.. ويشتهرون بإجادة الحرف المختلفة.. الحدادة.. النجارة.. الصيدلة.. والصياغة.. وحسب أميل لودفيج فإنهم ليسوا أثرياء.. و«يكتمون طقوسهم الدينية وكتبهم المقدسة المكتوبة بالأمهرية ويحافظون على شرائع الأكل وقواعد الطهارة ويتوضأون إذا ما مسوا ما ليس من ملتهم.. ولا يعرفون غير القليل من التوراة كالنصارى الذين اقتبسوا منهم ختان الجنسين واتخاذ خلق العالم بداية للتاريخ.. ويعتقدون في العودة إلى القدس ويحيون بعضهم بعضًا بجملة «ليكن السبت معك».. وقد شيدوا معابدهم على طراز هيكل سليمان».

وسليمان هو النبي سليمان الذي أبلغه الهدهد بجمال وجاذبية وثراء وقوة

ملكة اليمن فقرر ملك القدس المتوج أن يبهرها بقدرته المذهلة في تسخير الجن بكل ما يملكون من قوى خفية فجاءوا لها بعرشها في غمضة عين.

جاءت إليه بلقيس ملكة سبأ.. اليمن فيما بعد.. والممتدة مملكتها حتى الحبشة.. وسمعت من سليمان من أحاديث الحكمة وأناشيد الحب ـ وهي أشد من الخمر ـ ما أدار رأسها.. ولكنها لم تكن تقل عنه ذكاء.. فلم تقم في قصره.. ولم تسلم نفسها إليه.. كانت تعرف بغريزة الأنثى أن الرجل يزهد بسرعة من المرأة التي يعاشرها بسرعة.. وهو ما حدث.. فقد ظل ليالي طويلة يغريها بأحاديثه الجذابة.. موقنا بأن الطريق إلى قلب المرأة يبدأ من أذنها.

وحانت ساعة الرحيل.. ووجدت بلقيس من هدايا الملك ما لم تره من قبل.. وهو ما جعلها توافق على تأجيل سفرها.. وتوافق على أن تقضي الليلة الأخيرة في قصره بشرط أن يتعهد بأن لا يمسها.. ووافق على أن لا تأخذ من جانبها شيئا يخصه.

ويأمر سليمان الطهاة أن يغرقوا الطعام في التوابل الحريفة وهو ما فتح شهيتها.. لكنه.. أيضا كان السبب في أنها كادت تهلك من العطش قبل أن تنام.. فأحلت سليمان من عهده لو سقاها.. وروي عطشها.. فشربت.. ثم دخلت فراشه.. وخرجت منه حاملا منه بابنهما منليك الذي أخذ حسن أمه وحكمة أبيه.. وفيما بعد أصبح ملكا على الحبشة.. دون أن ينسى زيارة سليمان في أورشليم ـ القدس ويعود منها مثقلا بالهدايا بجانب حاخامات مهمتهم تعليم الأحباش اليهودية.. وجنود يعلمونهم القتال وصناعة السيوف والخناجر.

وحسب الأسطورة اليهودية فإن اللصوص سرقوا تابوت العهد ـ الموضوع فيه الألواح التي نقش عليها موسى وصايا الرب عندما تجلى له شجرة نور ـ فتذرع سليمان بالحكمة وأمر الحبر الأكبر بالسكوت على ما حدث.. على أن يصنع نسخة مما سرق طبق الأصل.. ولكنه.. فشل.

في ذلك الوقت كان اللصوص قد عبروا البحر الأحمر واتجهوا إلى القصر الملكي في الحبشة ليبيعوا لملكها ما سرقوه دون أن يعرفوا أن شاري المسروقات هو ابن المسروق.. واعتبر اليهود تلك السرقة معجزة.. فقد جاء فيما بعد من يهدم هيكل سليمان وينشر اليهودية في بقاع الأرض.. ولم يكن ذلك في أهمية الحفاظ على تابوت العهد ووصايا الرب لموسى.

ولم يعرف أحد مصير تلك الألواح الآن حتى حاخامات يهود الفلاشا الذين نقلوا جوا فيما بعد إلى إسرائيل في عملية سياسية لا تمت للشريعة بصلة.

لكن.. ما تبقى من سليمان هو ما يسمى بنشيد الأناشيد.. وهو تجميع لشعر الغزل العفيف والمفضوح الذي قرضه سليمان في عشق بلقيس.. ويحظر رجال الدين على الفتيات قراءتها.. فقد خلقت ما يمكن وصفه بالبورنو.

وتسابق العديد من ملوك أثيوبيا وحكامها إلى تسمية أنفسهم منيلك.. في محاولة للإيحاء بأنهم من نسل عائلة سليمان.. حتى من لم يفعل ذلك نسب نفسه للعائلة.. كما فعل هيلاسي لاسي.. ويضيف الدكتور فيصل الرفوع أستاذ العلوم السياسية بجامعة الأردن في دراسة عن الصراع المائي بين العرب وإسرائيل: «إن الإعلام الإسرائيلي وظف هذا الاعاء لصالح تطوير العلاقات بين إسرائيل وأثيوبيا التي كانت فيما بعد «قاعدة انطلاق للإستراتيجية الإسرائيلية تجاه دول الطوق (الدول العربية الملاصقة لها) في منابع النيل».

لم يهاجر كل يهود أثيوبيا إلى إسرائيل.. فنقل أشجار من تربة ممطرة إلى تربة جافة.. ليست دائما تجربة ناجحة.. ومن جانبها فضلت إسرائيل أن يكون لها جالية دينية في الحبشة.. تساعدها إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك.. وهي قاعدة سنتها الموساد منذ بدأت نشاطها الخفي.. أن يكون في كل بلد يهود يقدمون لها الخدمات المطلوبة بطريقة آمنة.

ويمكن القول بأن إسرائيل تتمتع بنفوذ مؤثر في الصحافة والإذاعة والجامعة

ومراكز الأبحاث.. في مواقع صياغة الفكرة والخطة والمشورة في أديس أبابا.. فيما عدا ذلك لا يبدو النفوذ الإسرائيلي بالصورة الخرافية التي نتصورها.. ليست العفريت الذي يحرك كل حكومة.. ويخرج من كل علبة.. ووراء كل مصيبة نعاني منها.. حسب نظرية المؤامرة التي استهوتنا.. وسيطرت علينا.. ووفرت علينا البحث عن أسباب مشاكلنا الحقيقية.

فكل ميزانية إسرائيل لمساعدة دول العالم المختلفة لا تزيد على عشرة ملايين دولار.. وفي الوقت نفسه تساعد مصر دول الحوض بما لا تعلن عنه حتى لا تتصور هذه الدول أن مصر تمن عليها.

لقد طهر خبراء الزي المصريين مجرى نهري فرعي يصب في بحيرة فكتوريا من الأعشاب.. ودفعت ١٥ مليون دولار.. وفعلت الشيء نفسه في نهر آخر قريب.. ودفعت ٢٥ مليون دولار.. وكان ذلك في الفترة ما بين ٢٠٠٣ و٢٠٠٨.

وحفرت مصر في كينيا ١٤٠ بئرا على عمق ٣٠٠ متر.. يضخ الواحد منها عشرات الأمتار المكعبة كل يوم ويسد حاجة الناس في مناطق جفاف لا تصل إليها مياه النهر.. وحفرت في تنزانيا ١٢٠ بئرا.. لنفس السبب.

قدمت مصر «السبت» حتى تقدم القيادات السياسية لدول الحوض لها «الأحد».. خاصة وأن الخدمات التي قدمتها مصر كانت هي نفسها مناطق تلك القيادات لضمان ولائها.

وليس لإسرائيل سوى ٣ سفارات في دول حوض النيل مقابل ٧ سفارات لمصر.. وقد قال لي وزير الخارجية أحمد أبو الغيط: «إننا نرصد كل شيء في تلك البلاد التي تهمنا.. ولم نلحظ شيئا يثير مخاوفنا.. ولو حدث فإنني لن أتردد في أن أخرج للرأي العام وأستنكر ذلك بشدة».

وتعتقد جهات مختلفة ومهمة في مصر أن زيارات وزير الخارجية الإسرائيلي إفيجدور ليبرمان المتكررة لدول إفريقية مختلفة مسألة تعويضية أكثر منها

سياسية.. فهو لا يجيد اللغة الإنجليزية.. فلا يتحمس لزيارة الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية.. وهي دول تعتبره متعصبا.. متزمتا.. كما أن فشله في مفاوضات السلام مع الفلسطينيين جعلت إفريقيا هي الملجأ الوحيد أمامه لتحقيق انتصارات خاطفة.. عابرة.. ولا تزيد زياراته إلى هناك عن افتتاح مشروعات صغيرة.. مصنع تعبئة مياه.. مزرعة ورد بلدي.. سوبر ماركت.. مثلا.

ولكن.. تلك الصورة لا ترضي غالبية المثقفين في مصر الذين يصرون على أن المساعدات الفنية والأمنية والعسكرية والصحية التي تقدمها إسرائيل لدول المنابع تهدف إلى تحقيق ما يمكن تسميته بإستراتيجية «المحاصرة».. محاصرة مصر في بيوت مياهها الأولى للضغط عليها كي تساعدها في تجنب مشاكل الجفاف والعطش التي تعاني منها إسرائيل اليوم قبل الغد.

كنا في بيت الدكتور ميلاد حنا على بحيرة مارينا حينما راح الصادق المهدي ـ الزعيم السوداني المثقف والمحنك ـ يتحدث عن رغبة إسرائيل في أن تشتري المياه من أثيوبيا وأوغندا على أن تنقلها على طول النهر حتى تصل إلى الإسماعيلية لتجري منها عبر السحارات الممدودة تحت قناة السويس إلى سيناء ـ المعروفة بترعة السلام ـ حتى تصل إلى صحراء النقب.. وكانت حجة إسرائيل أن مجرى النيل في السودان ومصر سيكون مجرد أنبوب.. مثل أنابيب النفط.. تأخذ عليه الدولتان رسوم مرور.. أما ثمن المياه فتدفعه إلى الدولة الأم.. أثيوبيا.. أو غيرها.

كان ذلك في عام ١٩٩٨ في وقت كانت دول المنابع قد كشرت فيه عن أنيابها وبدأت تطالب بتمزيق الاتفاقيات القديمة وإعادة توزيع الحصص باتفاقيات جديدة.. على أن تشتري مصر كميات المياه التي ستفقد منها.. أو تنقلها إلى إسرائيل وتحصل على العمولة التي تطلبها.. ولم تمر سوى سنوات

قليلة حتى سمعنا علنا ما كان يتردد همسا.. وقرأنا في صحفهم ما كنا نسمعه من حكوماتهم.

قبل ذلك بنحو ثمان سنوات.. بالتحديد في ٦ يناير ١٩٩٠ نشرت صحيفة إندبندنت البريطانية: إن خبراء إسرائيليين يعملون لحساب الحكومة الأثيوبية في تجهيز دراسات تمهيدية لبناء ثلاثة سدود بالقرب من بحيرة تانا.. وبعد ثلاثة أيام ذكر تقرير للسفارة المصرية في لندن: إن ٤٠٠ خبير إسرائيلي في المخابرات والسدود وصلوا إلى أثيوبيا لمساعدتها في بناء ثلاثة سدود أخرى على النيل الأزرق.. وبعد أسبوع سلم الرئيس حسني مبارك لشيمون بيريز ملفا خاصا أعدته الخارجية المصرية عن نفس الموضوع.. وبعد ساعات قليلة وجهت مصر تحذيرا إلى إسرائيل وأثيوبيا لمواجهة ما وصفته بالعبث: «إن القاهرة لن تسمح بأية محاولة لإعاقة مجرى نهر النيل».

وفيما بعد نشر.. وليم كيسي المدير الأسبق لوكالة المخابرات الأمريكية ـ المركزية ـ تقريرا في صحيفة واشنطن بوست قال فيه: «إن وجود إسرائيل في منابع النيل حقيقة متزايدة يصعب تجاهلها.. ويهدف إلى «الحد من تدفق مياه النهر إلى مصر والسودان للضغط عليهما.. وتلعب إسرائيل دور الوسيط والوكيل لجهات استعمارية عليا تفكر في استخدام «سلاح المياه» بعد أن استخدمت سلاح الغذاء للسيطرة على دول العالم الأكثر فقرا والأشد تخلفا.. وتسعى إسرائيل إلى قبول مصر بنصيب لها عند المصب مقابل ألا تتلاعب بمجريات المياه لغير صالح مصر».

وسبق أن أبرم جون جرانج (زعيم جيش تحرير السودان) اتفاقا مع شركات إسرائيلية تعمل في أثيوبيا ومنطقة البحيرات العظمى لوضع عدة دراسات جدوى شارك فيها ٥٥٠ خبيرًا إسرائيليًّا تتعلق باستغلال ٢٥ مليار متر مكعب من المياه تسقط على جنوب السودان وتمثل الرصيد الإستراتيجي لدولة الانفصال التي كان

يخطط لإقامتها.. وتتضمن الدراسات ١٢ مشروعا زراعيا.. مثلها لتوليد الطاقة.. وتهدد باستقطاع ٩ مليارات متر مكعب من المياه تخطط مصر للاستفادة منها.

لكن.. ذلك كله لا يمنع أن الكلام عن حلم إسرائيل في وصول مياه النيل إليها لا يمكن أن يمر عابرا.. أو يتبخر في الهواء دون أن نتوقف عنده.. خاصة وأن الكلام صدر عن الرئيس أنور السادات.. أعلى سلطة سياسية في البلاد وقت أن كان يحكمها.. كما أن السحارات التي مدت تحت القناة لنقل النيل إلى سيناء.. تثير القلق.. وفي ظل دولة مثل إسرائيل عودتنا على تنفيذ ما تريد ولو بعد حين.. يجب أخذ كل هذه الظواهر بجدية.

في إبريل ١٩٨٠ بعث السادات برسالة إلى رئيس الحكومة في ذلك الوقت مناحم بيجن قال فيها: «ولعلك تذكر أيضا أنني عرضت أن أمدكم بمياه يمكن أن تصل إلى القدس مارة بالنقب حتى أسهل عليكم بناء أحياء جديدة للمستوطنين في أرضكم».

واقتنص بيجن الإشارة ليؤكد أن المياه المقصودة هي مياه النيل.. فقال في رده على السادات: أعتقد يا سيادة الرئيس أن حديثنا القصير في العريش كان يتضمن اقتراحا منكم بنقل مياه النيل إلى النقب ولم تذكروا شيئًا عن نقل المياه إلى القدس مطلقا».. وأضاف: «وأنا أرى يا سيادة الرئيس أن نقل المياه من النيل إلى النقب فكرة عظيمة».

ويوم تفجرت هذه الفضيحة السياسية في مصر هب المثقفون في حالة نادرة من الغضب الجماعي دون تمييز أو تصنيف.. وساهم ذلك الغضب في زيادة حدة المعارضة للسادات.. وللسلام.. وللصلح المنفرد الذي وقعه في كامب ديفيد.. وجسد كامل زهيري.. الصحفي والكاتب ونقيب الصحفيين الأسبق ما جرى في كتاب صغير نال إعجابا وإقبالا هائلا.. ولولا هذه الكتاب ما توثقت الحملة الشعبية المضادة لنقل مياه النيل إلى العدو الإسرائيلي.

انفرد كامل زهيري بنشر وثيقتين لم يسبق ترجمتهما إلى اللغة العربية:

الوثيقة الأولى: نص مشروع الامتياز الذي أعده مؤسس الدولة اليهودية تيودور هرتزل عام ١٩٠٣ لعرضه على الحكومة المصرية (ممثلة في اللورد كرومر المعتمد البريطاني وبطرس باشا غالي وجوزيف تشمبرلين وزير المستعمرات البريطانية).

«وخطورة هذه الوثيقة أنها تكشف عن الحجم المروع لأطماع الصهيونية في سيناء منذ مطلع القرن العشرين واشتهر بين المؤرخين المدققين على قلتهم بأنه كان مجرد مشروع لتوطين اليهود في العريش ويكشف نص مشروع الامتياز أن المنظمة الصهيونية التي مثلها هرتزل كانت ترمي إلى خطف امتياز التوطين وإنشاء الموانئ والفنارات الشرقية للقناة وخليج السويس حتى حدود مصر وفلسطين».

الوثيقة الثانية: نص تقرير البعثة الفنية التي أرسلتها الحكومة البريطانية خلال شهري فبراير ومارس ١٩٠٣ وزارت سيناء بالاتفاق بين هرتزل وجوزيف تشمبرلين واللورد كرومر وبطرس غالي.

والوثيقتان معا تكشفان حجم مخططات الصهيونية في سيناء ومياه النيل.. وهي مخططات لا تزال في أدراج العدو جاهزة للخروج في الوقت المناسب.

وهرتزل لمن خانته الذاكرة ولد في بودابست يوم ٢ مايو ١٨٦٠.. أبوه كان تاجرا من أثرياء العاصمة المجرية.. درس القانون.. ثم فضل الصحافة والسياسة عن المحاماة.. وقبل نهاية القرن الذي ولد فيه.. نشر كتابه الخطير.. الشهير «الدولة اليهودية» الذي تحول فيما بعد من فكرة إلى دولة.

والمثير للدهشة أن مصطفى كامل ـ مؤسس الحزب الوطني الأول ـ التقى به في مساء الأربعاء ٢٤ مارس ١٨٩٧ بفندق متروبول فيينا.. ونقل كامل زهيري عن مذكراته: «الموفد المصري مصطفى كامل الذي زارني من قبل زارني ثانية.. إنه في رحلة لجمع المشاعر المؤيدة لقضية الشعب المصري الذي يسعى للخلاص

من السيطرة البريطانية.. إن هذا الشاب المشرقي يعطي انطباعا ممتازا.. وهو مثقف وراق وذكي وبليغ.. وقد دونته في ذاكرتي لأنه قد يلعب يوما دورا في سياسة الشرق.. حيث نلتقي مرة ثانية».

« ويضيف هرتزل: «إن سليل مضطهدينا في مصرايم (مصر) يتنهد اليوم من عذاب الرق وتقوده طريقه إليَّ أنا اليهودي طالبا مساعدتي الصحفية.. أشعر مع أنني لم أخبره بذلك بأنه مما يفيد قضيتنا أن يضطر الإنجليز إلى مغادرة مصر.. فإنهم سيضطرون وقتها أن يبحثوا عن طريق آخر إلى الهند بدل قناة السويس التي ستضيع منهم أو على الأقل تصبح غير مأمونة.. آنذاك تصبح فلسطين اليهودية الحديثة مناسبة لهم في الطريق من يافا إلى الخليج الفارسي».

في بداية القرن العشرين انتقل هرتزل بفكرته إلى لندن.. عاصمة الإمبراطورية الاستعمارية التي لا تغرب الشمس عنها.. وأسس مع أثرياء يهود ـ مثل روتشيلد ودي هيرش ـ صندوقا قوميا مهمته شراء أرض للدولة اليهودية.. وعلى مائدة غذاء قال لروتشيلد:

ـ أريد مستعمرة يهودية في إحدى الممتلكات البريطانية.

ـ خذ أوغندا.

ـ لا.

ثم أمسك بورقة وكتب عليها «شبه جزيرة سيناء المصرية.. أو قبرص».. قائلا:

ـ لقد عرض عليَّ السلطان (العثماني) وادي الفرات (في العراق).

ـ وهل رفضت؟

ـ نعم.

وعندما التقى هرتزل بوزير المستعمرات جوزيف تشمبرلين سمع منه رفض

حكومته لاختيار قبرص.. «فمن الصعب طرد المسيحيين والمسلمين معا من الجزيرة من أجل استيطان مهاجرين يهود».

بعد طول بحث.. تحول النقاش إلى العريش في سيناء.. لكن.. تشمبرلين اعتبر تلك المنطقة من اختصاص اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر.

وفيما بعد كتب هرتزل في مذكراته: إن «اللورد كرومر يقول إن مشروع شبه جزيرة سيناء محتمل التحقيق».. «ستشترط الحكومة المصرية فقط على اليهود الحصول على الجنسية العثمانية ودفع تبرعات سنوية لحفظ النظام في الداخل والخارج».

وكلف هرتزل مهندسا يدعى كسلر بأن يسافر إلى مصر ليقدم إليه تقريرا عن إمكانية الاستيطان فيها.. واستعان بالكولونيل جولد سميث كي يوفر الخرائط اللازمة للرحلة التي وجدوا أن من الأفضل أن تبدأ من الإسماعيلية مع طريق القوافل إلى بحيرة البردويل وهناك تقيم معسكرها.. وانضم إلى البعثة خبير آخر اسمه ستيفنس.. مهمته دراسة الميناء والقنوات التي يمكن حفرها من النيل.. وتركت لشخص رابع يدعى لورينت المسائل الزراعية.

وقع هؤلاء تعهدا بأن تبقى مهمتهم سرية: «نحن الموقعين أدناه أعضاء الحملة المنظمة تحت إشراف الحركة اليهودية لدراسة إمكانيات استيطان شبه جزيرة سيناء نتعهد هنا ونقسم بشرفنا ألا ننشر أي شيء عن الحملة كتابة ولا شفاهة إلا إذا سمح رئيس لجنة العمل».

في ٢٦ مارس ١٩٠٣ قدمت البعثة تقريرها الذي تضمن شرحا تفصيليا لطبيعة أراضي سيناء.. وطرق المواصلات.. ومصادر المياه.. ومستوى الأمطار.. ونوعية الماشية.. والنباتات.. وتوزيعات السكان.. وانتهت إلى أن النقطة الجوهرية هي «توفير المياه».. وهو «يستوجب نفقات كبيرة».

قبل أربعة أيام كان هرتزل قد وصل إلى مصر على السفينة النمساوية

سميراميس.. كان اسمه في ذيل قائمة الركاب.. فقد كان من ركاب الدرجة الثالثة.. وقبل أقل من ٤٨ ساعة كان يلتقي باللورد كرومر الذي دخل في الموضوع مباشرة: «إننا سوف نحتاج إلى الماء ومن النيل».. لكن كرومر لم يعطه جوابا حاسما.. حتى يرجع الخبير الذي كلفه بدراسة الملف.. سير ويليام جارستن.. مستشار وزارة الأشغال العمومية.. وهو بالمناسبة مؤلف أدق كتاب عن النيل موثق بالخرائط.. أسماه «الدليل».. وقد نشر في الثلاثينيات.. في عهد الملك فؤاد.. وأعادت مكتبة مدبولي نشره ضمن سلسلة «صفحات من تاريخ مصر».

قال هرتزل: «نحن نطلب فقط من النيل مياه الشتاء الزائدة التي تجري عادة إلى البحر ولا يستفاد منها».

والتقى هرتزل ببطرس غالي الذي وصفه بأنه بدين مترهل متقدم في السن.. وعندما سمع بفكرة تأجير مستوطنة يهودية في سيناء لم يعترض.. وكان سؤاله الوحيد: «من أين تجيئون بالماء؟».. فاطلعه هرتزل باختصار «على مشروع الري الذي هيأناه من النيل.. بجانب ما يطلبون من ثمن مادي ولو بالذهب.. وظل يوافقني ونحن نشرب القهوة التركية إلى أن أعلن قدوم القنصل النمساوي وعندئذ تركته».

ودون الدخول في تفاصيل ستبعدنا عن الهدف «رفضت الحكومة المصرية المشروع الصهيوني بتوطين اليهود في سيناء ومدهم بمياه النيل عبر القناة».. ولم يكن السبب فقط عدم الاستلطاف المتبادل بين روتشيلد وكرومر.. فالكراهية وحدها لا تصنع التاريخ.. ولكن.. كانت هناك أسباب أخرى أهم.. إن بريطانيا كانت تنتظر سقوط الإمبراطورية العثمانية كي ترثها.. ولم تكن تريد لفت انتباه منافسيها في ألمانيا وفرنسا وروسيا القيصرية إلى ذلك حتى لا تسبقها إلى ما تنتظر من غنائم تركية.

وفي ذلك الوقت «كانت بريطانيا قد بدأت خطة تنظيم الري في مصر ببناء

خزان أسوان الذي انتهت منه عام ١٩٠٢ وربط الزراعة المصرية بالصناعة البريطانية والقطن المصري بالنسيج البريطاني».

لقد «توافرت لبريطانيا أسباب اقتصادية هامة لعرقلة المشروع الصهيوني حتى لا تتهدد خططها الخاصة».

ولو كان هرتزل نجح في إقامة الدولة اليهودية في فلسطين وفشل في توصيل مياه النيل إليها فإن أحفاده لم ييأسوا.. ومحاولاتهم في إقناع مصر بذلك لم تنته.. ولا شك أن توقيع معاهدة صلح بين القاهرة وتل أبيب أحيا الأمل في النفوس.. وهناك أكثر من مبرر.. وأكثر من دليل.

نقطة من أول السطر.. أو من أول قطرة في النهر.

الفصل التاسع

عليكم أنتم تصميم خريطة أخرى

ممتدة من النيل إلى الفرات!

خلق الله من الماء كل شيء حي.. دون تفرقة بين إنسان وحيوان.. بين نباتات وكائنات.. بين مؤمن مسلم وراهب بوذي.. بين مقاتل فلسطيني ومغتصب إسرائيلي.

وتتألم الشعوب من الجفاف.. لكنها.. تموت من العطش.. وكلما زاد الماء زاد الاستقرار.. لذلك فالأنهار وطن دائم.. والآبار وطن متحرك.. ومن حسن الحظ أن من لا ترسل له السماء المياه طازجة من عندها يجدها محفوظة في جوف الأرض.

والبشر يرون ملامح شخصيتهم في كوب ماء.. كلما اتسع كانوا طيبين هادئين قانعين مسالمين.. وكلما ضاق أصبحوا غاضبين متمردين مقاتلين متجازين.. فالحرب من أجل قطرة ماء هي حرب من أجل الحياة.

إن كل قطرة ماء نجحت إسرائيل في توفيرها جذبت بها مهاجرا يهوديا من مختلف أنحاء العالم إليها.. فالماء بالنسبة إليها يعني زيادة عدد السكان.. ولو على حساب أرض ضيقة.. فأحلام التوسع بلا حدود.. وحلم إجلاء الفلسطينيين قابل للتحقيق.. يكفي أن يعبروا قطاع غزة من رفح إلى سيناء ليستقروا فيها.. كما أكدت دراسات حديثة.. جريئة.

ويكفي أن نعود إلى ما قاله ديفيد بن جوريون أول رئيس لها في خطابه أمام طلبة المدارس في بداية السنة الدراسية عام ١٩٥٠: «إن هذه الخريطة ـ خريطة فلسطين ليست خريطة دولتنا بل لنا خريطة أخرى عليكم أنتم مسئولية تصميمها.. خريطة الوطن الإسرائيلي الممتد من النيل إلى الفرات».

وسبق له أيضا أن قال مشجعا الهجرة اليهودية إلى فلسطين: «إن من يزرع شجرة هو الذي سيرث هذه الأرض ومن عليها».

لذلك.. فإن حكومة إسرائيل تتميز عن غيرها بأن وزير الدفاع يجب أن يتدرب في وزارة الزراعة قبل أن يمسك بزمام القوة العسكرية.. فالزراعة تعني الاستيطان.. والاستيطان يعني الدفاع عن الأرض.. ومن يتعلم الدفاع عن بيته يعرف كيف يدافع عن دولته.

ويوصف جيل المهاجرين بالرواد.. فقد ردموا مستنقعات.. وحرقوا أعشابًا.. وعاشوا حياة جماعية صعبة في كيبوزتات اشتراكية.. أما الذين ولدوا وكبروا هناك فعرفوا بجيل الصبرا.. والصبرا من الصبار.. النبات الذي يتحمل قسوة الجفاف وشدة الحراراة ويعيش على قطرات قليلة من الماء.

ولو كانت اليابان قد برعت في تصغير كل ما ينتجه العالم فإن إسرائيل برعت في تقليل كل ما تعيش عليه الكائنات الحية من مياه.. فهم لا يحسبون قيمة السلعة أو الثمرة بثمنها وإنما بعدد لترات المياه التي أنتجتها.. فالري عندهم بالتنقيط.. بالتقسيط.. نقطة.. نقطة.. باللمس لا بالغمر.. بالاقتراب لا بالاختناق.. وما نفعله نحن من سفه وتبذير وإهدار للمياه حماقة يتجنبونها.. وترف لا يقبلونه.. وتعجب من إرادة الله التي تعطي الحلق لمن لا أذن له.. وهو ما يجعلهم ينظرون إلى مواردنا المائية وهم يحلمون ويخططون ويصرون على أن يشاركونا فيها.

إن مشكلة إسرائيل المائية أن عينها بصيرة لكن يدها قصيرة.. فعند تقسيم خريطة فلسطين إلى أربعة مناطق.. سنجد:

المنطقة الأولى في الشمال منطقة غنية بالمياه.. فهي تضم بحيرتي الحولة وطبرية بجانب مياه نهر الأردن وروافده.

وسنجد المنطقة الثانية في الضفة الغربية غنية بالمياه الجوفية.

أما المنطقة الثالثة.. منطقة الساحل الفلسطيني فمخزون المياه الجوفية محدود.

لنصل إلى المنطقة الأخيرة.. صحراء النقب التي تشكل نحو ٤٥ ٪ من مساحة إسرائيل.. وهي فقيرة مائيًا.. إلا فيما ندر.

ولو كنا قد لاحظنا رغبة هرتزل في توصيل مياه النيل إلى سيناء كي تتكون هناك مستعمرة يهودية يستأجرونها من مصر ٩٩ سنة فإنه لا بد أنه بعد فشل المشروع كان عليه أن يبحث عن فكرة بديلة.. قبل إعلان دولتهم.. بل وقبل الكلام عنها.

في عام ١٨٧٣ استجابت بريطانيا لضغوط هرتزل.. وبعثت الجمعية العلمية في لندن بمجموعة من الباحثين والجيولوجيين إلى فلسطين برئاسة الجنرال تشارلز وارن لوضع خريطة للموارد المائية في فلسطين.. وبعد عامين عادت المجموعة إلى بلادها بتقرير اقترحت فيه نقل المياه الجوفية والسطحية من شمال فلسطين إلى صحراء النقب لريها.. وتحويل مجرى نهر الأردن إلى هناك أيضا.

وتحمست الحركة الصهيونية للفكرة لأنها ستتيح لها توطين خمسة ملايين يهودي على الأقل.. وإن دعت المهاجرين اليهود في نفس الوقت إلى أن يستقروا في فلسطين بجانب المناطق الغنية بالمياه.. خاصة على أطراف بحيرتي طبرية والحولة وبالقرب من أطراف نهر الأردن في الضفة الغربية.. حسب ما ذكر الدكتور فيصل الرفوع في دراسته السابق الإشارة إليها.

وتحت سلطة الانتداب البريطاني حصل اليهود عام ١٩٢٦ على امتياز شركة روتبنرج لاستثمار نهري الأردن واليرموك عند التقائهما لتوليد الكهرباء

والاستفاده من المياه.. وروتنبرج هو بنحاس روتنبرج.. وهو يهودي روسي.. حصل على امتيازه لمدة سبعين سنة.. وسبق أن أسس قبل ٣ سنوات شركة مياه فلسطين.. بهدف جذب مزيد من المهاجرين اليهود.

وفي عام ١٩٣٤ فازت الصهيونية بامتياز تجفيف بحيرة الحولة واستصلاح أراضيها.. وفازت بما يسمى امتياز مشروع إيونيدس.. وهو اسم مسئول التنمية الإنجليزي في حكومة شرق الأردن.. لإجراء الأبحاث المائية والجيولوجية في فلسطين.. وهي أبحاث انتهت رسميا في عام ١٩٤٧ باقتراح يهدف إلى تحويل جزء من نهر اليرموك في اتجاه الجنوب لري أكثر من ٤٥ ألف دونم في أراضي الغور الشرقي.. بالإضافة إلى تخزين المياه القادمة من اليرموك في بحيرة طبريا لري ٣٠ ألف دونم أخرى في نفس المنطقة.

وفي عام ١٩٣٧ أسست شركة تاهال اليهودية للمياه وأوكل إليها وضع المخططات الإستراتيجية للمياه في فلسطين والإشراف عليها.. وبعد ٥ سنوات مارست الوكالة اليهودية ضغوطها على بريطانيا لفتح أبواب الهجرة إلى فلسطين دون شروط أو قيود.. وضم جنوب لبنان إليها بما فيها من مصادر مائية مقابل مساندة الوكالة لها في الحرب العالمية الثانية ووقوفها بجانب الحلفاء.

وبعد إعلان الدولة في ١٥ مايو ١٩٤٨ نشر ما سمي بمشروع هيس الذي وضع سرا من قبل في عام ١٩٤٦.. ويهدف إلى تطوير شبكات الري والكهرباء في فلسطين.. وهو المشروع الذي طالب بتطوير نهر الحصباني في لبنان ببناء سد عليه.. ثم تحويله إلى فلسطين.. بجانب تحويل نهر اليرموك إلى طبرية.

وفور إعلان دولة إسرائيل سارعت حكومتها الأولى بتنفيذ الإستراتيجية المائية التي وضعتها من قبل كي تضاعف من مواردها الاقتصادية وتجهز البنية التحتية لاستقبال المهاجرين والمستوطنين الجدد.. وحسب ما قاله مناحم بيجن رئيس حزب حيروت (أساس كتلة الليكود اليمينية) فإن إسرائيل لا بد أن تحتفظ

بضفتي نهر الأردن «إلى الأبد».. وعندما قام إرييل شارون ـ وزير الدفاع ورئيس الحكومة فيما بعد ـ بغزو جنوب لبنان (١٩٨٢) كان يقصد ضمان ما سماه بأمن إسرائيل المائي.. ودعم كلامه ديفيد كمحي مسئول الموساد السابق وممثل إسرائيل في مفاوضاتها مع لبنان «إن انسحاب إسرائيل من لبنان مرتبط بحصولها على حصة من مياه نهر الليطاني».

وفي الوقت الذي رفضت فيه الولايات المتحدة تمويل مشروع السد العالي أعلنت حماسها لمشروع آريك جونستون مبعوث إيزنهاور الخاص إلى الشرق الأوسط.. ويتلخص المشروع في تجفيف بحيرة الحولة وزراعة أراضيها.. وبناء سد أو شق قناة لتحويل مياه الحصباني وبانياس والدان (روافد نهر الأردن).. وتحويل بحيرة جاريا خزانا لمياه نهر الأردن واليرموك.. ويكون توزيع المياه سنويا كالتالي: سوريا (٤٣ مليون متر مكعب) ولبنان (٣٥ مليون متر مكعب) وإسرائيل (٣٩١ مليون متر مكعب) والأردن (٧٧٤ مليون متر مكعب).. لكن بعد أن أصرت إسرائيل على رفع حصتها إلى ٥٦٥ مليون متر مكعب على حساب حصة الأردن توقف المشروع.

ولم تتوقف الخطط السبعية والعشرية الإسرائيلية ولم تتوقف مشروعاتها التي تهدف إلى الاستيلاء على نصيب الأسد من مياه الأنهار الضعيفة التي تمر بها وبدول عربية مجاورة.. وعلى رأسها نهر الأردن الذي حولت مجراه إلى صحراء النقب سرا في منتصف ستينيات القرن العشرين.. وهو أكبر المشروعات المائية الإستراتيجية التي نفذت على الأرض العربية.. لقد نجحت إسرائيل في نقل ما يعادل ٣٢٠ مليون متر مكعب من أجل استيعاب المزيد من المستوطنين.. ولتنفيذ المشروع جرى تجفيف بحيرة الحولة إضافة إلى تعميق مجرى نهر الأردن.

وحسب الدكتور فيصل الرفوع أطلق على المشروع «الناقل القطري» «حيث

نقلت مرحلته الأولى (١٨٠) مليون متر مكعب سنويا ثم ارتفعت الكمية إلى (٤٠٠) مليون.. واستوعبت المياه التي توافرت ٣ ملايين مستوطن جديد.

أما أخطر المشاريع فهو مشروع حفر قناة البحرين التي تربط بين البحرين المتوسط الميت.. والبحر الميت بحر مغلق.. مساحته ١٠٥ كيلومترات مربعة.. وأقصى طول له ٧٦ كيلومترا.. وهو أكثر مكان منخفض في الأرض.. حيث يقع تحت سطح البحر بنحو ٣٩٢ مترا.. وعمقه في أقصى الشمال ٤٥٠ مترا.. وفي أقصى الجنوب مترا واحدا.. وقد زرته من جانب الأردن.. ووجدت أنه تحول إلى منطقة سياحية علاجية.. حيث تزيد نسبة الأكسجين إلى حد إصابة الزوار بالنعاس شبه الدائم.

أما فكرة القناة فقد وضعها مهندس سويسري اسمه ماكس بوركارت.. تهود بعد ذلك وسمى نفسه إبراهام بن إبراهام.. وقصد بها ربط البحرين الأحمر والمتوسط بقناة اتصال عبر البحر الميت إلى خليج العقبة.. ووضع بيجن حجر أساس المشروع في ٢٨ مايو ١٩٨١.. ويتكلف المشروع ٨٠٠ مليون دولار.. وينفذ في نحو ١٠ سنوات.. ويولد طاقة كهربائية تصل إلى ٦٠٠ ميجاوات وتوفير مياه للتحلية بالطاقة النووية.. وترى مصر أن تلك القناة لن تؤثر على كثافة الملاحة في قناة السويس.

لكن.. تلك المشروعات وغيرها لم تمنع إسرائيل من التعاون مع تركيا في الشمال.. وأثيوبيا في الجنوب الشرقي.

كانت تركيا أول دولة إسلامية تعترف بإسرائيل.. وسمحت للدولة المغتصبة بافتتاح مكتب قنصلي لها في إستنبول لتسهيل هجرة يهود الدونما هناك.. إضافة إلى تسهيل مرور يهود روسيا الوسطى والاتحاد السوفيتي عبر أراضيها.. وقويت العلاقات الإستراتيجية بين الطرفين بتشجيع من الولايات المتحدة.. لكن.. ما يهمنا هنا التعاون المائي بينهما من خلال العديد من المشروعات المشتركة..

وعلى رأسها مشروع تركيا لتزويد إسرائيل بمياه الشرب سواء عن طريق السفن أو الأنابيب الناقلة.. وهي مياه مقتطعة من حصتي سوريا والعراق من نهري دجلة والفرات.

ومدت تركيا ما سمي بأنبوب السلام لنقل فائض مياه نهري سيحان وجيحان إلى سوريا والأردن والسعودية والكويت وباقي دول الخليج وإسرائيل فيما بعد عبر خطين متوازيين بتكلفة تصل إلى ٢١ مليار دولار بأسعار ١٩٨٦ وهي السنة التي أعد فيها المشروع.

وهناك مشروع آخر يسمى المنافجات لنقل مياه السد الذي يحمل نفس الاسم قرب أنطاكية على ساحل البحر المتوسط بواسطة جالونات بلاستيكية إلى إسرائيل.. وتبلغ كمية المياه المقترحة حوالي ٣٠٠ ـ ٤٠٠ مليون متر مكعب سنويا.. ولمدة ٢٠ سنة.. وتبلغ التكلفة ٢٠٠ مليون دولار.. والمشروع إسرائيلي ـ تركي يهدف إلى تقوية العلاقات التركية ـ الإسرائيلية.. ويؤثر في الوقت نفسه على الأمن القومي العربي سلبا.

لكن.. العلاقات الإسرائيلية ـ التركية انشرخت بعد أن جاءت الأحزاب الإسلامية، إنها حزب رجب طيب أردوجان، وبعد أن هاجمت قوات الكوماندوز الإسرائيلية قافلة سفن الحرية التي كانت تحمل المؤن للفلسطينيين المحاصرين في غزة.. رفضت إسرائيل صيانة القوات المدرعة (بقيمة ١٠ مليارات) وسعت أمريكا لتسوية الخلافات بين أنقرة وتل أبيب، وإن بدت هذه التسوية مستحيلة ولو مؤقتًا.

وعلاقة إسرائيل بأثيوبيا أخطر على حد رصد الدكتور فيصل الرفوع.. فقد جعلت من أثيوبيا جزءا من معادلتها الإستراتيجية لتنفيذ مخططاتها وأطماعها التوسعية.

ويمثل البحر الأحمر أهمية خاصة لهما.. فهو منفذهما الوحيد إلى العالم ولو

عبر دول أخرى.. فقد احتلت إسرائيل أبو الرشراش المعروفة الآن باسم إيلات على خليج العقبة عام ١٩٤٩.. ونجحت أثيوبيا في الوصول إلى البحر الأحمر عبر إريتريا التي اتحدت معها عام ١٩٤٢.. وهكذا خرجا من عزلتهما.. واتصلا بالعالم الخارجي.

وبعد تحرر إريتريا طورت إسرائيل وأثيوبيا علاقتهما معا في شتى المجالات.. بهدف تحجيم السيطرة العربية على البحر الأحمر.. ووضعت شواطئ إريتريا وجزرها تحت الهيمنة الثلاثية: الأمريكية والإسرائيلية والأثيوبية.. وفي العاصمة أسمرة وضعت إسرائيل محطات تجسس على الاتصالات.. ورصدت واحدة منها المكالمات التليفونية التي جرت بين الرئيس مبارك وعائلته وهو في الطائرة عائدا من أديس أبابا فور تعرضه لمحاولة الاغتيال هناك.

على أثر ذلك بدأت البعثات الجيولوجية الإسرائيلية وبدعم من المؤسسات السياسية الأمريكية بالتوافد على أثيوبيا وباقي دول حوض النيل واقترحت مشروعات مائية لا حد لها هناك.

في عام ١٩٦٢ مثلا: قام «المكتب الأمريكي لاستصلاح الأراضي الزراعية» بوضع دراسة موسعة لاستصلاح الأراضي الأثيوبية على الحدود السودانية.

وفي عام ١٩٧٤ مثلا: سعت إسرائيل لاستثمار سبعة مليارات متر مكعب من مياه النيل سنويا في أوغندا وأثيوبيا ببناء ٣٥ سدا على النيل الأزرق لري ٤٠٠ ألف هكتار وإنتاج ٩٣٨ مليار كيلوات كهرباء.

ورغم نفي إسرائيل قيامها بالعدوان المائي على مصر إلا أن شركة تاحال أكدت على العلاقات الإستراتيجية للتعاون المائي بين إسرائيل وأثيوبيا.. وأعلنت الشركة عن قيامها بمشروعات خاصة في إقليم الأوجادين (الصومالي المحتل بقوات أثيوبية) لحساب البنك الدولي.

ولا تعتبر دول حوض النيل خاصة أثيوبيا التعاون مع إسرائيل جريمة.. وتعتبر

نقدها ولومها في هذا الشأن نوعا من الوصاية عليها.. كما أنها تتعجب من أن يأتي النقد واللوم من مصر التي وقعت معاهدة صلح مع إسرائيل وتتبادل معها تمثيلا دبلوماسيا على أعلى مستوى.. ويشتد تعجبها مع إهمال المصريين لمصالحهم الحيوية على أرضها وكأنها لا تعنيهم.. يضاف إلى ذلك أنهم لا يساعدونها في علاج متاعبها ويرفضون أن تتولى إسرائيل هذه المهمة.. فلا هم يرحمون.. ولا هم يتركون رحمة السماء تنزل عليها.

وترى إسرائيل أن مصر سدت في وجهها الباب فقررت أن تدخل من الشباك.. رفضت أن تمد النيل إليها.. ورفضت أن تبيع لها حصة من المياه التي تصل إليها.. فقررت إسرائيل أن تلاعبها في المنابع بتحريض أثيوبيا وكينيا وأوغندا عليها.. فإذا ما استجابت مصر لطلبات إسرائيل.. رضيت دول المنابع عنها.

وتختار إسرائيل في أثيوبيا وغيرها من دول المنابع أنشطة مؤثرة وغير مكلفة.. منها حماية الرؤساء.. وعلاجهم.. ورعاية أسرهم.. ومنها بناء ملاعب رياضية يستعملها الشباب.. ومستوصفات علاجية يتردد عليها الكبار.. وقد نجحت إسرائيل في الضغط على رئيس كينيا للتوقيع على الاتفاقية الجديدة المضادة لمصر قبل أن يأتي إلى القاهرة في منتصف مايو ٢٠١٠ بعد أيام من التوقيع.. لتثبت لنا أنها طرفا فيما يجري.. وأن علينا أن نتعاون معها فيما تريد ولو بتوصيل مياه النيل إليها.

والحقيقة أن فكرة توصيل مياه النيل إلى النقب لم تمت بموت هرتزل.. فقد ظلت دائما حية في الحلم والعلم.. وليس أدل على ذلك من مشروع المهندس اليشع كلي الذي نشرت تفاصيله صحيفة معاريف في ٢٧ سبتمبر ١٩٧٨ بمناسبة توقيع معاهدة كامب ديفيد.. وقد ترجم كامل زهيري ما جاء في الصحيفة من تفاصيل تستحق أن نتذكرها في كتابه سابق الإشارة إليه.

يعمل اليشع كلي في شركة تاحال.. وهي شركة مساهمة تمتلك الحكومة

الإسرائيلية نحو ٥٢ ٪ من أسهمها ويملك الباقي مناصفة الوكالة اليهودية والصندوق القومي اليهودي.. وهي واحدة من ست هيئات مهمتها رعاية المياه وتنميتها.. منها.. وزارة الزراعة المختصة بحفر الآبار واستغلال المياه.. وشركة ميكورت المملوكة بالتساوي للحكومة واتحاد العمال (الهستدرودت) وتنفذ ما تخطط له شركة تاحال.

وسبق للرجل أن درس لمدة عام تخطيط وتطهير الأنهار في نيكاراجوا.. وهو ما يعني أنه خبير فيما يقول.. وسبق له أيضا أن نشر فكرته في مجلة أمريكية تسمى «أوت» فور إيقاف إطلاق النار في حرب أكتوبر ١٩٧٣.. تحدث فيها عن بيع مياه النيل إلى إسرائيل.. ثم أعادها في معاريف تحت عنوان «مياه السلام» بعد أربع سنوات.. قائلا: «إن مبادرته هي الحل الوحيد لمواجهة مشكلة نقص المياه في إسرائيل».

ويضيف: «إن حل المشكلة موجود في جلب المياه من نهر النيل إلى النقب الشمالي».. إن «هذا شيء منطقي ليس فقط على خريطة وهمية لا توجد فيها حدود سياسية بل أيضا على خريطة واقعية بها حدود سلام».

«وتنفيذ المشروع ـ لا يتطلب فقط ظروفا سياسية مثل تلك الظروف القائمة الآن ولكن لا بد أن تكون هناك أيضا فائدة اقتصادية من المشروع».. «إن هناك دولا كثيرة مستعدة للمتاجرة في مورد طبيعي حتى مع دول معادية مثل الصين التي تبيع المياه لعدوتها هونج كونج».. «والفائدة التي يمكن أن تقدمها مصر في حقيقة الأمر نابعة من هذا الاتجاه ومن أن تبيع مياه زراعة القطن لإسرائيل وبنفس الثمن الذي تبيع به القطن نفسه».. «وهذا شيء نافع لإسرائيل حيث يستطيع المزارع الإسرائيلي أن ينتج بواسطة متر مكعب من المياه ستة أضعاف ما ينتجه الفلاح المصري من القطن بنفس الكمية».

وتعلق معاريف على الفكرة فيما بعد قائلة: «إن مشاكل المياه في إسرائيل

يمكن أن تحل على المدى البعيدة بتحويل واحد في المئة من مياه النيل إليها سنويا».. وهي إشارة خبيثة إلى إهدار مياه النيل في مصر.. «فبعض ما يفقد في البحر يمكن أن ينقذ حياة دولة بأكملها هي إسرائيل».

«كل ما على مصر أن تقدمه ٣٠ متر مكعب من المياه في الثانية لنقله عبر أنابيب تحت قناة السويس عند الإسماعيلية وما إن تصل المياه إلى الضفة الأخرى للقناة تصب في قناة مبطنة بالخرسانة على طريق القنطرة ـ العريش.. ومن هناك تسير بمحاذاة طريق العريش ـ غزة حتى خان يونس.. ومن خان يونس يتشعب مجرى مياه واحد إلى قطاع غزة.. ومجرى آخر إلى النقب في اتجاه بئر سبع».. و«بهذا تكون القناة من الإسماعيلية إلى خان يونس بكل تفرعاتها حوالي ٢٥٠ كليومترًا».

وتضيف معاريف: إنه «عندما نشر مقال اليشع كلي حسب كثيرين أنه ضل الطريق.. ولكنه ـ على حد قوله ـ يرى أن كل من يمعن النظر في المشروع بعيدا عن الظروف السياسية سيكتشف أنه مهم وجدير بالدراسة.. واليوم نجد أن هناك إحساسا يفسر الكثير من الإقرار بأن هذا المشروع وليس طائشا.. كما بدأ عند نشره أول مرة عام ١٩٧٤».

وقد بدأت شركة تاحال في استيعاب المشروع وتجهيزه ووضع خطط تنفيذه واختيار الوقت المناسب لتحويله من حلم إلى حقيقة.

والواقع أن إسرائيل لن تسكت حتى تنفذ المشروع.. خاصة وأن مصر بادرت بمد سحارات المياه تحت القناة تحت الإسماعيلية كما طالب المشروع.. ومدت ترعة السلام إلى الجانب الآخر.. بدعوى زراعة سيناء وتعميرها ونقل سكان من الوادي إليها.. وهو هدف إستراتيجي نبيل.. لكن.. ما يثير الريبة أن ترعة السلام لم تحقق شيئا مما شقت من أجله.. فهل شقت من أجل إسرائيل في انتظار الوقت المناسب لتوصيل مياه النيل إليها؟.. أعتقد أن ذلك لو لم يحدث اليوم سيحدث

بعد سنوات وسنوات.. فقد عودتنا إسرائيل على أن تحقق ما تعلنه ولو بعد عقود طويلة.

ولاستكمال الخريطة المائية الإسرائيلية لا بد أن نتعرض للتعاون الأمريكي معها في إزالة ملوحة البحر.. وفي الملف السري لوثائق البرنامج النووي المصري أيام جمال عبد الناصر تقرير كنت أول من نشرته، كتبه صلاح الدين هدايت رئيس هيئة الطاقة الذرية بعد عودته من مؤتمر متخصص في جنيف رفعه إلى رئاسة الجمهورية.

قال: إنه «أثناء انعقاد المؤتمر الثالث للطاقة الذرية في جنيف في سبتمبر سنة ١٩٦٤ فاجأتنا أمريكا بإعلان «برنامج التعاون المشترك بينها وبين إسرائيل وحاولت أن تخلق منها ـ أمام الدول المختلفة ـ دولة علمية من الطراز الأول وعلى مستوى أمريكا حيث إنها شريكتها في تنفيذ برنامج إزالة الملوحة».

«ومن حسن الحظ أن أمريكا وإسرائيل تعجلتا إعلان الاتفاقية.. لكشف ما بينهما.. ومن حسن الحظ أن وفدنا اشترك في المؤتمر.. فقد حصلنا على كافة الدراسات والأبحاث.. وكان ذلك تحديا من جانبنا للدولتين.. مما دعا رئيس الوفد الأمريكي أن يطلب مقابلتي في مناقشة انتهت بعرض منه باشتراك أمريكا في برنامج تعاون لإزالة الملوحة».

«نجحنا في إقناع رؤساء الطاقة الذرية الأمريكية أن منطقة الشرق الأوسط وهي إحدى المناطق الجرداء الهامة في العالم والتي يسكنها ١٣ دولة عربية ولن يتمكن أي عربي من التعرف على أي مجهودات أو نجاحات في هذا الميدان يكون وليد التعاون بين أمريكا وإسرائيل وأنه من الأنسب أن تكون أرض التجربة في الدول العربية وتتاح الفرصة بهذه الدول العربية للاطلاع عليها والاستفادة منها».

«الإمكانيات العلمية المحلية بمصر ومناسبة المكان الذي اختارته المؤسسة لعمل التجارب الزراعية في الساحل الشمالي الغربي لمصر غير متوافرة في أي

بلد آخر.. وكذلك الطريقة التي رسمت بها التجربة والتي جعلت لأول مرة في التاريخ مياه البحر ـ بعد إزالة ملوحتها ـ تصلح من الناحية الاقتصادية للري والزراعة».

«كل هذه العوامل هي التي جعلت أمريكا تتعلق بالمشاركة في هذا المشروع بل وسارعت الوكالة الدولية للطاقة الذرية وطلبت رسميا المشاركة كذلك فيه».

«قررت الأمم المتحدة أن موضوع إزالة ملوحة مياه البحر هو أحد المواضيع ذات الأولوية والتي يجب أن يركز جهد عالمي لحلها حيث إنها السبيل الوحيد لحل مشاكل الغذاء أمام البشرية كما قرر المجلس الاقتصادي والاجتماعي رصد المبالغ اللازمة لحل هذه المشكلة».

«وسوف تقوم اللجنة الاستشارية للأمم المتحدة بتحديد نقاط البحث وتوزعها على البلاد التي لديها الإمكانيات والأجهزة العلمية والتي تستطيع بها المشاركة في هذه البحوث ـ وخاصة الدول النامية والتي سوف تنفذ هذه البحوث فيها وأعتقد أن هذه الفرصة يجب ألا تترك نهبا لإسرائيل وحدها دون المشاركة فيها».

«شعور الجانب الأمريكي بأنه تسرع وقام بالتعاون في إزالة ملوحة البحر مع إسرائيل قد مس التوازن السياسي في الشرق الأوسط الأمر الذي جعل المسئولين الأمريكيين يحاولون إعطاء الدول العربية ما لا يقل عما أعطي لإسرائيل».. ولكن الحقيقة أن الدول العربية لم تستغل هذه الفرصة التي انفردت بها إسرائيل وحدها في ذلك الوقت.. أما مصر فكان لا بد من ضربها وتوريطها فيما يشغلها عن برنامجها النووي سواء للسلم أو للحرب.. وهكذا.. دبرت هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ .

ولو كان كل ما قرأت مؤلما وموترا فقد حان الوقت لنستريح قليلا في رحلة سياحية وبشرية إلى منابع النيل الأبيض.

نقطة من أول السطر.. أو من أول قطرة في النهر.

الفصل العاشر

قبل أن تضرب البلياردو تذكر أن فيلا قتل لتستمتع باللعبة!

لو أردت أن تستمع.. وتتعلم.. وتفهم الدنيا على أصولها.. وتستفيد من السفر.. فصاحب هبة عنايت.

هبة عنايت فنان تشكيلي بارع.. ولد في أسيوط.. منتصف الصعيد.. تخرج في كلية الفنون الجميلة.. سافر في بعثة إلى الصين الشعبية هو وزوجته تماضر ترك فور تخرجهما.. تعلم من أهلها الدقة والصبر والنفس الطويل وهدوء الأعصاب وراحة البال.. ومن شدة حبه لهم.. أصبحت ملامحه مثل ملامحهم.. وزيادة في التشبه بهم رسم شاربه على طريقتهم.. أكثر من ذلك تحمس للماركسية الماوية مثلهم.. وهي مختلفة عن الماركسية اللينينية التي آمن بها السوفيت.. الذين سقطت إمبراطوريتهم الحمراء وتفتت لدويلات.. أما الصينيون فقد كانوا أقل تشددا وأكثر مرونة فلم ينكسروا بل استولوا على أسواق أعتى الدول الرأسمالية.. أنتجوا سلعا رخيصة سحقت منافسيهم.. وأقرضوا الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ٣٠٠ ترليون دولار.. ووضعوا مصيرها في أيديهم.

عندما عاد هبة عنايت من البعثة لم يجد سوى مؤسسة روز اليوسف تستوعب مواهبه الحرة في الرسم والكتابة والتصوير الفوتوغرافي.. والأهم موهبته الفائقة في سرد الحكايات والنكات التي يدس فيها ذخيرته الهائلة من المعلومات التي

تحتفظ بها ذاكرته القوية.. المذهلة في استيعاب التواريخ والأسماء وأبيات الشعر العمودي.

لو طلبت فنجان قهوة في مكتبه حكى لك قصة شجرة البن من الشتلة إلى الثمرة.. ولو تناولت طعام العشاء وأبديت إعجابا بكؤوس الشرب وجدته يروى لك قصة صناعة الزجاج من النفخ في النار إلى حفر تماثيل الكريستال.. ولو سألته عن الأيقونة القبطية الزرقاء التي يعلقها في سيارته لا يتردد في سرد قصة المسيحية من فزع السيدة مريم العذراء من حملها بالمسيح إلى البابا شنودة بطريرك الكنيسة القبطية في مصر.. ورغم سهولة تدفق المعلومات فإنه لا يخطئ في تاريخ.. أو يتجاهل اسما.. أو يعبر التفاصيل عبور الكرام.

وقد أسسنا معا مجلة «الوادي».. مجلة مصرية سودانية.. تمويلا.. وتحريريا.. وتوزيعا.. وهي تجربة صحفية غير مسبوقة.. تشترك فيها روز اليوسف في القاهرة.. ودار الصحافة في الخرطوم.. وقد وفرت لنا فرصة السفر معا إلى أقاليم السودان المختلفة.. وشجعت على الوصول إلى شرق إفريقيا.. عند خط الاستواء.. حيث كينيا وأوغندا وبوروندي.. وهي من دول حوض النيل.. قضينا هناك شهرا لم نشعر فيه بالملل.. فكل ما أراه غريب.. وكل ما أسمعه منه مثير.. وكل ما نعيشه معا يكتم الأنفاس.. وما إن عدت إلى القاهرة حتى وجدتني أمتلأ زهوا.. فقد بددت جهلي بقلب إفريقيا التي تأتينا منها المياه.. إن السواد الذي توصف به القارة يأتي من مناجم الظلام في عقولنا لا من لون بشرة أبنائها.

إن تلك المنطقة الحيوية بالنسبة إلينا تكاد تكون مغلقة.. يحاصرها المحيط الهندي في الشرق.. وتفرض عليها البحيرات العظمى نفسها في الغرب.. وتسد جبال الحبشة عليها المنافذ في الشمال وتفصلها عنها صحراء صخرية مهجورة.. وتلعب بحيرة تنجانيقا ومالاوي دور الحاجز الطبيعي في الجنوب.. بجانب أنهار صغيرة تزيد من صعوبة اجتياز ذلك الحاجز.

ويصر هبة عنايت مستندا إلى مراجع لم أذكرها أن الفراعنة أرسلوا حملات إليها كي يحصلوا على الأبنوس والعاج والعبيد وأنهم وصلوا إلى منابع النيل قبل خمسين قرنا.. وعندما وصلنا إلى بعض مناطق القبائل كان يسعى جاهدا للتدليل على صحة نظريته.. «انظر إلى الحلي التي ترتديها تلك المرأة أليست مثل الكردان الذي ورثته الفلاحة المصرية عن الفراعنة».. «أتحداك أن تنكر أن هذه الحربة التي يصطادون بها السمك من البحيرة تختلف عن ما هو منقوش على معابد الأقصر وأسوان».. «شوف تلك الآلة الموسيقية هل تختلف عن ما كان يعزف به أجدادنا أنغامهم؟».

فيما بعد صدقت أن عنده حق.. ففي كتاب أميل لودفيج عن النيل يقول بالنص: إن آلة حصاد القمح جاءت إلى العشائر الأوغندية من بعيد.. من حضارة دلتا النيل.. بدا كشعاع عبقري.. ينير أناسا لم يسمعوا عن وجوده قط.. ولو كان هناك شك أن المصريين وصلوا إلى هنا فمن أين أتي هذا الثور المستقيم الظهر والعظيم القرنين الذي يسير بين زنوج خط الاستواء كما عرضته صور الجدر المصرية القديمة؟.. ومن أين عرف ملوك الزنوج ذلك العزف على البوق المصنوع من قرن الوعل الذي كان الفراعنة يمجدونه؟

«لا ريب أن حضارة مصر كانت من القوة ما تؤثر معه في القبائل الحامية العربية بطريق الصومال والحبشة حيث تبصر آثارها باقية.. وقد سارت القبائل إلى الأرض الخصيبة حول منابع النيل تبعا لموجات من الحروب والمجاعات فنفذت الحضارة بذلك في الزنوج الذين كانوا يجهلونها كما كانوا يجهلون الإنسان الأبيض».

لكن.. ما إضافة الفراعنة من حضارة خصمه العرب بالعبودية.. إن تجارة الرقيق التي مارسوها بوحشية جعلت الأفارقة سلعة رائجة في بلاد الرجل الأبيض.. وحفرت تاريخا طويلا من العنصرية لم يخفت رغم كل ما يقال عن المساواة..

لقد ورث تلك التجارة المربحة عنهم البرتغاليون والفرنسيون والهولنديون والبريطانيون.. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية أهم سوق لتحقيق ثروات هائلة منها.. ويكفي أن هناك عشرين مليون إفريقي جرى شحنهم وتصديرهم إلى هناك.. مات نصفهم في الطريق.

لقد جاء تجار الرقيق العرب من زنجبار في منتصف القرن التاسع عشر ليشتروا عبيدا من ملك الزنوج الذي كان يتباهى ببشرته الفاتحة وشعره المسدل ولحيته المهذبة بين نسائه الثلاثمئة.

وما إن انتهت النخاسة البشرية حتى قفزت النجاسة الاستعمارية.. إن المواد الخام حرضت الدول الأوربية على اكتشاف المنطقة ورسم خرائطها.. وتكونت في لندن جمعية تنشيط الاستكشافات الإفريقية.. شجعت جيمس بروس على كتابة أول تقرير علمي حديث عن النيل الأزرق في أثيوبيا عام ١٧٨٨.

وجد البيض الإنجليز الذين وصلوا إلى أوغندا عام ١٨٦٠ قوما يعيشون في أكواخ مستديرة مصنوعة من ليف شجر الموز المجدول فنيا.. وكانت سقوفها على شكل قباب.. ويسكنها رجال ونساء يلبسون جلودا.. وينشئون سدودا من جذوع النخل.. وطرقا محددة بسيقان الأشجار الرفيعة.

لم يكن شعبا همجيا كما صوروه.. فالقتل كان جزاء الرجل الذي يذهب إلى السوق كاشفا عورته.. فلا يخلع الرجل جلود الحيوانات إلا في الزوارق أو في الحروب.. وكانت النساء يقمن بالزراعة والطحن والطهي.. ويحتفظن بالسمك واللحم في ورق الموز.. ويصنعن النعال من جلد الجاموس.. ويلغن درجة من التمدن جعلتهم يغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده وقبل شرب القهوة.

«ووجدوهم يزرعون ثلاثين نوعا من الموز.. وهم يأكلونه طازجا.. مسلوقا.. ويشربون خمرا.. ووجدوهم يسقفون بيوتهم بسعف النخيل.. ووجدوهم يربون أطفالهم على احترام الكبير والضيف والمرأة».

ومع أننا هبة عنايت وأنا عرفنا بسهولة أن البانتو هو العرق الزنجي المسيطر إلا أننا فشلنا في معرفة سر هجرة القبائل السامية إلى كينيا قبل نحو ١٥٠٠ سنة.. ولكننا عرفنا أنهم حملوا معهم حوالي ثلاثين ألف عربي من مناطق سلطنة عمان ودولة الإمارات فيما بعد ليختلطوا بقبائل البانتو الحاكمة وخرجت منهم جميعا لغة خاصة.. السواحلية.. خليط من العربية والبانتونية.. ولسهولتها أصبحت اللغة الرسمية في تانزانيا وكينيا وتنتشر في أوغندا وبورندي ورواندا.

ولو لم أكن متأكدا أن هبة عنايت من أسيوط لتصورت أنه من كينيا.. فهو يعرف عاصمتها شبرا.. شبرا.. ويتكلم جملا كاملة من السواهيلي.. أو السواحلية.. ويجيد التعامل مع خشونة أهلها بسبب الفقر ويعرف ما يسعدهم.. وما يفزعهم.

كنا نمشي في الشارع التجاري بالعاصمة الكينية.. شارع توم موبويا.. عندما قرر أن يصيبني بالذعر.. طلب مني أن أصوره مع امرأة تحمل طفلها.. وما كدت أن أصورهما معا حتى وجدت المرأة تخفي طفلها تحت ملابسها وتصرخ في وجهي.. ومن شدة المفاجأة كادت الكاميرا أن تسقط مني على الأرض.

لقد خشيت المرأة من أن يصيب السحر الذي اعتقدت أنه يخرج من شيطان الكاميرا طفلها.. وهي وغيرها يعتقدون أن الصورة التي تلتقط لهم تأخذ جزءا من روحهم وحياتهم وتذهب به إلى الجحيم.

ولا بد أن هذه المرأة جرت من أمامنا إلى أقرب ساحر كي تستعيد ما فقد من روحها وروح طفلها.. والسحر مهنة هنا.. مثل الطب والمحاماة والهندسة.. وتنشر الصحف المحلية إعلانات عن زيارات السحرة الأكثر خبرة ومواعيد الكشف وكيفية الحجز.

وفي كتاب إميل لودفيج أن المياه ليست وحدها هي ما ربطت بيننا وبينهم.. وإنما السحر أيضا.. فهناك تعاويذ مشتركة.. لا نعرف من علمها للآخر.. لو أراد رجل أن تمقته امرأته كي يتزوج بغيرها فكل ما عليه أن يدفن بيضة وضعت يوم

أربعاء في قبر بعد أن يضع عليها اسم إحدى الأرواح الشريرة.. وتعلق المرأة الحامل هنا وهناك صور رجال يتمتعون بالوسامة كي يكون مولودها حسن الهيئة.. وتؤكد ذلك بتعاويذ تغطي بها رقبتها وذراعيها.. ولو وضعت بنتا فإنها تعد مدنسة ثلاثين يوما.. تزيد إلى أربعين لو وضعت ولدا.. لكن.. لا نعرف هل هذا بسبب أهمية الذكر.. أم أن الذكر أكثر ميلا للدنس؟

ولو حملت المرأة ثانية علقت في رقبة ابنها الأكبر «حجابا» لكيلا يحسد أخاه الأصغر قبل أن يأتي.. ولو كان الرضيع نحيفا.. ضعيفا.. أتوا به إلى شاطئ النيل ليلقوا فيه ثمار فاكهة مع دعاء على لسان الطفل أن تصبح قوته في عمق النيل.

وهم يحتفلون بعيد يسمى ستايو.. يمسكون فيه بالحراب يطعنون فيها الهواء مئات الطعنات.. والكبار منهم يضاعفون العدد.. والحقيقة أن تلك الطعنات المتكررة إلى حد الجنون توجه إلى صدر الموت.. بعدها لا بد أن يضاجع الواحد منهم ما يقدر عليه من النساء.. والأفضل أن يكن أبكارا.

وأغلب الظن أن ستايو هو ست.. إله الشر عند الفراعنة الذي اخترعه رمسيس الثاني عندما بلغ من العمر ثمانين سنة احتفالا برجوعه إلى الشباب.. وقد داوم على الاحتفال حتى التسعين.. وكانت كل مسلة تنصب تذكارا لذلك الاحتفال يكتب عليها طلبات إلى الآلهة بزيادة العمر والرجوع إلى الشباب.. وكانت تزخرف بنقوش من الذهب والفضة.. تعكس أشعة الشمس.. وضوء القمر.. وتملأ البلاد نورا.

وقد عاش رمسيس الثاني مئة عام.. وكان في عائلته الملكية من أنجب ١١١أنثى و٥٩ ذكرا.. ولكن.. الدكتور زاهي حواس ينكر ذلك.. خوفا من أن نطالبه بروشتة ست التي يحتفظ بها لنفسه.

إن انتشار الإسلام والمسيحية لم ينقذ الناس هناك من بقايا الوثنية.. خاصة في مناطق البراري والقبائل الشهيرة مثل الماساي.. حيث يؤمنون بأن السحر الذي

يدمنونه هو مفتاح حياتهم في الرزق ونزول المطر والزواج والإنجاب والتعامل مع الحيوانات المفترسة.

وتشتهر الماساي بقوة القلب وجرأة التعامل مع الأسود.. وتأتي بهم بعض الفنادق ليقدموا عروضهم أمام السياح.. يمسكون بفك الأسد في شجاعة مذهلة.. ويضعون رؤوسهم بين فكيه دون أن يضغط بأنيابه عليها.. إن ملك الغابة أمامهم فأر صغير.

والسبب أن الأسد لا يهاجم إلا الخائف والجبان ولو كان جائعا.. لكنه.. لو تذوق لحم إنسان لا يأكل غيره.

لكن.. المفاجاة الأهم هي نيروبي نفسها.. إنها مدينة حديثة على غير ما توقعت.. أكثر تنظيما واحتراما للأصول من القاهرة نفسها.. لا شعبطة على الأتوبيسات.. مخالفة السيارة لقواعد المرور مرة واحدة تفقدها لوحاتها.. وتهدد سائقها بالحرمان من القيادة خمس سنوات على الأقل.. والجريمة الأصعب.. قطف الزهور.. عقوبتها السجن أسبوعا.. يقضيه المحكوم عليه في زراعة منطقة صحراوية معزولة بنفس شجرة الزهرة التي قطفها.. فلا داعي أن نتصور أننا أكثر رقيا من الأفارقة.. هذه خدعة يجب أن نفيق منها.. خرافة لا بد من أن ننبذها.. ونتجاوزها.

وإن كنت لا أنصحك بالسهر خارج الفندق ليلا.. فغياب برامج حقيقية للتنمية في بلاد لا تعيش إلا على الزراعة والرعي وليس بها مواد خام ضاعف من بطالة الأجيال الجديدة التي وجدت في مطاوي قرن الغزال أسهل وسيلة لكسب العيش.. أما الفتيات فإلى أقدم مهنة في التاريخ.

والرجل في القبائل من حقه الزواج بأي عدد من النساء.. وما يشجع على ذلك أن عدد النساء يجاوز ضعف عدد الرجال.. والسبب يسهل التوصل إليه.. الحروب التي لا تتوقف.. كما أن المنتصر لا يتردد في قتل رجال المهزوم.. وفي

الوقت نفسه تصبح نساؤهم جواري.. لذلك فالمرأة في الأدغال أرخص دوما مما في أي مكان آخر.. الواحدة منهن كانت تساوي ثلاثة ثيران.. ثم أصبحت لا تساوي أكثر من حذاء واحد.. وفي المدينة يسهل الحصول عليها بأقل من خمسة دولارات.. وعلبة سجائر مارلبورو.

وبسبب نقص الذكور يقوم الرجل بالطبل أمام بيته شهرين إذا ما أنجب صبيا داعيا بذلك أصدقاءه إلى الشراب.. وهذه العادة تكثر في منطقة تسمى الباهيما.. وهي تشبه الشرقية في كرم أهلها.. فكل من يمر عليها يدعونه إلى كل شيء.. كل شيء.. بما في ذلك فتاة عذراء جميلة وصغيرة.

ويتذكر الأوغنديون والكينيون ملكا قديما بكل الإعجاب والتقدير والإجلال.. يسمونه متيزا.. فقد أنجب ٧٠٠ ولد.. وامتلك ٤٠٠ زوجة.. وعشرة آلاف جارية.. أرسل ١٩٠٠ منهن إلى السوق لبيعهن.. وعرف كيف يجني من الهدايا البشرية التي تقدم إليه مالا.. وعندما مرض ذبحوا كل يوم مئة غلام فداء لروحه.. في حالة مؤلمة من حالات العنف المقدس انقلبت فيما بعد إلى عنف إجرامي مخيف.

في شتاء عام ١٩٩٣ قمت برحلة ثانية إلى نيروبي قادما من جوهانسبرج في طريقي إلى سيشل حيث نفي سعد زغلول قبل أن يعود إلى مصر حاملا لقب زعيم الأمة.. ونزلت في فندق هيلتون.. لكن.. قبل أن أضع المفتاح في باب غرفتي.. تسلمت من موظف الاستقبال قائمة طويلة من التحذيرات.. أكثرها إثارة أن أجد في غرفتي فتاة عارية.. فقد نجحت عصابات الرقيق الأبيض في تقليد مفاتيح الفنادق السياحية المميزة.. وتساءلت بيني وبين نفسي ترى ماذا أفعل لو وجدت مثل هذه المفاجأة في فراشي؟.. وأحتفظ بالإجابة.

لكني.. صادفت في ذلك الوقت مصمم الأزياء الفرنسي بيير كاردان.. جاء يستوحي من الثياب والأكسسورات الإفريقية خطوط موضة مثيرة تجن بها نساء

يقدرن على دفع عشرة آلاف دولار في الثوب.. بينما المرأة الملهمة لا تجد عشرة آلاف حبة ذرة تسد بها جوع أطفالها.

ودون أن أعرف السبب وجدت إقبالا هائلا لشراء العاج.. إنني لا أفضله ولو قطعة صغيرة منحوتة على شكل تمثال يوضع في بيتي.. والعاج هو نابا الفيل.. ولا بد من صيده برصاصة واحدة قاتلة لنزعهما منه.. ولو طاشت الرصاصة هاج الفيل الذي يتسم بالوداعة ودمر كل ما حوله.

لم أكن أعرف أن سر ارتفاع سعر العاج أنه يستخدم في صنع كرات البلياردو الثمينة في بيوت الأغنياء.. والبلياردو لعبة عمرها أكثر من ٤٠٠ سنة.. سنا الفيل الواحد لا تصنعا أكثر من ثمان أو عشر كرات.. لذلك فالواحدة منها مرتفعة السعر.. وهو ما أدى إلى صنع كرات من مواد كيميائية بلغت حدا من الإتقان انخفض معها الطلب على العاج.

وكانت هناك بورصة في مدينة أنفرس البلجيكية لتصنيف العاج وبيعه وتحديد سعره حسب لونه ومتانته وكثافته وبياضه.. ومن أفضل الأنواع تصنع مفاتيح البيانو.. وما يتبقى من نفايات يتحول إلى أساور ومقابض وغيرها.

وبقدر عدم حماسي للعاج بقدر ما تحمست للبن الذي تشتهر به أوغندا مع الشاي.. إنني أشرب القهوة ـ أو كاهاوا كما يسمونها هنا ـ في كل أحوالها.. كابتشينو.. أكسبرسو.. تركي.. لكنه يجب أن تكون سكر «كيدجو».. على الريحة.. لا سكر مينجي.. زيادة.

يزرع البن في مناطق مرتفعة.. أدخل الإنجليز زراعته.. جاءوا بشجيرات صغيرة من اليمن سميت أربيكا.. وشتلات أخرى من الحبشة سميت روبستا.. ونجحوا في الحصول على زهرته البيضاء التي سرعان ما تتحول إلى ثمرة خضراء وبعد فترة قليلة من الزمن تأخذ اللون الأحمر.. وأوغندا الأولى في إنتاجه إفريقيا.. والرابعة بعد اليمن والحبشة والبرازيل.. وفي نيروبي بورصة

خاصة للبن والشاي هي التي تحدد سعره حسب العرض والطلب في الأسواق العالمية.. ومحرم تصدير الشتلات أو تهريبها إلى الخارج.. وهناك أكثر من ٢٠٠ ألف مزرعة تنتجه.. ويتعهد أصحابها بعدم التفريط في سر الشتلات وإلا عوقبوا بعشر سنوات سجن على الأقل.

ورغم أن الإنجليز لا يميلون كثيرًا للقهوة إلا أنهم يقيمون أهم مسابقة سنوية لأفضل من يصنعها، على كل متسابق يأتي من الخارج تحضير ٤ فناجين كابتشينو و٤ فناجين اكسبرسو و٤ فناجين من اختراعه، وفي المسابقة الأخيرة كسب الأمريكي مايك فيلبس ـ والجائزة «كيس بن».

والناس في كينيا أيضًا يفضلون الشاي عن القهوة.. والأكثر غرابة أن طعم البن هنا لم يعجبني.. والعيب ليس فيهم.. فينا.. فنحن نخلط البن بالسوداني.. وتعودنا على طعمه حتى نسينا طعم البن الحقيقي.. ملعون أبو الكيف ولو كان سيجارة.. أو فنجان قهوة مغشوشة.

كانت مزرعة البن التي زرتها خارج نيروبي بثلاثين كيلومتر.. وسط بيوت فقيرة.. يسكنها عمال المزرعة.. لكن.. المدينة الساحرة التي لم أنسها هي ممباسا.. لؤلؤة المحيط الهندي كما سميت من قبل.. لكنها الآن تسمى جزيرة اللذة.. المتعة.. الشهوة.. أنت حر في اختيار الكلمة التي تناسبك.

في الطريق إلى ممباسا لا بد أن تتوقف لترى جبال كليمانجارو التي تتوج قمتها بتاج من الجليد الأبيض يكسر حدة السمار الذي يحاصرك في كل مكان.. ويفرض عليك التعجب من وجود مثل هذا المشهد بالقرب من خط الاستواء.

في مكان يجعلك تستمتع بمشهد تلك الجبال دون زهق أو ملل أقيمت استراحة هادئة ناعمة وسط خضرة زاهية تغري طيور لم أر ألوانها من قبل أن تهبط على منضدتك دون خوف كي تنال شيئا مما تأكل.. ولا يجرؤ أشد الناس بخلا أن يرد لها طلبا.

ولو واصلت الطريق ستجده يضيق بأشجار المانجو والموز وجوز الهند الكثيفة.. وعندما ترى لافتة مكتوبًا عليها بالسواحلية «كريبو» اعرف أنك اقتربت من جزيرة ممباسا.. فكريبو تعني قريب.. وما إن تركب المعدية حتى تجد نفسك في الجنة.

الفندق يسمى كاسل.. مبني على الطراز الإنجليزي التقليدي في إفريقيا من شمالها إلى جنوبها.. بواكي.. تحتها حجرات متتالية.. هي في الواقع امتداد لرصيف الميناء الصغير المزدحم بمراكب متوسطة لها غطاء عريض من قماش القلوع المتين يسمونها مركب السندباد البحري.. ويصرون على أن هذا المغامر الذي لم ينم في البر يوما واحدا قد وصل إلى جزيرتهم.. وتزوج من أهلها.. وترك أبناءه وأحفاده فيها.. ويدللون على ذلك بحبهم الشديد للمغامرة.. على أنها مغامرة محدودة لا تتجاوز حدود الجزيرة.

ويعيش أبناء وأحفاد السندباد في الحي العربي.. وهو حي قديم.. حواريه ضيقة.. ومنازله متلاصقة.. أبوابه خشبية.. وزخارفه إسلامية.. ونساؤه منقبات.. يمشين في ملاءات سوداء يسمونها «بوي بوي».. وهناك تجد عددًا كبيرًا من المساجد.. وفي السوق يتحدث الباعة اللغة العربية.. وأسماء الشوارع عربية أيضا.. شارع عبد الناصر.. شارع سالم.. غير صلاح سالم.. ولو كان الطربوش قد اختفى من العالم الإسلامي بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية فإنه لا يزال يحتفظ بقيمته هنا.

ويعمل العرب في التجارة وصيد الأسماك وتمتد جذورهم من اليمن وحضرموت والصومال ولهم محلات لبيع ما يصطادونه في الميناء القديم.

وعلى بعد أمتار تقع قلعة فورت جينزا التي بناها البرتغاليون وهي تضم متحفا يحكي قصة الجزيرة.. وتعرض فيه السيوف والخناجر والبنادق التي استخدمت في الحروب بين الغزاة من الجنسيات العربية والبرتغالية والبريطانية والهولندية

والتركية.. لم يبق من كل هذا الصراع الدموي الطويل والشرس سوى تلك التذكارات البسيطة.

كل ذلك لا يوحي بتعبير اللذة الذي وصفت به الجزيرة.. التعبير ستجده جاهزا على الشواطئ السياحية الحديثة.. حيث تستلقي النساء الأوربيات وقد خلعن النصف الأعلى من المايو.. توبلس.. أما النصف السفلي فخيط رفيع جيست رينج.. لا يخفي شيئا.. بما في ذلك اللعاب السائل من الرجال.

ولا مفر من أن تلقي بنفسك في البحر بعد أن تشعر بالشياط من شدة الإثارة التي ستشعر بها.. لكنك.. ستجد مياها صافية.. ورمالا نظيفة.. ومتعة أخرى في السباحة لو قنعت بذلك.

أنا شخصيا قنعت بهذا الدش البارد.. لا مفر منه.. خاصة وأننا بعد هذا الاسترخاء السياحي الذي كشف عن جوانب لم نعرفها في دول منابع النيل الأبيض.. علينا أن نغادر كينيا وأوغندا إلى السودان.. دولة المجرى.. على أننا خلال الرحلة إلى الخرطوم يمكن أن نعرف ماذا فعلت مصر كي تستعيد الثقة المفقودة بينها وبين أثيوبيا.. علينا أن نعرف التفاصيل قبل أن نغادر منطقة شرق إفريقيا بأسرها.

نقطة من أول السطر.. أو من أول قطرة في النهر.

الفصل الحادي عشر

لحم من أثيوبيا وشاي من كينيا وموز من أوغندا مقابل مياه النيل!

في الأحاديث النبوية.. لا تشبع عين من نظر.. ولا أنثى من ذكر.. ولا عالم من خبر.. ولا أرض من مطر.. ولو كان نهر دجلة ماء أهل الجنة.. فإن نهر الفرات لبنهم.. ونهر النيل خمرهم.. وفي قول آخر عسلهم.

ويعتبر النبي محمد النيل نهرا ينبع من الجنة.. وفي حديث الإسراء أنه رآه يخرج من سدرة المنتهى.

وسأله معاوية بن أبي سفيان: هل تجد يا رسول الله ذكرا لنيل مصر في كتاب الله؟.. فقال: إن الله يوحي إليه عند ابتدائه.. وعند انتهائه.. ويوحي إليه بالنقص والزيادة.

ووصف العرب نيل مصر بأنه عجب.. وأرضها ذهب.. وهي لمن غلب.. وملكها سلب.. ومالها رغب.. وخيرها جلب.. وأهلها صخب.. وطاعتهم رهب.. وسلمهم شغب.

وتخيلوا أن النيل ينبع من عشرة عيون في جبال القمر.. كل خمسة منها تصب في مجرى يمشي طويلا قبل أن يلتقي بشقيقه لينضم إليه ويتوحد معه ويتجهان

معا إلى أرض المحروسة.. والنظرية صحيحة إلى حد ما.. فالنيل الأبيض القادم من بحيرة هضبة البحيرات يلتقي بالنيل الأزرق القادم من هضبة الحبشة في الخرطوم.. ثم يتجهان معا إلى مصر.

وقبل المغامرين والمكتشفين الإنجليز وصل مصريون إلى المنابع.. ومنهم عجوز قبطي كان عمره ١٣٠ سنة يوم استدعاه أحمد بن طولون وراح يسمعه ثلاثة أيام متواصلة.

لم تذكر كتب التراث اسمه لكنها نقلت على لسانه أنه وجد في الحبشة ستين ملكا.. كل منهم ينازع غيره في بلادهم الحارة اليابسة.. وأن منتهى النيل في أعاليه.. في بحيرة «لا يدرك أحد طولها وعرضها».. ويقصد بحيرة تانا التي وصلت إليها واخترقت مياهها.. ونمت في فندق على شاطئها.

وأمر خلفاء حكموا مصر بعضا من رجالهم بالسير إلى حيث يجري النيل.. فقضوا سنوات مشيا على أقدامهم حتى انتهوا إلى جبل مرتفع تنزل المياه من أعلاه في دوي صاخب إلى حد لا يسمع أحدهم صاحبه.. وتمكن رجل منهم في الصعود إلى القمة.. لكنه.. لم يعد.. وصعد غيره.. فلم يعد هو الآخر.. أما الثالث فإنه نجح في العودة إلى رفاقه بعد أن جذبوه بالحبال التي ربطوه بها.. على أنه عاد أخرس.. لا ينطق.. ومات في ساعته.. فعادت البعثة إلى القاهرة دون أن تكشف سر الشلال الأول.

ويبدو أن هناك لعنة مثل لعنة الفراعنة تصيب من يقترب من منبع النيل.. فوزير الري السابق الدكتور محمود أبو زيد هو المسئول الحكومي الوحيد الذي ذهب إلى هناك سبع مرات.. ودون مبرر فقد منصبه.. إنها تلك اللعنة.. أما أنا فكدت أن أفقد حياتي وأنا على هضبة الحبشة بالقرب من منبع النيل الأزرق.

ولو كانت لعنة الشلال الأول قديمة ومستمرة فإن الثرثرة السياسية حول حقوق مصر المكتسبة من مياه النهر مثلها.. قديمة ومستمرة أيضا.. فلا جديد فيما

يأتي من دول المنبع عن «الاستعمار المصري» القادم من دولة المصب.. فهو مثل مرض الجنون الدوري.. يصل بصاحبه إلى ذروة التهور.. ثم يعود ليهبط به إلى مستقر العقل.

لقد أثيرت القضية بعنف فور استقلال دول المنبع في ستينيات القرن العشرين.. كيف نضمن لمصر حقوقها المائية بالمعاهدات ونترك حقوقنا للعشوائيات؟.. إنهم في الشمال يعيشون على مياهنا عيشة مدنية.. حضارية.. عصرية ونحن هنا في الجنوب نعيش في حالة برية.. همجية.. قبلية؟

وأمام منظمة الوحدة الإفريقية ـ التي تقع في مكان مميز من العاصمة الأثيوبية ـ قام أكثر من مسئول في تلك الدول بتمزيق الاتفاقيات القديمة التي تضمن لمصر حقوقها المائية.. وكانت حجتهم المتكررة أنها اتفاقيات موقعة من عصور القوى الاستعمارية.. «وقد رحلت تلك القوى فلتأخذ معها ما وافقت عليه».. لكن.. في ٢١ مايو ١٩٦٣ قررت منظمة الوحدة الإفريقية عدم فتح هذه الملفات.. وعدم المساس بتلك المعاهدات.. فهي معاهدات لا تخص المياه وحدها وإنما وهو الأخطر تمس الحدود أيضا.. والحدود في إفريقيا كرات لهب جاهزة لإشعال قارة ليس فيها أكثر من الغابات القابلة للاحتراق بالحروب الأهلية والقبلية سنوات طوال دون توقف.

وتكررت اللعبة أكثر من مرة.. وتكرر الرد الرسمي المصري دون تغيير.. إن الاتفاقيات وقعت لتحترم.. ولو كانت مرتبطة بإمبراطوريات استعمارية غاربة.. فسقوط الاتحاد السوفيتي مثلا ألزم الدول التي ورثت تفككه كل التزاماته الدولية التي وقعتها معه وهو قوة شيوعية عظمى.

ويمكن أن نكشف عن سر ملفت للنظر.. هو أن الدبلوماسية المصرية تحركت خلال الأزمة الأخيرة مع دول المنبع في اتجاه الدول النهرية متعددة الجنسيات لتساندنا في موقفنا.. وكانت حجتنا.. أن نجاح دول حوض النيل في العبث

بالاتفاقيات القديمة سيفتح باب جهنم على النماذج المشابهة في الأنهار الدولية الأخرى.

ومن جانبها استوعبت مصر أولى هذه الأزمات بمبادرة قيام «مفوضية» تضم دول حوض النيل التسع بجانب إريتريا كمراقب.. تستغل إمكانيات النهر في تنمية شاملة.. ري.. زراعة.. سياحة.. كهرباء.. لكن.. ما إن هدأت الأزمة حتى تقاعست مصر في تنفيذ المبادرة.. وهي عادتنا ولن نشتريها.. لا ننظر إلا تحت أقدامنا.. نسخن في المصائب.. ونبرد عند خفوتها.. دون أن نثق في أن النار تحت الرماد يمكن النفخ فيها لتعود للاشتعال.

وهناك حجة أخرى ظهرت مؤخرا وبدت مقنعة.. لقد راح الإعلام الكاره لمصر يعزف نغمة صاخبة في صحف أثيوبيا وأوغندا وكينيا وزائير تتحدث عن وصول عدد السكان في شرق إفريقيا إلى ٢٤٠ مليون نسمة.. فمعدلات الخصوبة في تلك الدول أعلى ما يمكن.. ولا توجد امرأة هنا لا تضع على كتفيها طفلين.. وفي بطنها يتحرك الثالث.. ولا بد من توفير سبل الحياة لهذه الأعداد المتزايدة من البشر.. كيف؟.. بتقنين حصة مصر من المياه.. هذه هي حجتهم في صياغة اتفاقية جديدة.. وقع عليها البعض.. وتحفظ عليها البعض الآخر.. وهي حجة مثيرة للدهشة.. فإيراد النهر من الأمطار التي تسقط عليه سنويا لا يقل عن ١٦٦٠ مليار متر مكعب من المياه.. لا يصل إلى مصر منه سوى خمسة وخمسين مليار متر مكعب.. بنسبة لا تزيد ثلاثة وثلاثة من عشرة في المائة.. وفي الوقت نفسه تقدر المياه الضائعة في البخر والبحر والأحراش والبرك والمستنقعات بأكثر من خمسين في المائة.. ولو تكاتفت كل دول الحوض معا في مشروعات مشتركة لوفرت مياها تستوعب ضعف ما بها من سكان.. ولعاشت في وفرة مائية هائلة.

وترجع تقارير دبلوماسية مختلفة ـ أرسل بها سفراء وقناصلة مصريون إلى

سلطات الحكم العليا في القاهرة ـ عودة الشعب إلى الحكومات القائمة في دول الحوض إلى الديمقراطية.

لقد كانت تلك الدول تحكم بواسطة ضباط وصف ضباط جاءوا استولوا على السلطة إما في انقلابات عسكرية أو نتيجة حروب قبلية.. ولم يكن الواحد منهم مشغولا إلا بنفسه.. بمتعه الجنسية.. وتأمين حكمه.. فوجدنا عيدي أمين يمنح نفسه رتبة جنرال.. ويدعو الدكتور بطرس غالي الكبير عندما كان وزير دولة في الخارجية إلى حفل نسائي جماعي.. ووجدنا موبوتو سيسي سيكو يحتفظ بلحم الأطفال الذين يأكلهم في الثلاجات.. ويحتفظ بثروة البلاد الطبيعة من الألماس في خزائن صلبة في بدروم قصره.. ووجدنا جومو كينياتا يوزع عوائد الضرائب على زوجاته بالتساوي.. نوعا من العدل لم يقدر عليه غيره من هواة ومحترفي تعدد الزيجات.

لكن.. مع موجات الديمقراطية التي عبرت العالم العربي دون توقف لتهبط في إفريقيا سقط ذلك الطراز من الحكام المثير للسخرية.. أو للشفقة.. ودعم ذلك سقوط الاتحاد السوفيتي المحرض على الحروب الأهلية والعرقية والعقائدية بحجة منافسة نفوذ القوى الرأسمالية.. الإمبريالية.. وشجعت الولايات المتحدة الأمريكية بضغوطها المؤثرة التي ربطت المعونات بنزاهة الانتخابات على الالتزام بالديمقراطية.

أجبرت الديمقراطية الحكومات الإفريقية المنتخبة على أخذ شعوبها في الحسبان.. وفي ظل صحافة تحررت من سطوة الديكتاتورية بدأت الشعوب تراقب وتعاقب وتسقط المقصرين في حقوقها ورعاية مصالحها.. ولصعوبة تنفيذ برامج تنمية تنتهي برفع مستوى معيشة الناس.. أو قيام مشروعات دون عمولات.. أو رشاوي.. تبحث هذه الحكومات عن شماعات تبرر فشلها.. وتعلق أخطاءها على غيرها.. وهنا تبدو مصر ثمرة شهية تفسر بالتهامها سبب خروجها من الجنة.

ولا بد أن وزير الخارجية أحمد أبو الغيط قد أفزعه حجم العداء لمصر عندما زار كينيا وتنزانيا وأثيوبيا أول مرة في يوليو ٢٠٠٤.. عدوانية شرسة.. روجت لها دعاية سياسية سوداء.. تلخصت في جملة واحدة أصبحت مثلا شعبيا سائدا.. مصر تستولي على المياه وتتركنا نموت من الجوع والجفاف.. «المية مية أبونا والغرباء ينهبونا».

ومرة أخرى لم تنفع مبررات الدبلوماسية المصرية بأن في مياه النهر ما يتجاوز احتياجات كل الأطراف ويفيض.. وفي المفاوضات التي تكررت.. أبدت تلك الدول رغبتها في تطبيق اتفاقية الأمم المتحدة الخاصة بالحقوق المتكافئة التي تحفظت عليها مصر وامتنعت عن التصويت عليها.

وتدخلت مؤسسة البنك الدولي لإنجاح مبادرة «مفاوضية» النهر.. وساندته الدول المانحة.. وكانت حجتها أنها لا تقدر على مساعدة أحد دون قاعدة قانونية مستقرة.. ولو دبت الفوضى في المعاهدات القائمة فإنها لن توفي بما وعدت به.. والحقيقة أن الدول المانحة لم تكن قد وعدت بأكثر من تمويل دراسات الجدوى للمشروعات المشتركة لدول الحوض فيما لا يزيد عن ٣٨٠ مليون جنيه.

وبادرت مصر باقتراح مبادرة الحوض عام ١٩٩٧ لاستيعاب الغضب والتمرد المتناميين والمقلقين.. وكان من رأي البعض ومنهم وزير الخارجية أحمد أبو الغيط أن المبادرة لم يكن لها داع.. فقد فتحت علينا أبوابا كنا نسدها.. ومنها إعادة النظر فيما سبق من تعهدات واتفاقيات.

في المفاوضات المستمرة منذ أكثر من عشر سنوات توصل الأطراف إلى ما يسمى بالأمن المائي.. لكن.. مصر اعتبرت التعبير مطاطا.. لا يجوز قبوله على حساب الاتفاقيات القديمة الواضحة والمستقرة والصريحة دون لبس أو خلط أو بلف.. فكان التعبير الجديد «تأمين الاستخدامات الحالية من المياه».. ووافقت مصر.. لكن.. السودان اعترض.. فالاستخدامات الحالية للمياه أقل مما يحصل

عليه.. فخشي أن يخسر ما لم يستعمله.. وحاول صك تعبير «الاستخدامات الحالية والمستقبلية».. ولكن.. الجدل الذي حدث انتهى إلى لا شيء.

وانتقلت المفاوضات إلى ما يسمى بالإبلاغ المسبق.. والمقصود به أن تعرف كل دولة من دول الحوض ما تقيمه الدول الأخرى من مشروعات تتعلق بالنهر قبل أن تشرع في تنفيذها.. وهو حق تمنحه الاتفاقيات القديمة لمصر وحدها دون سواها.. ولكنها وافقت على منحه لباقي الدول التسع.. إلا أنها بتعسف واضح قالت هذه الدول: «نخطركم حاضر.. لكن ننتظر الأذن منكم لا».. وهو ما أضاف إلى العثرات عثرة أخرى.

وتطرقت المفاوضات إلى كيفية اتخاذ القرارات المشتركة.. واتفق على أن يكون ذلك بالتوافق الكامل والتراضي الجماعي.

استمرت المفاوضات دون نجاح يذكر على مدى تلك السنوات الطوال ببطء أحيانا.. وبإثارة المتاعب غالبا.. وكان واضحا أن المبرر الأساسي.. استخدام المفاوضات في اللعبة السياسية الداخلية.. أكثر من الإيمان الحقيقي بجدواها.. وحدث ذلك بطريقة متعجلة قبل أن تبدأ الانتخابات التشريعية في أثيوبيا (مايو ٢٠١٠).

خرجت حكومة ملنيس زيناوي القابضة على السلطة منذ سنوات طويلة لتعلن فشل المفاوضات التي جرت في أديس أبابا والإسكندرية وشرم الشيخ وعنتيبي وأصرت على توقع الاتفاقية الإطارية التي تعيد النظر في حصص مياه دول المصب.. وكان واضحا أن هذا التوقيع أهم بند في برنامجها الانتخابي.. أهم من تسكين الصراعات العرقية.. وحل المشاكل السياسية والأمنية في الصومال الغربي.. وزيادة معدلات توليد الكهرباء.. وتطهير البلاد من بيوت الدعارة.. وتوفير مساكن للفقراء.. ورفع كفاءة الخدمات الصحية.. وفتح مدارس أكثر.. وإعادة رصف الطرق المهدمة من شدة الإهمال.

ويمكن القول إن مصر كانت قد أنجزت ١٢ بندا في المفاوضات ولم يبق أمامها سوى بندين.. لكن.. قبل استكمالهما حدث انقلاب درامي.. وأقيل وزير الري الدكتور محمود أبو زيد في قرار يثير الريبة قبل أن يفجر الدهشة.. وتولى خليفته الدكتور محمد نصر علام المسئولية في وقت حرج.. دون أن يكون ملما بما جرى.. كما أن خبرته المحدودة في الأنهار لم تؤهله لمواصلة المهمة الشاقة.. فهو لا يعرف كثيرا خارج خبرات الري بالتنقيط.

وخرجت منه تصريحاته صبت بنزينًا على النار.. ولم تترك الصحف الأثيوبية واقعة نسيانه نظارته في الطائرة تمر دون النيل منه.. «فمن نسي عدسات يرى بها كيف يتذكر مصالح دول وضعت في يده؟».. وكان ذلك على ما يبدو ردا على ما قاله لوزير الري هناك أصفاي بنجاني واعتبر إساءة: «أنت بتكلم أستاذ جامعة».. فقد فهم من كلامه أنه يقصد أنهم جهلة.

ولا بد من الاعتراف بأن اختفاء محمود أبو زيد ـ خبير المياه الشهير الذي يحظى بمكانة دولية في تخصصه ممثلة في رئاسته الشرفية للمجلس الأعلى للمياه ـ في توقيت إقالته جريمة سياسية يجب أن يحاسب عليها رئيس الحكومة الدكتور أحمد نظيف الذي لا يفضل التعامل إلا مع وزراء على علاقة صداقة معهم.

والحقيقة أن أبو زيد نجح في أن يخلق علاقات متينة مع كبار المسئولين في أثيوبيا وعلى رأسهم جنرال أبو دولار رئيس إقليم روميا الذي تقع فيه العاصمة ودعاه على حسابه الخاص هو وعائلته في رحلة إلى القاهرة.. وكان دائم استضافة وزير الري السابق ومستشار رئيس الوزراء الحالي للمياه شفراو جايسون شهرا كل صيف في مارينا.. وكاد أن يوقع اتفاقا معه لزراعة ثلاثة ملايين هكتار أرز وقصب السكر ـ وهي زراعات كثيفة المياه ـ في بلاده لتوفير عشرين مليار متر مكعب لبلادنا.

ولكن.. كل الطرق التي مهدها أبو زيد عادت إلى وعورتها فور إقصائه.. وسارعت أثيوبيا بالتوقيع على الاتفاقية الشؤم.. ووجدت من دول الحوض من يساندها بالانضمام إليها.. ووجدت من فضل التروي تحسبا لمشاكل لا مبرر لها مع مصر والسودان.

وتعتقد الحكومة المصرية أنها تساهم في مشروعات مائية مهمة لدول الحوض مثل تطهير الأنهار وحفر الآبار وتقديم المشورة الفنية.. ولكن.. تلك الدول تشعر بأن ذلك لا يكفي.. وتشعر وربما هذا هو الأهم.. أن المسئولين المصريين يتعاملون مع نظرائهم فيها بتعال يقترب من الغطرسة الاستعمارية القديمة.. يضاف إلى ذلك أن الفساد الذاتي في مصر ضاعف من إفساد العلاقة معها.

في عام ٢٠٠٥ حاولت مصر تلافي الضغوط بزيادة حجم المصالح.. فقفزت فكرة شراء لحوم رخيصة من أثيوبيا وشاي متميز من كينيا.. ولكن.. وجدت مافيا اللحوم صحفيين يهاجمون اللحوم الأثيوبية ويدعون أنها مصابة بالطاعون البقري.. ووجدت مافيا الشاي من يتحدث عن رشاوي حكومية في صفقات استيراد ما قيمته ٣٧٠ مليون دولار من الشاي الكيني وهو ما لم يحدث.. وانتهى الأمر بحرق جسور كان يمكن أن تمد بين مصر ودول المنابع.. وتغلبت مصالح فردية ضيقة على مصالح أمة عريضة وهامة.

لكن.. وزير التعاون الدولي فايزة أبو النجا نجحت رغم ذلك في عقد صفقة لحوم أثيوبية وصلت إلى مصر على أربع دفعات.. حجم كل صفقة من الثلاث صفقات الأولى ١٢٠ طنا.. وحجم الرابعة ٤٠ طنا.. وضمت الشحنة الأولى ٢١١٦ رأس ماشية حية وصلت إلى مصر في مارس ٢٠١٠.. وكانت الثانية ٨٢٧ رأسا وصلت بعد شهر.. وكانت الثالثة ٢٥٠٠ رأس وصلت في الشهر التالي.

وخصصت الوزارة ثلاثين مليون جنيه لتطوير التعاون مع وزارة الزراعة

الأثيوبية لتطوير البنية الأساسية للمجازر والحجر الصحي لتسهيل استيراد اللحوم من هناك.. وبني مكان مناسب في ميناء السويس مخصص للذبح كي يوفر اللحم الرخيص لسكان القاهرة والجيزة والساحل الشمالي.. وبدأت عملية تحديث في الحجر الصحي في سفاجة كي يخدم توصيل نفس اللحوم الرخيصة إلى سكان الصعيد.. وهناك تفكير في بناء حجر صحي جديد في أسوان.. وبدأت شركتا جنات وقرشي للتجارة في عقد صفقات تصدير العجول.

وفايزة أبو النجا من الدبلوماسيين القلائل الذين يعرفون إفريقيا جيدا.. لقد اختارها بطرس غالي ـ الأكثر خبرة في إفريقيا ـ مستشارة له لمدة خمس سنوات قضاها في منصب الأمين العام للأمم المتحدة.. وعندما انتهت مهمتها وعادت إلى القاهرة عينت مساعدا لوزير الخارجية للشئون الإفريقية وأتاح لها ذلك زيارة كل دول القارة السمراء وخلق علاقات متينة مع غالبية المسئولين المؤثرين فيها.. عرفتهم فردا فردا.

والحقيقة أن إهمال إفريقيا سنوات طويلة يجعلنا نقترح أن تضيف الحكومة المصرية إلى وزرائها وزيرًا جديدًا لشئون إفريقيا.. وهو منصب تولاه بطريقة غير مباشرة بطرس غالي عندما كان وزير دولة للخارجية.. وتولاه من قبله محمد فائق قبل أن يصبح وزيرا للإعلام.

وتلعب الدور نفسه الآن فايزة أبو النجا التي نجحت في تطوير العلاقات والمصالح مع أثيوبيا في وقت قياسي.. وتحت يدي تقرير رسمي يؤكد ذلك.. ويقول:

إنه بعد زيارة رئيس الحكومة المصرية أحمد نظيف إلى أديس أبابا في نهاية عام ٢٠٠٩ وصل حجم الاستثمارات المصرية هناك إلى ما يقرب من مليار دولار.. ويدأ مجلس رجال الأعمال المشترك عمله برئاسة أيمن عيسى.. وهو شاب مصري سبق غيره في إنشاء مصانع مواسير في أثيوبيا.. وخصص مجلس الأعمال مليون جنيه لدعم أنشطته في عامه الأول.

وعقدت اللجنة الوزراية المشتركة بين الدولتين اجتماعا في أديس أبابا في نهاية مارس ٢٠١٠ جرى فيه التوقيع على اتفاقية تنمية اقتصادية وأخرى للتعاون التكنولوجي.

وأنهت مصر الإجراءات الدستورية الخاصة بالتصديق على اتفاق تشجيع وحماية الاستثمار الموقع بين البلدين في عام ٢٠٠٦.. وفي الوقت نفسه بدأ التحضير لاتفاق آخر يمنع الازدواج الضريبي.. وأسس صندوق استثمار النيل برأسمال يصل إلى مليار دولار.. دفع منها ١٥٠ مليونا.. وأسست رجال أعمال مصريين «الشركة الإفريقية» برأس مال مستحق ٢٠٠ مليون دولار دفع منها عشرين مليونا.. ونظم مجلس الأعمال المشترك دورة تدريبية للمعاملات التجارية المتبادلة حضرها خبراء من وزارة التجارة والصناعة في أثيوبيا وكذلك البنك التجاري هناك.

وبدأت الشركة الشرقية للدخان في إجراءات تأسيس شركة في أثيوبيا تتيح لها تأجير مزرعة تنتج التبغ.. واستثمر البنك الأهلي أموالا في مزرعة مساحتها ٢٥٠ ألف هكتار.. واستعدت شركة المغربي لتأجير مزرعتين لإنتاج الفراولة في منطقة أمهرا رجين.. والثانية للزهور في منطقة أوروميا.. وبدأت مجموعة أحمد بهجت في اتخاذ إجراءات تأسيس شركة صيد في بحر دار.. تمتلك سفينيتن بهما ثلاجات.. ولحق بها شركة دلتا لتربية الدواجن.

وشهد مجال الصحة والدواء تطورات مثيرة وملفتة.. فقد طبق برنامج مكافحة الملاريا بنجاح في منطقة أنارا.. وخوطبت منظمات دولية للتمويل.. مثل بنك التنمية الإسلامي والصندوق العالمي لمكافحة الإيدز والملاريا وحكومتي ألمانيا وإيطاليا للمشاركة في الدراسات الأولية للمشروع وعمل مسح للمناطق المصابة والمرشحة للتخلص من المرض.. ووافق الجانب الإيطالي على دفع ٣٠٠ ألف يورو للبداية مع تقديم المعدات اللازمة.. وأرسلت ثلاث بعثات طبيبة إلى أثيوبيا

بقيت فيها ثلاثة شهور تولت تدريب أطبائها.. واعتمدت خمس شركات أدوية مصرية لتقديم أقراص العلاج.. ووصلت كميات مناسبة من المستلزمات الطبية دون مقابل.

وأسس البنك الأهلي مكتبا له في أديس أبابا.. وسمح بنك الصادرات للشركات الأثيوبية بحدود ائتمانية مناسبة لاستيعاب التبادل التجاري وقدم البنك نفسه منحا تدريبية لموظفي البنك الأهلي والبنك التجاري الأثيوبيين.. ووافق الصندوق المصري للتعاون التكنولوجي بمشاركة من بنك القاهرة على توفير الدعم المالي لتدريب الكوادر الأثيوبية.. دورتان.. كل واحدة ٢٠ متدربا.

وتقدمت مجموعة القلعة (أحمد هيكل) باقتراح لتأسيس مصنع أسمنت واختيرت في مناقصة محلية كي تعيد رصف الطريق السريع بين أديس أبابا وجيبوتي التي تعد منفذا للحبشة على المحيط.. وفكرت مجموعة بهجت في مصنع لتجميع التلفزيونات وآخر للبلاستيك.. وقدمت مجموعة السويدي خطة أعمال تضمن تأسيس منطقة صناعية على مساحة مليوني متر مربع بتكلفة تصل إلى ٣٥٠ مليون دولار تضم ١٢٠ شركة على أن ينفذ المشروع على ثلاث مراحل وينتهي بعد سبع سنوات وتشارك أثيوبيا فيه بثلاثين في المائة.. ووقعت المجموعة نفسها مذكرة تفاهم لإنتاج معدات توليد الرياح في منطقة إيشا.. وانتهت شركة جولدن ترايد لأنابيب المياه من عقود تأسيس شركتين للاستثمار المتكامل بنحو ١٠ ملايين دولار.

وأسست شركة المقاولون العرب فرعا لها في أثيوبيا مع شركة مقاولات محلية وراحت تدرس ما يمكن تنفيذه من مشروعات منها إعادة إعمار الطريق الموصل إلى جيبوتي بتكلفة ٣٥٠ مليون جنيه إسترليني بجانب بناء نفقين وكوبري في العاصمة بتكلفة ٢٥ مليون دولار.. وتقدمت شركة أورسكوم باقتراح لوكالة الأنباء الحكومية لتأسيس شركة مع الحكومة لتحسين بيوت أصحاب الدخول

الصغيرة والمتوسطة.. ورتبت زيارة لشركة المهندسين المصريين خلال الأسبوع الأول من مايو ٢٠١٠ لاكتشاف فرص التعاون في مجال البناء.

وأدت هذه الحركة السريعة إلى زيادة حجم التبادل التجاري في عام ٢٠٠٩ بنسبة ثلاثين في المئة ليصل إلى ١٤٠ مليون دولار بعد أن كان ١١٧ مليونا في العام السابق.. ووصلت الصادرات المصرية إلى ١٢٣ مليونا مقابل ٩٠ مليونا في عام ٢٠٠٨.. ووصلت الواردات إلى ١٧ مليونا مقابل ١٤ مليونا في العام نفسه.. وفي محاولة لزيادة حجم التبادل التجاري من ١٠٠ مليون إلى مليار تحضر دراسة تتناول المنتجات التي يمكن تصديرها من هنا إلى هناك.. ولو كانت شركات مصرية شاركت في معرض الزراعة في أديس أبابا فإن شركات أثيوبية شاركت في معرض لمنتجاتها في القاهرة على أن تشهد العاصمةالأثيوبية معرضا بالمثل فيما بعد.

واقترح وزير الاتصالات المصري ـ خلال مشاركته في ووفد مصر لدى القمة الإفريقية ـ تأسيس قرية ذكية في أديس أبابا.. وكان يرأس الوفد رئيس الحكومة.. فمنذ محاولة اغتيال الرئيس وهو يتجنب زيارة أثيوبيا.. وهو أمر يحتاج إلى إعادة النظر فيه.. خاصة وأن الرئيس سامح النظام السوداني الذي فكر وخطط ودبر ونفذ المحاولة الفاشلة.. ولم تكن أثيوبيا سوى مسرح للعملية.. وربما لم تكن على علم بها.. ولا يكفي أن يناقش الرئيس مشاكل مصر مع دول الحوض في مؤتمر القمة الفرنسية ـ الإفريقية الذي عقد في نهاية مايو ٢٠١٠ بمدينة نيس جنوبًا على البحر المتوسط.

وانتهت مجموعة بهجت من الدراسة اللازمة لمشاريع سياحية وصناعية في منطقة أمهرا القريبة من المنابع بعد زيارة خبراء منها للمنطقة تمهيدا لتوقيع العقود النهائية.. واقترحت المجموعة نفسها شراء ٧٥ ٪ من فندق جاهيون وهو فندق غير مستغل يطل على بحيرة تانا.

لكن.. ذلك كله لا يكفي.. فلا بد من فرع لجامعة مصرية كما هو الحال في الخرطوم وجوبا.. ولا بد من مساعدة طبية في معالجة وباء الإيدز.. ولا بد من منح جامعية لطلاب يدرسون في جامعاتنا المختلفة مع توفير سبل الإقامة.. وهو ما تطوع به محمد فريد خميس في الجامعة البريطانية وغيرها.. ولا بد من تقوية العلاقات بين الكنيسة الأم في مصر والكنيسة التي استقلت عنها في أديس أبابا.. وقد جاء البطريرك الأثيوبي باولوس في زيارة للقاهرة لم ينتبه إليها أحد إلا البابا شنودة الذي زاره في مقر ضيافته في مدينة نصر.. ويمكن أن تخلق السياحة الدينية في أثيوبيا علاقات شعبية قوية.. بجانب سياحة الشلالات النيلية.. وقبر النجاشي وصحابة الرسول الذين لجئوا إليه في بداية الدعوة.. وهو يحتاج إلى ترميم وتسويق.

ونحن نشتري من السودان نحو أربعة مليارات متر مكعب سنويا منذ عهد جعفر نميري.. كنا ندفع فيها عشرة ملايين دولار.. وهو أمر تسرب إلى دول المنابع فرفعت شعار: يا البيع يا المنع.. لكن.. تلك قصة أخرى.. فليس في القريب العاجل ما يؤثر علينا مائيا.. لكن.. الخطورة في الدول التي تستأجر ملايين الأفدنة في أثيوبيا بالمياه وتنهبها قبل أن تجري مع النهر.. السعودية والكويت والهند وغيرها.. وهناك اتصالات معها كي لا تتمادى فيما تفعل.. وكذلك الصين التي تعاند المجتمع الدولي وتبني سدودا على غير شريعة جغرافيا النهر.

ولا بد من الاعتراف بأن الدبلوماسية المصرية نجحت في تحريض الدبلوماسية الأمريكية والأوربية على عتاب المسئولين في دول المنابع على التوترات الأخيرة التي سببوها وأثاروها.. ووصل الحوار بين السفراء والحكام إلى حد الانفعال والصراخ.. ولعب الدور نفسه الأمم المتحدة.. فلا أحد في إفريقيا مستعد أن يعيد الصراعات والحروب التي أخرتها مئات السنين.. يكفيها ما فيها من صراعات عرقية وقبلية قابلة للانفجار على أهون سبب.

لكن.. لا يحتاج الأمر إلى حرب.. فلو استوردنا اللحم من أثيوبيا والشاي من كينيا والموز من أوغندا فإن المياه ستصل إلينا بسهولة.. فالمصالح تتصالح في إفريقيا أيضا.

وأكبر دليل على ذلك ما بيننا وبين السودان.. كل ما تعرضنا إليه من متاعب كادت توصلنا إلى القتال جرى حلها بمزيد من اقتسام المكاسب.. إن السودان دولة المجرى.. الذي يوصل النيل إلينا.. نحن دولة المصب.. زرته عشرين مرة.. وهي فرصة أن نقترب منه مرة أخرى.

نقطة من أول السطر.. أو من أول قطرة في النهر.

الفصل الثاني عشر

بانت السودان على بعلها المصري

لو أرادت أن تتزوجه فدعها تفعل ذلك!

رفع الرئيس جعفر نميري سماعة التليفون وطلب زوجته قائلا:

ـ «بثينة.. الجماعة يريدون أن يأكلوا الوريج»!.

والجماعة هم صلاح حافظ وهبة عنايت وأنا.. كنا في مكتبه بمعسكر الشجرة.. نتكلم في موضوعات شتى غير مرتبة وهو ما يطلق عليه السودانيون «ونسة».. أما الوريج فهي «طبخة».. تصنع من أوراق البسلة لا من حباتها.. وهي أكلة محلية شهيرة وشهية مثلها مثل الشية والكسرة والقراصة والويكة والتقلية وأم رقيقة والنعيمية.

كانت المرة الأولى التي ألتقي فيها جعفر نميري وأستمع منه قصة استيلائه على السلطة.. لقد قاد حامية «جيت» في الجنوب.. واستغل إجازته في الخرطوم كي يحصل على مرتبات ضباطه وجنوده المتأخرة شهورا طويلة من قيادة الجيش في معسكر الشجرة.. مقر القيادة.. وعندما لم يجد من يستجيب له هدد بانقلاب عسكري.. سرعان ما نفذه.. وأغلب الظن أنه اختار شهر مايو ليكون ساعة الصفر.. فدرجة الحرارة الممزوجة بالرطوبة يصعب احتمالها.. ويصعب مقاومة من يفعل شيئا فيها ولو سعى لقلب نظام الحكم.

الغريب أن نميري كان يؤمن بالخرافات.. فقد ظهر له وهو في الجنوب من

بين الأشجار الكثيفة قزم أعطاه عصا واختفى.. ولم تمر سوى أسابيع قليلة حتى وجد نفسه في السلطة.. فحافظ على العصا.. وآمن بأنها تعويذة سحرية لا يجوز إهمالها.. وذات يوم كسر طرفها.. فرفض الخروج إلى مؤتمر شعبي كان سيلقي فيه خطابا جماهيريا.. اعتذر.. شعر بأن مكروها سيصيبه.. والغريب أننا سمعنا منه أن مخابراته ضبطت تنظيما سريا في الجيش تحرك في تلك الليلة لقتله وتنقية السلطة منه.

والحقيقة أن نميري الحاكم الوحيد في تاريخ السودان الذي زار كل أقاليمه المتنوعة.. المترامية.. ونال مبايعة قبائله المختلفة بمصارعة زعمائها.. وساعدته بنيته القوية على ذلك.

إن السودان ليس وحدة متجانسة.. فهو شعوب وأجناس وأعراق ولغات يمكن تلخيصها في «النوبية والبيجاوية والعربية والزنجية».. هناك على الأقل ٧٥٠ قبيلة.. تتحدث ١١٤ لهجة أو رطانة منطوقة.. وتبدأ أديانها من الوثنية إلى الإسلام مرورا بالمسيحية.. ويسهل على مسلم في الجنوب أن ينتقل من ديانة من يسميهم «ناس محمد» إلى ديانة من يسميهم «ناس عيسى» والعكس.. دون ما يمنعه أو يعاقبه.. وربما لهذا السبب نجد مسيحيا اسمه «محمد» ومسلما اسمه «شنودة».. وربما نجد من يسمي نفسه «التليفون ضرب» لأن الجملة أعجبته.. وفي كل الأحوال تسود الثقافة الزنجية بكل ما فيها من تراث يصعب على الناس هناك نسيانه بسهولة.. لذلك كان أفضل ما فعل نميري.. توقيعه على اتفاقية أديس أبابا التي تمنح الحكم الذاتي لأقاليم السودان المختلفة.. لكنه.. بعد سنوات طويلة من استقرار حكمه انقلب على نفسه.. وأعلن ما أسماه قوانين الشريعة.. وقد طبقها من الشمال إلى الجنوب.. وعلى المسلمين والوثنيين.. وشهدت المدن الرئيسية محاكم هزيلة في الشوارع.. تقطع يد السارق.. وتجلد الزاني.. وشارب الخمر.. وتأخذ الناس بالشبهات.. وتقتحم البيوت بدعوى مراقبة الأخلاق.

لقد قبضت الشرطة الدينية على رجل يحمل زجاجة خمر وعندما سيق لجلده

تساءل عن سر العقوبة وهو لم يشرب الخمر.. فقالوا له: «إنك تحمل زجاجة ويسكي ويجب توقيع عليك حد الخمر».. فقال: «إنني أحمل عضوا ذكريا فهل تقيمون على حد الزنا؟».

لم يكن السودان.. البلد الكبير.. موحدا قبل نحو قرنين من الزمان.. كان مقسما إلى ممالك.. مملكة ما بين النيلين الأبيض والأزرق.. مملكة دارفور.. مملكة جوبا.. مملكة النوبة.. وغيرها.. وحكم هذه الممالك شخصيات لم يبق منها سوى أساطير وخرافات وجدت هوى عند الرحالة الأوربيين لتسجيلها كي يضاعفوا من الصورة الخيالية المثيرة التي رسموها بأنفسهم.. منها الملك الذي كان متزوجا من ٣٣ امرأة.. وضع كل منها في غرفة مستقلة.. وجلب إلى قصره مخزونا هائلا من البيرة.. وانزوى ليستريح سنة كاملة.. لا يدخل عليه تابعة إلا مرة واحدة في اليوم.. ولم يكن يعطي لشئون الحكم سوى نصف ساعة في اليوم أيضا.. ورغم ذلك جعل شعبه أسعد حالا من أسلافه.

وحاول الغرب استغلال تلك الأساطير استغلالا سياسيا.. حاول إقناع العالم بأن السودانيين كسالى.. يعشقون الحياة المترفة.. خمر ونساء وموسيقى وطرب ونوم في العسل.. دون الاهتمام بتطوير بلادهم.. ويقبلون بكل ما يفرض عليهم.. وهو خطأ شائع.. وقع فيه حاكم مثل جعفر نميري.

عندما كان نميري ضابطا صغيرا تقدم لخطبة فتاة من جماعة المهدي فاستكثر عليه والدها أن يناسب حفيدة الإمام المهدي الكبير.. قائلا: «كيف أقبل أن تتزوج ابنتي من زول بتاع أندانيات».. والزول تعني الشخص.. أما الأندانيات فهي الحانات الشعبية.. وقد نشرت صورة لنميري وهو يجلس بجلبابه على الأرض في واحدة منها.. نشرتها مجلة «الدستور» اللندنية المعبرة عن الجبهة الوطنية المعارضة لنظام نميري.

لقد كان نميري حاكما دكتاتوريا صارما دون أن يفقد حبه للحياة.. إلا أنه فاجأ

شعبه والعالم بأنه تحول من رئيس إلى إمام.. ومن محب للحياة إلى زاهد فيها.. وكان من الصعب التوصل إلى سر ذلك التغير الحاد.

كانت مشكلة نميري الخفية أنه من عائلة لم تكن تنجب.. ومثله مثل غالبية البشر.. لجأ إلى العرافين الذين يسمونهم في السودان «الفكيين» لاستشاراتهم وطلب نصائحهم.. ووصل به الحال إلى حد أن فوجئ السودانيون بشيخ مشعوذ يأتي من القاهرة اسمه محمد.. أشيع أنه مكلف بمهمة من رئاسة الجمهورية المصرية لحل «عقدة» نميري.. وأشيع أنه طمئنه على مستقبله قائلا: إنه سينجب ولدين.. سيسمى الأول جمال عبد الناصر وسيسمى الآخر معمر القذافي.

على أن نميري لم يشعر بحدة مشكلته إلا بعد أن أصبح مالكا لثروة قدرت بنحو ثلاثين مليون دولار قبضها من عملية تهجير يهود الحبشة إلى إسرائيل وعملية دفن النفايات النووية في بلاده.. جعلته تلك الثروة يفكر فيمن يرثها.. واستغلت تيارات ذكية من جماعة الإخوان المسلمين أحزانه بأنه إذا ما استقام دينيا وطبق شريعة الله سوف ينجب من فتاة صالحة سيختارونها له.. واستجاب لهم.. لكنه.. في الوقت المناسب وجد من يحذره من الفضيحة التي سيضعونه فيها.. إنهم سيزوجونه فتاة حامل.. جاهزة بالطفل الذي وعدوه به.. وراحت انهياراته الشخصية والسياسية تتوالى حتى وجد نفسه في القاع.. وما تحت القاع.

في آخر رحلة قام بها إلى واشنطن دعاه الرئيس الأمريكي رونالد ريجان على العشاء في البيت البيض لكنه فوجئ بأن المدعويين على مائدته ليسوا سياسيين وإنما جراحين.. وقبل أن يوضع الطبق الأول أطفئت الأنوار.. وظهرت أمامهم شاشة تعرض فيلما عن عامل في مصنع سيارات قطعت أصابع يده.. وكيف نجح الجراحون في إعادتها إلى ما كانت عليه.. وبعد أن أضيئت الأنوار من جديد.. وجد ريجان يقول له: «انظر.. إن ذلك أصبح أمرا سهلا بفضل الطب الحديث».. ثم بعد ثوان من الصمت أضاف: «إننا غير موافقين على قطع اليد في بلادك بدعوى تطبيق شريعة الإسلام.. لقد ظلمت مئات من الناس هناك دون ذنب».

قبل أن تقلع طائرته من قاعدة أندروس الجوية القريبة من واشنطن العاصمة سأله الصحفيون عن المحطة النهائية لرحلته الطويلة.. وأجاب: «الخرطوم» طبعا.. لكنه.. كان آخر من يعلم.. فعندما هبطت الطائرة في مطار القاهرة للتزود بالوقود تلقى مكالمة تليفونية من الرئيس مبارك يدعوه بالبقاء في مصر «فذهابه إلى بلاده بعد الثورة الشعبية المشتعلة هناك سيقضي على حياته».. ولم يجد الرئيس المخلوع مفرا من الاستجابة.. والغريب أنه عاد إلى شرب الخمر قبل أن يشيخ ويموت ويدفن في السودان.

عرفت نميري عن قرب خلال زياراتي المتكررة للخرطوم لكتابة تحقيقات صحفية عن السودان تنشر في مجلة الوادي التي سبق أن تكلمت عنها.. زرت جوبا في الجنوب.. وبلاد النوبة في الغرب.. بجانب دارفور وملكال وعطبرة والمجلد حيث أولى حقول البترول التي أنتجتها شركة شيفرون الأمريكية.. لكن.. الخرطوم حظيت بالنصيب الأوفر من رحلاتي التي أتصور أنها جاوزت العشر رحلات.. إن لم تكن أكثر.. صحيح أن النيل لم يكن هدفي المباشر في ذلك الوقت.. لكن.. صحيح أيضا أن النيل فرض نفسه على برامجي.. وزياراتي.. إذ كيف يمكن تجاهل ذلك الكائن العفي وهو قريب من كل مكان تذهب إليه.

لم يتغير مطار الخرطوم منذ أن بناه الإنجليز.. مراوح في السقف.. حمالون يحضرون الحقائب بأنفسهم.. وأسوار مفتوحة يسهل الدخول والخروج منها إلى المهابط.. وصالات ضيقة لا تسع ركاب أكثر من رحلة معا.. وطائرات قليلة تتأخر بالساعات وربما بالأيام.

حدث أن جلست أنا ونجمة المسرح المعتزلة سهير البابلي من الثامنة مساء إلى الثامنة صباحا في انتظار الطائرة التي ستعود بنا إلى القاهرة.. وعندما جاءت فضل الطيار أن ينطلق إلى جدة ليلحق السودانيين العاملين في السعودية بأشغالهم.. وعندما ركبنا طائرة أخرى وكادت أن تقلع حتى عادت ثانية لأن أحد الركاب نسي فلوسه ويجب أن يعود ليأتي بها وإلا كيف سيعيش في القاهرة؟

ومع أن شركة هيلتون تدير فندقا باسمها إلا أنني فضلت دائما الإقامة في ذلك الفندق الإنجليزي الطراز المسمى جراند أوتيل.. فبين حدائقه تجد غزلانا تمرح.. ويتميز طاقم الخدمة فيه بالعشرة.. فهم يدعونك إلى طبق من طعامهم إذا كنت قد زهقت من منيو المطعم الرئيسي.

ولا يميل السودانيون للسهر خارج بيوتهم.. فليس هناك أماكن تغري بذلك.. كما أنهم تعودوا على «الونسة» التي اشتهروا بها.. وخصصوا لها في بيوتهم قاعات تسع ضيوفهم.. وضيوف ضيوفهم.. وهم مدمنون سياسة.. لا يفضلون الحديث بعيدا عنها.. وبين كل جملتين ينطقون بهما جملة ثالثة يسبون بها الحكومة مهما كانت.. حليفة أم عدوة؟

وفي ظل سلطة ليبرالية تفتح «الونسة» بلا حدود.. وفي ظل سلطة فاشية.. تصبح «سرية».. فالحيطان لها آذان أو «أضان».. ويمكن القول أن شرارات الغضب كانت تولد عادة في هذه اللقاءات المتكررة.. ومنها الانتفاضة الشعبية التي أطاحت بنميري.. فقد أعلن أنه سيرفع الأسعار ويخفض قيمة العملة فور عودته من واشنطن.. فتغدوا به قبل أن يتعشى بهم.

والخرطوم مدينة متواضعة.. يقول أميل لودفيج أنها كانت منذ زمن قريب مجرد مخيم.. والخرطوم تسمية مصرية.. فهي تقع على الجزيرة التي يلتقي عندها النيلين الأبيض والأزرق وتشبه الخرطوم.

إن هذه المدينة الخالية من الملامح المتميزة هي مركز النيل.. ونقطة التقاء المنبع بالمصب.. وبداية النهر الذي نعرفه في مصر.. وهي تمتد من ضفة خصبة إلى سهول فسيحة بها غابات استوائية سرعان ما تنتهي بصحراء رملية جافة.

ويسمى المكان الذي يتعانق فيه النيلان عناق الأخوين «المقرن».. وهناك تقع جزيرة تنبت فيها أشجار النخيل والفاكهة وتجد كل وسائل المواصلات.. القطارات.. الزوارق.. والطائرات.

وجزيرة توتي القريبة من الخرطوم هي أول أرض تقع على النيل الأبيض يمنحها الطمي القادم مع النيل الأزرق الخصوبة.. وعبرت الخصوبة عن نفسها بنباتات عريقة.. خرجت من بيوت الحكام والجنرالات وكبار الموظفين الذين ورثوها عن الأجانب الذين احتلوا بلادهم وحكموها سنوات طويلة.

في كتابه «السودان وأهل السودان» يرى صديق السنوات الطويلة في روز اليوسف «يوسف الشريف» أن سكان توتي مجنونون بها.. مستعدون للموت في سبيلها.. ويعشقونها إلى حد التضحية بكل شيء في سبيلها.. فقد رفضوا ثروة مغرية لتحويلها إلى قرية سياحية.. وهم يتضامنون معا في اصطياد التماسيح التي تتسلل إليهم.. وتهدد بابتلاعهم.. وما إن ينتهوا منها حتى يعلقوا جثثها المحنطة على بيوتهم.. ويستمتع الرجال بالفرجة على نساء الخواجات وهن يجرين في الصباح الباكر على شاطئ النيل بشورتات قصيرة مثيرة.. وهو ما يضاعف من متعة رياضة المشي في ذلك الوقت الذي يكون الطقس مناسبا.

وينصح السودانيون ضيوفهم المصريين بأن يجربوا شرب الماء مباشرة.. مرة من النيل الأزرق الأكثر عذوبة.. ومرة من النيل الأبيض الأكثر ملوحة.. ومهما تخيلت فلن تصدق أن الفرق شاسع.. أما الطعم الوسط فهو طعم الماء بعد امتزاج النهران وهو الطعم الذي نعرفه في المياه التي تصل إلينا.

ولو كان الأجانب هم الذين اخترعوا مدينة الخرطوم وسكنوها فإن الأهالي انحازوا إلى مدينة أم درمان التي تقع على الضفة اليسرى للنيل الأبيض.. وهي أكبر من الخرطوم ثلاث مرات.. وقد بنيت على شاطئ مياه ممتد.. وطليت بيوتها باللون الأبيض.. على غير العاصمة التي تفضل اللون الأحمر.

وتعد أم درمان من أكبر المدن الإفريقية.. وتزدحم شوارعها بأصحاب الحرف.. وتجار الخيل والحمير.. ومحلات الغلال.. وصناع القوارب الشراعية.. وسوق السمك والخضار.. وباعة التوابل والبخور.. وتختلط الأصوات بالأجناس.. والسماحة بالمساومة.. والذباب بالطعام المكشوف.

ويقبل السياح على شراء المصنوعات الشعبية التي تباع هناك.. ريش النعام.. العاج.. الفخار.. جلد التمساح.. وجلد ثعبان الأصلة.. وهو ثعبان ضخم.. طويل.. يعيش على النباتات.. أما أكثر ما يقبل عليه الرجال فهو «إحليل التمساح».. شهرته في مضاعفة القوة الجنسية سبقت الفياجرا بمئات السنين.

وهناك أيضا تبرق محلات الذهب.. العشق الأول للمرأة السودانية التي تفضله عيار واحد وعشرين.. نوعا من التعبير عن الثراء.. ولا تقبله بأقل من كردان أو كوليه ثقيل تسميه الكرسي.. فمن يجلس عليه يقي نفسه غدر الزمن.

وتبدو الفنادق الكبرى وكازينوهات النهرين عند المقرن أكثر هدوءا.. وأكثر نعومة.. فهناك كنت ترى علاقات الحب تنمو علنا بين شباب وبنات الأجيال الجامعية الجديدة التي سمحت بالاختلاط.. لكن.. ذلك تغير تماما بعد الانقلاب العسكري الذي قام به ضباط ينتمون للإخوان المسلمين وأدخل السودان في متاهات الحرب الأهلية.. وحكمها بالحديد والنار.. ولا يزال.

والشخصية السودانية تحترم الحرية والخصوصية.. ولا تميل إلى الخصومة والقطيعة.. والموسيقي والشعر والطرب.. وجبات رئيسية تعيش عليها.. وتتعامل مع الحزن بنبل وواقعية.. فلا تفرط فيه.. ويصعب عليها التكيف طويل الأجل مع الغربة.. إلا لو كانت في مصر التي يعيش فيها الآن نحو ثلاثة ملايين سوداني.. يعملون ويتزوجون ويمتلكون دون متاعب.. وبالقرب من العتبة سوق لهم يبيعون فيه منتجات بلادهم.. وفي قوائم هيئة الاستثمار شركات يمتلكونها.. ومصانع يديرونها.. وتعيش قرية نقادة في سوهاج على إنتاج وتصدير الثوب الذي ترتديه المرأة في السودان.. وتجارة الجمال التي تبدأ في الخرطوم تنتهي في إمبابة بعد أن تعبر طريق الأربعين.. «الأربعين يوما».. وسهل ذلك كله ما بيننا من أشياء مشتركة.. أهمها النيل الذي يجري في عروقنا جميعا.

وهم يسموننا نحن أهل الشمال بالحلابية.. من الحليب.. إشارة إلى اللون

المختلف عن لونهم.. وهو ما يعكس عقدة اللون في نفوسهم.. والزنجي هو من لا تجري في عروقه دماء عربية.. والخواجة هو الأوربي المستعمر.

وحتى منتصف خمسينيات القرن الماضي كانت مصر والسودان دولة واحدة وكان الملك الجالس على العرش في قصر عابدين يسمى «ملك مصر والسودان».. وكل حزب سياسي في مصر كان له امتداد في السودان.. خاصة حزب الوفد والأحزاب الشيوعية المختلفة.. وفيما بعد مشى النظام هناك على خطى النظام هنا.. والدليل المباشر على ذلك.. تكرار التنظيم السياسي الواحد.. الاتحاد الاشتراكي.

ويعتقد غالبية المؤرخين الأجانب أن تاريخ السودان الحديث لا يبدأ إلا بالحملات التي وجهها محمد علي بين عامي ١٨٢٠ و١٨٤٠.. لقد بدأ جنون الباشا الكبير بجنوب البلاد يوم أتى إليه رحالة أوروبي اسمه كايو حاملا معه من الخرطوم زجاجة ماء من ملتقى النهرين.. وكيسا من بذور القطن وثماره طالبا منه تجريب زراعته في الدلتا.. وحكايات لا تنتهي عن ثروات العاج واللبان والألماس.

كان جناب الباب العالي يعاني من ضغوط كتائب الأتراك والألبان على حكمه فقرر أن يشغلهم بفتح السودان والوصول إلى منابع النيل.. ونجح ابنه الذي لم يزد عمره عن ٢٢ سنة في تنفيذ ما أمر به.. لكنه.. دفع الثمن حياته.

كان الأمير الابن قد سيطر على منطقة تقع على النيل.. في شمال الخرطوم تسمى شندي.. وطلب من ملكها ألفا من قائمة طويلة تضم البقر والجواري والأبل والضأن والماعز وحمولات الحبوب والتبن.. فقال الملك وكان يسمى «نمر»: «يبدو أن الألف هو الرقم الوحيد الذي تعرفونه.. حاضر».. وجمع كل ما طلب منه.. وكدس التبن حول المعسكر.. ثم أشعل فيه النار.. فحرق الأمير المصري وجنوده.. وكان انتقام والده أشد.. فقد «ذبح ألف ر جل وأحرق ألف

امرأة وأغرق ألف صبي».. ولم ينج من الانتقام سوى الملك نمر الذي فر إلى الصحراء.

ورغم نجاح الحملات المصرية في السيطرة على السودان إلا أن زيادة نفوذ تجار الرقيق العرب أوحى إلى محمد علي بأن يستعين بضباط أجانب لهم خبرة في إفريقيا لمساعدته في القضاء على نفوذهم المتنامي.. وظهر على السطح صمويل بيكر الذي سبق أن أشرنا إلى أنه مكتشف بحيرة ألبرت المنبع الثاني للنيل الأبيض.. اختاره الوالي لحبه في الزنوج وكراهيته للرق.. وهو نفس السبب وراء اختيار الخديو إسماعيل فيما بعد لجوردن حاكما على السودان.. بل إنه في عام ١٨٧٤ أرسله إلى النيل الأعلى لفتحه باسم مصر.. وبعد عامين فقط كان يسيطر على كل السودان بما في ذلك الجنوب البعيد.. وفي مقابل تحريم تجارة الرق احتكرت الحكومة المصرية تجارة الشمع وريش النعام وجلد البقر والثعابين والعاج وطيور الزينة.

والحقيقة أن الإنجليز استغلوا تسليم الخديو لهم بكل شيء في السيطرة على السودان وعزله والتصرف فيه على راحتهم وما إن احتلوا مصر حتى أكملوا هيمنتهم على السودان.

ولو قفزنا بآلة الزمن فإننا سنجد أن صلاح سالم هو أول مسئول مصري يزور الجنوب فيما بعد.. وقد اختير من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة لأنه سبق أن خدم فترة في القوة العسكرية التي كانت في الخرطوم مثله مثل محمد نجيب الذي خدم والده هناك وأنجبه من زوجته السودانية.. ولا ننسى أن أنور السادات أيضا كانت في عروقه تجري دماء سودانية.

وسخر المصريون من صلاح سالم الذي شارك الجنوبيين من قبائل الدينكا رقصهم.. ووصفوه على حد قول يوسف الشريف بالصاغ الراقص.. «دانسينج ميجور».. ولكن.. تلك السخرية تحولت إلى إعجاب عندما وجدت في بيوت

الشخصيات المؤثرة هناك صورا لكبرائهم مع صلاح سالم.. مع إجلال واحترام وتقدير وإعجاب لم يحظ به غيره ولا جمال عبد الناصر نفسه.

ولا ينسى الجنوبيون له أنه جاء بملابس تستر عوراتهم.. فقد كانوا عرايا قرونا طويلة.. وكان ملفتا للنظر أن المحلات التي تبيع الفانلات والشورتات الداخلية كانت تزدحم بالفانلات وتعاني عجزا في الشورتات.. فقد كان الرجال يكتفون بتغطية النصف السفلي ويتركون صدورهم مكشوفة.. عارية.

لم يكن وجود مصر في السودان استعمارا.. بل كان إعمارا.. فقد بنيت المدارس والكتاتيب والمساجد المصرية في كل مكان هناك.. وحفرت آبار ومدت سحارات نقل المياه في مناطق العطش والجفاف.. ومهدت طرق سهلت الحركة والانتقال.. وهو نفس ما حدث في الصومال الغربي عندما أدرك أمن مصر الإستراتيجي في القرن الإفريقي.

ولا ينسى الأثيوبيون ما فعلته جيوش محمد علي بهم عندما دخلت هرر وأعلنت الخلافة الإسلامية هناك ونجحت في تحويل قبائل بأكملها إلى الإسلام.. ومن يومها وهي تحارب مصر في السودان بالدس بين البلدين وإثارة الفتن بينهما.

في كتابه «كنت وكيلا للمخابرات العامة» يحدثنا عبد الفتاح أبو الفضل عن الدور الخبيث الذي كان يلعبه السفير الأثيوبي في الخرطوم ملس عندوم وقت الستينيات.. لقد تمكن بواسطة جيش من العاهرات (مثل زكاوة وأرجنيس وسهايتو) من تجنيد عشرات العملاء الذين استخدموا في تخريب المصالح الطبيعية بين مصر والسودان.. وبجانب العاهرات كانت الخادمات والمربيات اللاتي تجسسن على البيوت وعرفن أخطر الأسرار وأدقها.

لكن.. أغرب ما سمعت عن هيلاسي لاسي هو ما رواه لي الدبلوماسي السوداني الأسبق محمد عبد الرحمن الذي وضعته الظروف السياسية في موقف لا يحسد عليه انتهى باعتقاله في سجون الحبشة.. ولم يكن من

الصعب ـ وقد عمل سنوات طويلة صحفيا ـ أن المحقق الذي يتولى استجوابه إسرائيليا.

على أن الرواية الأشد غرابة هي أن هيلاسي لاسي لم يكن من العائلة الأثيوبية المالكة وإنما كان رئيس الحرس في القصر برتبة كولونيل واسمه تعري ماكونين.. ونجح في أن يوقع بزودي تو ابنة الملك الراحل ويتزوجها في وقت كانت فيه عمتها هي الملكة.. أما شقيقها ولي العهد فقد أجبر على ترك المنصب واتهموه بالجنون بعد أن سمى نفسه عبد الرحمن وأودعوه السجن.

ماتت العمة وأصبحت بزودي تو الملكة فطلب تعري ماكونين أن تجلسه بجانبها على العرش فوافقت فسمى نفسه هيلاسي لاسي.. لكن.. في الوقت نفسه أرادت بزودي تو أن لا يخرج الملك من صلب عائلتها فتحايلت حتى دخلت على شقيقها عبد الحمن زنزانته وأقنعته بمعاشرتها معاشرة الأزواج.. وكان الطفل الأول لها هو آصفاي وصن.. ثم أنجبت طفلا ثانيا من هيلاسي لاسي.. كبر على عشق النساء في الحرام.. وحاول إقامة علاقة غير شرعية مع زوجة طيار حربي.. وأبلغت الزوجة زوجها فنصب له كمينا وانتظره في الظلام حتى دخل غرفة النوم وأطلق عليه الرصاص.. وخوفا من الفضيحة أخذ هيلاسي لاسي جثمان ابنه ووضعه في سيارة ألقى بها من جبل مرتفع.. وهي قصة على واقعيتها تبدو وكأنها مستوردة من ألف ليلة وليلة.. لكنها طبائع الملوك.. حيث العرش أهم من الشرف.

كانت مهمة عبد الفتاح أبو الفضل هناك تعقب النفوذ الأثيوبي المعادي لمصر في السودان.. ولكنه وجد نفسه يهتم بالصمغ العربي الذي ينتج منه السودان المحصول الرئيسي.. وهو مادة إستراتيجية تستخدم في تسهيل دوران بريمات حفر البترول.

ويضيف يوسف الشريف: إنه على الرغم من علاقة المودة الظاهرة بين جمال عبد الناصر وهيلاسي لاسي فإن العلاقة السياسية الحقيقية بينهما ظلت دائما

حادة ومتناقضة في صراعات مشتعلة تحت الرماد.. فالإمبراطور كان يخشى أن يمتد التيار الثوري لمصر إلى بلاده إذا قدر لوحدة وادي النيل النجاح.. بما يعني نهاية سيطرته الكهنوتية المتوارثة عن أجداده.. كما كان يخشى أن يعيد التاريخ نفسه ما بين المسلمين في السودان والحبشة من علاقات ود وقوة كما كان في عهد أجمد الجاران الذي وحد الحبشة تحت زعامته الإسلامية.

والغريب أن احتلال مصر والسودان جرى في وقت واحد تقريبا.. فبعد هزيمة الثورة العرابية في مصر وهزيمة الثورة المهدية في السودان بدأ عصر الرجل الأبيض في السيطرة علينا معا.

المهدي صفة وليس لقبا.. صفة نالها صبي فقير.. اسمه محمد.. كان أبوه يصنع قوارب الصيد الصغيرة من خشب النخيل بالقرب من الشلالات في دنقلة.. ولازم الصبي شيخا تعلم منه القراءة والكتابة وحفظ القرآن.. وكسب أولى نقوده من بيع أسماء الله الحسنى لقومه الفقراء الذين لا يعرفون كيف يخرجون من حالة البؤس التي يعيشون فيها.

لكنه.. سرعان ما انتقل إلى جزيرة أبا بالقرب من الخرطوم ليساعد عمه في صناعة القوارب التي يأتي بها حجاج مكة من الغرب ويأتي بها تجار الرقيق من الجنوب.. وهناك بدأ يكتب آيات التحصين والحماية للفقراء كي يتجنبوا المرض هم ومواشيهم.. وفي الوقت نفسه كان يتبرع بما يملك للمساكين الذين لا يجدون ما يسد جوعهم.. فبدأ الناس ينظرون إليه نظرتهم إلى الأولياء.

وتروى أسطورة أن قبطيا عالي المقام جاء إلى الجزيرة فقدم له الولي الشاب شرابا.. فلاحظ أن الإناء الذي ينهل منه لا يفرغ.. وكانت هذه الكرامة كفيلة بنشر صيته.. وراح أنصاره يؤكدون أنه المهدي المنتظر الذي سيأتي مخلصا للعالم من الشرور والآثام.

ومن جانبه راح يروي لمن حوله من أتباعه المتزايدين رؤيته رسول الله في

المنام ومن حولهما الملائكة.. ولم يكن من الصعب بعد ذلك أن لا يصدق الناس أنه المهدي المنتظر.. ومع تزايد أنصاره بعث برسل منهم إلى القبائل المختلفة ليتبعوه.. واعدا بتطبيق دستور الله.. ومواجه أئمة الكفر والفساد.

أرسل إليه الحاكم المصري في الخرطوم أحد أتباعه ليكف عن ما يفعل.. لكن.. المهدي طلب من التابع أن يؤمن الباشا به وإلا قاتله وألقى بجنوده في النيل.

أرسل الحاكم سفنا تحمل ثلاثمائة جندي رست على شاطئ أبا.. لكن.. ضباط القيادة الثلاثة تنازعوا فيما بينهم فباغتهم رجال المهدي فهلك نصفهم وفر النصف الآخر.. فلم يعد هناك شك في قوة المهدي الخارقة المدعومة من السماء.. فأمر شعبه بإلغاء الإتاوات وعدم دفع الضرائب.. بل أخذ من الأغنياء ما لم يكن يدفعونه من قبل.. وارتفعت راياته البيضاء والحمراء.. واختار رجلا من أتباعه ليدير نيابة عنه شئون الدولة الجديدة.. هو عبد الله التعايشي.. وأصبح جيشه يسمى جيش الدراويش.

كان الخصم الأول للمهدية هم الأتراك الذين أهانوهم وأذلوهم وأجبروهم على دفع الضرائب.. ولكن أنصار السلطة الجديدة لم يختلفوا كثيرا عن من سبقوهم في الحكم.. فقد حكموا بالسياط المصنوعة من جلد وحيد القرن على حد قول أميل لودفيج.

في ذلك الوقت كان الإنجليز قد تربعوا على السلطة في مصر.. فلم تكن لهم رغبة في قتال المهدي ولو كان الثمن جلاءهم عن السودان إلا أن الكولونيل هيكس لم يقتنع بذلك وقرر أن يواجه بفرقته المهدية.. لكنه.. انهزم.. واندحر.. فعبر المهدي النيل ودخل الخرطوم فاتحا يتقدمه درويش حاملا على حربة رأس الكولونيل هيكس.

في ذلك الوقت أيضا كانت دول أوروبا القوية تحلم بغزو إفريقيا وتقسيمها

فيما بينها.. ومع انهيار البوابة في مصر.. ولو فتحت الحبشة بحصنها الطبيعي فإن القارة بأسرها ستفتح على مصراعيها لسيادة الرجل الأبيض.

لقد خرجت مصر من النيلين الأعلى والأوسط بعد ستين سنة من السيطرة على مناطقهما وقبائلهما.. وانحنى حكامها من الباشوات أمام المهدي.. وسلموا له.. وقدموا إليه جيادا أصيلة تليق به راح يجوب البلاد على ظهرها.

لكن.. إنجلترا لم تترك الأمر يمضي بعيدا عن عيونها.. وكان لا بد من استعادة السودان كما كان تحت حماية مصرية.. ليضرب المصريون السودانيين نيابة عن الإنجليز.. فيكون العداء للمصريين.. والغنائم للإنجليز.. وهو ما عبر عنه جوردن في مذكراته قائلا: «إن السودان امرأة بانت على بعلها المصري فإذا أرادت أن تتزوجه ثانية فدعها تفعل ذلك ليكون لنا معها شأن آخر فيما بعد».

كان جوردن الذي حكم السودان من قبل تحت علم مصر قد قرر القضاء على المهدي الذي قال عنه بجدية: إن «وجوده في الخرطوم رجوعا إلى الهمجية يهدد مصر».

بعودة جوردن إلى الخرطوم انتقل المهدي إلى أم درمان وكان من السهل عليه لو صعد سطح بيته الأبيض أن يبصر قصر عدوه الذي كان يقع على أعلى نقطة في العاصمة.

لم يكن الله مع جوردون.. فقد هبط مستوى النيل.. وعمت المجاعة.. وعجزت سفن الإمداد عن الوصول إليه.. ويطلق جنود المهدي النار على كل من يفكر في دخول الخرطوم.. بل إن جيش الدراويش راح يزحف على كل بقعة في الخرطوم.. وفكر جوردن في قتل نفسه.. لكن لا أحد أمهله ذلك.. فقد هجم عليه جنود الإمام وقطعوا رأسه وحملوها إلى سيدهم.. وغطت جثث الإنجليز والمصريين الطرقات في مذبحة لا تنسى.

في مصر كان سادة الحكم من إنجليز ومصريين يتساءلون عن مصير النيل بعد أن وقع في قبضة من أسموهم بالهمج.. لكن.. السؤال الأهم كان: هل يهاجم

الهمج مصر كما فعل أجدادهم منذ الآف السنين لتدوم لهم السيطرة على البحر الأحمر وقطع الطريق إلى الهند.

إن النيل مصدر الحياة لمصر.. ولو قطع في السودان سيكون خرابا عليها.. وهلاكا لأهلها.. وهو ما جعل إنجلترا تحارب كي تنقذ النيل.. ليس حبا للمصريين وإنما لاستمرار بقائها فوق عروش الإمبراطوريات الاستعمارية.

كان النيل هدف الحملة التي قدمت فيها مصر المال والرجال.. فالحرب من أجل المياه أقدم مما نتصور.. وتولى كتشنر القيادة.. وفي يوم ٢ ديسمبر ١٨٩٨ انقض جيش مؤلف من ٨ آلاف إنجليزي و١٨ ألف مصري بأسلحتهم الحديثة على جيش الدراويش في أم درمان.. وانتقم القائد الجديد للقائد القديم.. وخرب قبر المهدي الذي كان قد رحل وتولى بعده الخليفة.. وأمر بقلب جثمان الولي الراحل حتى لا يحج أتابعه إليه.. ثم حرق عظامه وألقى برمادها في النيل.. وعبر النيلين الأبيض والأزرق ودخل قصر جوردون ليرممه ويقيم فيه ويرفع عليه علم بلاده.. وفيما بعد قتل كتشنر بلغم ألماني في الحرب العالمية الأولى.

لم يكن سهلا أن تترك إنجلترا القابضة على مصر السودان.. ملتقى النهرين.. وقلب النيل.. ووسط مجراه.. ومركز قوته.. وموقع تدفقه.. وإن وافقت على أن تكون إدارة السودان ثنائية.. تشارك فيها مصر التي دفعت مالا ورجالا في إعادة فتحه.. بل إن مصر بقيت القوة الحامية في السودان.. وكانت تتكلف سنويا ٧٥٠ ألف جنيه إسترليني.

خلال الحرب العالمية الأولى خافت إنجلترا من انحياز المهدية للأتراك فأعادت أملاك المهدية في جزيرة أبا إلى الحفيد عبد الرحمن المهدي وقدمت إليه قروضا لاستصلاح أراضي أخرى غير الـ ١٣ ألف فدان التي تمتلكها عائلته.. ودخل الأنصار مرة أخرى الجزيرة التي طردوا منها ومنعوا من دخولها.

لكن.. تحصن المهدية في جزيرة أبا ظل صداعا في رأس النظام الحاكم في الخرطوم مهما كان.. أجنبيا أم وطنيا.. وقد حدث ذلك للمرة الأخيرة في نهاية

ستينيات القرن العشرين.. حين تجمع ٣٥ ألفا من أنصار الهادي المهدي.. حفيد المهدى الأول.. في نفس المكان.. جزيرة أبا.. وطالبوا نميري بالإفراج عن المعتقلين السياسيين.. وهـددوا بتنفيذ خطة جدهم.. الزحف على الخرطوم.. والاستيلاء على السلطة.

في ذلك الوقت كانت السودان عمقا إستراتيجا لمصر.. فقد نقلت إليها ما تبقى من الطائرات الحربية التي لم تضرب في ٥ يونيو ١٩٦٧ كي لا تكون عرضه لغارات إسرائيلية بلا غطاء من الدفاع الجوي.. ومن ثم كان لمصر مصلحة مباشرة في مساندة نظام نميري والإبقاء عليه.

طلب نميري من السوفيت أن تضرب طائراتهم متمردي أبا.. لكنهم رفضوا.. وكرر طلبه على مسامع الملحق العسكري المصري في الخرطوم.. فكان رده: إن الأوامر تأتي من القاهرة.

وبعد أن أرسل السفير المصري كمال خليل (شقيق مصطفى خليل رئيس الوزراء الأسبق) ببرقية شفرة بما يحدث رد جمال عبد الناصر على نميري برسالة كشفها محمد حسنين هيكل فيما بعد: «الأخ العزيز نميري تلقيت رسالتكم وإني على أتم الاستعداد لإرسال كل ما تطلبونه بدون تحفظ وأصدرت تعليماتي بأن تتواجد الطائرات وهيئة عمليات مصغرة فجر اليوم بالخرطوم لتكون تحت تصرفكم ولديهم تعليمات صريحة لتنفيذ أوامركم بالكامل».

كانت مجموعة المأمورية برئاسة النائب أنور السادات وتضم قائد الطيران حسني مبارك وقادة أسلحة أخرى بجانب مدير المخابرات العامة أمين هويدي.

وحسب ما أضاف محمد حسنين هيكل فإنه نجح في إقناع جمال عبد الناصر بإلغاء أوامر الضرب.. وكانت الحجة: «أنا لا أتصور أنه إذا ضربت الطائرات المصرية أي جماهير سودانية فإن هذا دم بين الشعب المصري والشعب السوداني.. وأخشى أنه سوف يؤثر على العلاقات بينهما».. كما أن تلك المنطقة لا يصلح فيها العمل العسكري.. ففيها ملتقى النيل القادم من سبع دول».

تغيرت تعليمات الضرب إلى تعليمات أخرى: أن يقوم الطيارون المصريون بطلعات جوية فوق أبا وتهديد المتمردين وإلقاء منشورات تحثهم على الاستسلام.. والمضحك كما يروي يوسف الشريف: أن الإمام المهدي قال لأنصاره: «إن الله رد كيد العسكر إلى نحورهم فقد تحولت قنابلهم بقدرة قادر إلى ورق متطاير في الهواء».

وقد أشاع المهدية أن مبارك أمر بضربهم بالقنابل من الطائرات التي حامت فوق رؤوسهم وهو ما نفاه مبارك بصورة قاطعة وإن استخدمت تلك الواقعة في الحرب الباردة التي اشتعلت بين نظامه بعد محاولة اغتياله في أديس أبابا والنظام الإسلامي في الخرطوم الذي دبر المحاولة وسعى إلى تنفيذها.

ولم يقبل مبارك الضغوط الداخلية التي مورست عليه كي ينتقم من السودان بضربها وإعلان الحرب عليها.. لكنه.. وجد أن الحرب لا مبرر لها طالما أن النيل يجري.. ولم يستخدم طرفا في الصراع بين النظامين.

والنيل من الخرطوم إلى أسوان يمر بواحد وثلاثين شلالا دون حساب المساقط العابرة.. وأطلق العرب على هذه الشلالات أسماء بدلا من الأرقام.. أسماء مثل الجمل والمورجان وبيت العبد والمغفور والموحل والحارك.. وتبدأ عروة النيل الكبرى ـ وهي الوحيدة في مجراه ـ من الجنوب إلى الشمال عند الشلال السادس.. وتنتهي عند الشلال الأول.. ويمشي النيل عبر ١٢٠٠ كيلومتر وسط صحراء وصخور إلى أن يصل إلى أسوان.. حيث يسترد علاقته بالبشر.. للمرة الأخيرة قبل أن ينتحر من شدة الإهمال على شواطئ البحر المتوسط.

لقد دخلنا حدودنا.. وعدنا إلى الوطن.. لنبدأ مع النيل قصة أخرى.. ليست مثل ما سمعنا من قصص.

نقطة من أول السطر.. أو من أول قطرة في النهر.. لكن.. في كتاب آخر.



«إن النيل الذي ينبع من عيون الأثيوبيين والأوغنديين يصب في قلوب المصريين.. وليست صدفة أن أخلاق الشعوب هنا وهناك متشابهة.. وربما متطابقة.. طيبة إلى حد التفريط.. وخبث خفي إلى حد التضليل.. سلوك يتجنب العنف.. ويخشى السلطة.. وينافقها.. ويمشي في ركابها.. ويصلي وراءها.. دون أن يثق فيها.. أو يؤمن بها.. صفات مشتركة بين أمتين تختلفان في كل شيء ولا يجمعهما سوى النهر...

ولكن.. بقاء الحال من المحال.. والمصالح الدولية والإقليمية المتشابكة تتغير.. وألعاب القوى الخفية لن تنتهي.. والمعاهدات الدولية لو لم تجد قوة تحميها تفقد صلاحيتها.. وهو ما حدث بالضبط في دول المنبع والمجرى التي تمردت على كل ما فات وطالبت جديدة.. ومعاهدة جديدة.. وأنصبة مياه جديدة.. وهو ما فجر أزمات بينها وب كانت الأخيرة في صيف 2009 الأكثر حدة.. وبدأت تداعياتها الخطرة تتوالى.

ولنبدأ من أول السطر.. من أول قطرة في النهر».

عادل



دار الشروق
www.shorouk.com